

البيان النبوي

الدكتور

محمد رجب البيومي

البيان النبوى

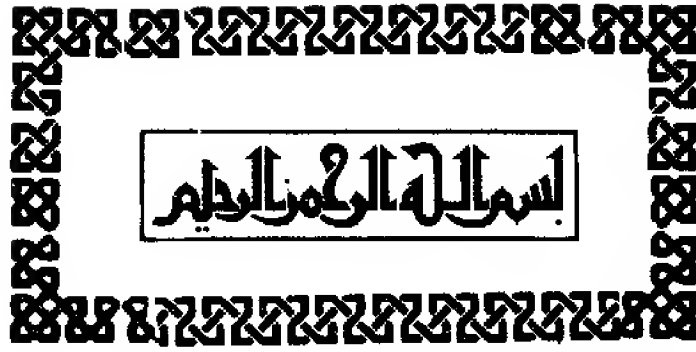
الدكتور

محمد رجب البيومى

كافة حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

مركز البحوث للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م. المنصورة
التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة البقاء
ت : ٣٤٧٢١ - ص.ب. : ٢٣٠ - تلکس : ٢٤٠٠٤ DWFAUN





اسم الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ زمن بعيد وأنا أبحث في المكتبة العربية عن كتاب يخص بيان محمد ﷺ بدراسة تحليلية مفصلة فلا أجد ، إذ أن كتاب الله الخالد قد شغل جمهور النقاد وأئمة البلاغيين في القديم والحديث بدراسة إعجازه فأطالوا القول كما يشاءون .. مستعرضين ما يعين لهم من أبواب الإعجاز ومناحيه ، ولم يشحذ أحد هؤلاء همته ليخص البيان النبوي بدراسة تحليلية ، في كتاب خاص تظهر روائع إبداعه ﷺ وتوضح سمات أسلوبه ، ومع كثرة ما كتب عن تاريخ محمد ﷺ من المجلدات الواسعة شرقا وغربا وقديما وحديثا قل أن تجد من أفرد فصلا خاصا في مؤلفه الكبير يتعرض فيه إلى البيان النبوي في تدفق وإسهاب ، إلا ما كان من إشارات عابرة تنبئ عن أنه أفصح العرب ، وقد نشأ في قريش وتربى في بني سعد فرزق بلاغة وبيانا وأوتى جوامع الكلم ، فإذا تجاوز الكاتب ذلك فإلى أمثله نبوية مشتهرة من نحو قوله عليه السلام رفقا أنجشة بالقوارير ، إياكم وخضراء الدمن ، هدنة على دخن ، حتى البلغاء من أمثال الجاحظ وأبي هلال وابن الأثير قد اقتضبوا القول اقتضابا في سرعة طائفة دون أن يطيلوا القول الشارح في دقة واستقصاء ، وسنلم بهذه القضية في فصل من الفصول التالية ، أما الشريف الرضي فقد خص المجازات النبوية بكتاب خاص فسد مسدالم يسده أحد قبله أو بعده . ولكن المجازات ليست إلا بابا واحدا من أبواب البيان النبوي . ولذلك ظلت الحاجة داعية إلى تأليف كتاب شارح يفصل الحديث عن بيان خاتم الأنبياء .

ثم أذن لي أن أتقدم برسالة الدكتوراه إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فأخذت أستعرض كثيرا من الموضوعات الأدبية التي تدعو الحاجة إلى بحثها ، وكان موضوع البيان النبوي أسرع هذه الموضوعات إلى نفسي ، وأشدّها سيطرة على تفكيرى ، فكنت أحاول أن أبتعد عنه لما أعلم من تعدد مناحيه وصعوبة مرتقاه ، وافتقاره كل الافتقار إلى كاتب عملاق ليستطيع أن يستشف اللباب الخالص من هذا التراث الحفيل وأن يتبين الأسرار الدفينة فى أدب رفيع كان أروع ما أوحى به البشرية الإنسانية من بيان . ولكن الموضوع يلح على إلحاحا ويتسرب إلى منافذ إحساسى وشعاب تفكيرى تسربا يجبرنى على بحثه ، فقلت فى نفسى لتضع أنت اللبنة الأولى فى هذا الصرح الشاهق فلعل أديبا كبيرا يفكر فيما كتبت فيحاول أن يقيم الصرح وحسبك أن وجهت إليه الأنظار وذلك جهد ماتستطيع .

ثم بدا لي أن اضع خطة البحث ، فتذكرت أن أستاذا جامعا قد تعرض قريبا إلى رسائل الدكتوراه العلمية بجامعة القاهرة وعين شمس والإسكندرية بنقد هادف ، فأعلن أن كثيرا منها لا يبرز المجهود الذاتى فى روعة الابتكار ، وحسن الاختيار ، وطرافة البحث ، وظهور الشخصية ، وإضافة أشياء جديدة هامة إلى الموضوع المعالج ، إنما هى صفحات تردحم وتتكاثر ، وجلها نقول محشودة وأقوال مرصودة والبحث الجامعى فى رأى الناقد لا ينبغى أن يقف عند الحشد المتزاحم ، بل لابد من الإضافات الجديدة والبعد عن المطروق الذلول وعن الاهتمام بالكم العدى اهتماما يجعل الميزان الحديدى أحد مرجحات التقدير فى الحجم الثقيل ، كما أن موضوع البحث يجب أن يركز على نقطة واحدة لا على عدة نقاط ، فالرسالة الجامعية التى تبحث عن عصر أدبى بما يموج فيه من مذاهب وشخصيات وأفكار ليست رسالة جامعية مقبولة لدى الناقد مهما تعددت صفحاتها ، إنما هى ملخصات تسرد فى تتابع . والرسالة الجامعية المقبولة لديه هى التى تشير الغبار عن نقطة واحدة مجهولة فتسلط عليها الضوء حتى تتضح . أقول لقد ذكرت ماقاله الناقد الجامعى حين بدا لي أن اضع خطة

البحث ، فوقع في نفسى أطيّب موقع ، وصممت على أن أبحث نقطة (البيان النبوى) وحدها ، متجنباً الحشود والفضول ، هادفاً إلى الغرض من أقرب طريق ، نائياً عن المكرر المعاد فإذا تطلبه المقام فى بعض الفصول فالإمامة موجزة تشير إليه أولى من الإسهاب المطيل .

لقد بدأت الرسالة بفصل يبدد ما حيك حول السنة النبوية من شبهات دفع إليها الجهل عند قوم ، والغرض عند آخرين ، والإرجاف بالسنة المطهرة قديم عريق فى تاريخ الإسلام ، ولكن هذا العصر قد ابتدع من الشبه ما لا تكفى فيه الإحالة على ما كتب المتقدمون ، فعمدت إلى إحقاق الحق مظهراً دخائل من لبسوا الباطل بالحق من ذوى الاستشراق ، ومشيراً إلى من تأثر بهم من صادقى النية فى علمائنا ، وكنت مع ماألزمت به نفسى من الإيجاز المقنع حريصاً على ألا أترك فى صدر القارئ المنصف شبهة تتردد . وهذا الفصل الأول لا بد منه فى رسالة تتعرض إلى تحليل البيان النبوى لتقف أقدامنا على أرض صلبة لاتصيها زلازل الشك ببعض الصدوع .

ثم ثنيت بفصل يتحدث عن الطابع الأدبى للبيان النبوى لأجعل من تحقق هذا الطابع دليلاً على صحة النص المحمدى ، إذ أن علماء الحديث قد أطالوا القول فى السند ثم فى المتن من ناحية المضمون . وتركوا الحديث عن طابعه الأدبى بخصائصه المميزة وهو فى الحقيقة أحد موازين التقدير والترجيح ، وقد مهدت بذلك للرد على من يرون من العلماء عدم الاستشهاد بالحديث النبوى لغة ونحواً مفندا آراءهم بما قال بعض الأفذاذ فى ذلك وبما تهيأ لى من الرأى مستندا إلى ماجمعته من الحجج الصحيحة . متعجباً أن يكون نثر الأعراب موضع استشهاد لدى علماء اللغة والنحو ثم لا يكون حديث أفصح الخلق أهلاً لذلك عند بعض المتزمتين .

وجاء الفصل الثالث ليتحدث عن العامل الرئيسى فى تكوين بيان محمد صلى الله عليه وسلم ، جازماً بأن ما يذكر كثيراً بصدد ذلك من نشأته فى قريش ورضاعه فى بنى سعد إنما كان أقل العوامل فى بيانه النبوى ، إنما العامل الأول هو فطرته

القوية التي طبعه الله بعلها منذ اختاره للدعوة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .
هذه الفطرة السليمة التي دفعته إلى التفكير في آثام الجاهلية ونزواتها ثم إلى
التألم مما انحدرت إليه الإنسانية من موبقات مع الظمأ اللاهب إلى معرفة
الحقائق الصحيحة عن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والموت
والحياة . كل ذلك كان مبعث أسئلة عويصة تتردد قبل البعثة في نفس صاحب
هذه الفطرة القوية المتطلعة ثم اختصه الله بالقرآن فأجاب عن أسئلته وهداه
الطريق الأقوم ، فكان أستاذه الموجه دون نزاع .

يصدر عنه في تفكيره ويستهديه في خطبه ورسائله وأحاديثه . وأنعم بما
صدر عنه وبما استهداه .

وكان لا بد من الحديث عن محمد الخطيب في فصل رابع يشرح سمات
خطابته صلى الله عليه وسلم فيعرض بالتمثيل والشرح إلى ما اتسمت به من الإيجاز وقوة الإقناع
ووضوح العبارة مع التزام الصدق والوقوف على أسرار النفوس ومطاولى الأفتدة
لدى المستمعين ليأتى القائل بما يجذب ويروع . وقد تعود كثير من مؤرخي
الأدب العربي أن يتحدثوا عن محمد الخطيب حديث الملخصات المدرسية . إذ
يكتبون صفات مقتضبة مرقمة تنطبق على خطب محمد صلى الله عليه وسلم كما تنطبق على
خطب على كرم الله وجهه . ولكني جعلت التشريح الأدبي للنصوص النبوية
رائدى في التشخيص والتعليل . واعتقد أنى أتيت في ذلك ببعض ما يقال .

أما موقف الرسول من الشعر والشعراء فكان مجال فصل خامس يبسط هذه
القضية موضحا ما أحيط بها من لغط كثير وكاشفا قدر الطاقة ماتجمع من غيم
يتراكم على الأجيال إذ ينقل اللاحق عن السابق دون تمحيص . وقد خالفت
الجمهرة الغالبة من الأدباء حين أجمعت كثرتهم الكاثرة على أن أفصح عربى
خلقه الله كان لا يقيم وزن الشعر فى الإنشاد بل يبدل كلمة مكان كلمة حتى
لا يتوهم متوهم أنه ينشئ الشعر ، والفرق بين الإنشاد والإنشاء هو ما عولت عليه
فى إحقاق الرأى ، وقد صدرت فيما ذهبت إليه عن اجتهاد وبحث فإذا أخطأت
فحسبى أن اجتهدت .

ثم تحدثت في الفصل السادس عن رسائل محمد ﷺ ونصوص معاهداته فجعلت من سماتها الدقة الموجزة ومراعاة مقتضى الحال في التزام الواقع والبعد عن المجاز ما أمكن حذرا من اختلاف الفهم عند التفسير والتأويل ، وضربت الأمثلة المتعددة لذلك بما تُنوقل عنه في رسائله ومعاهداته ﷺ مبددا شبيهة من ظن بها بعض الجفاف ، إذ أنها في احترازها اللبق قد صادفت مقتضى الحال ولو مالت إلى الرونق البلاغى لفتحت باب اللجاج عند تطبيق النص الملتزم . وهذا ما تحاشاه أبلغ الفصحاء .

وجاء الفصل السابع ليتحدث عن الأقصوصة في أدب الرسول ، فاخترت منها بعض ماروته كتب السنة المطهرة ، موضحا خصائصه الأدبية من الاعتماد على الوحدة الفنية ، وانتقاء اللفظ الموحى مع الاستشارة الآخذة ، والتشويق الجاذب ، مبينا كيف اعتمد الرسول على المناجاة في بعض أقاصيصه ، وعلى الحوار في بعضها الآخر ، ومصورا قدرته على رسم الحادثة وتلوين الشخصية في اطارها الخاص لتبلغ مبلغا من السامعين .

ثم انتقلت إلى الحديث في الفصل الثامن عن صور القيامة في أدب محمد ، فأوضحت كيف كان القرآن أول كتاب في العربية رسم هذه المشاهد في قوة وتأثير . وكيف صدر عنه محمد فيما تحدث به من مشاهد الآخرة ، فلون مواقف الصراط والميزان والحساب والجنة والنار تلوينا أخاذا ترسمه المبدعون من بعده شرقا وغربا . وأفضت في ذكر الأمثلة الدالة والشواهد الشارحة .

وكان حديثي في الفصل التاسع عن تأثير حديث المعراج في الأدب العالمي شرقية وغربية ، امتدادا للحديث السابق من بعض وجوهه ، لأن بعض مشاهد المعراج تشبه بعض مشاهد القيامة ، وتقترب منها اقترابا قويا . ولكن الفصل التاسع قد اختص بقضية التأثير النبوي في بعض الآثار الأوربية والفارسية فضلا عن الأدب العربي ، وتوضيح ذلك مما يتحتم في رسالة تبحث عن بيان محمد عليه السلام .

ثم جاء الحديث فى الفصل العاشر عن محمد الداعية ، فحددت المقصود من الداعى فارقا بينه وبين الخطيب ، وقد أفضت فى تشريح مااعتمد عليه الداعية الأعظم فى أسلوبه الإرشادى ، من التكرار المعنوى ، ومن لباقة العرض للموضوع الواحد فى صور مختلفة ، من استثارة الوجدان الإنسانى بتقديم مايمتنعه ويقنعه ويرضيه .

أما الفصل الحادى عشر فقد قصرته على الحديث عن محمد رائد الابتهاال فى الأدب العربى ، فاستعرضت نماذج مختلفة لأدعيته النبوية ، مفصلا أهدافها وشارحا خصائصها ، ثم مشيرا إلى ضرورة الاعتناء بها لدى مؤرخى الأدب العربى باعتبارها فنا جديدا قد احتذاه أساطين البلغاء من أمثال على وزين العابدين وجعفر الصادق والحسن البصرى إلى أساطين الصوفية وأئمة الوعظ . على مر العصور دون أن يجد هذا الفن الرائع من يخصه بالبحث فى كتاب مستوعب كبعض الأغراض الهابطة من خمريات وهجاء ونقائض ، تلك التى أتخمت بها المؤلفات إتخاما حتى أملت وأضجرت . وغيرها من الأدب الرائع تحت الأطباق دفين طريح . ولأجد حرجا من القول بأنى اعتمدت على نفسى وحدها فى الحديث عن الأقصوصة النبوية وعن مشاهد القيامة وعن محمد الداعية وعن رائد فن الابتهاال إذ لم أجد من الكتاب من سبق له بعض القول فى ذلك ، ولن أقول هذا تزييدا بل أشير إلى أن هذه الأبواب الجديدة بذور تغرس حديثا فى الأرض وتتطلب المعاودة والمراجعة ككل جديد .

ويجىء الفصل الثانى عشر — وهو ذو أهمية كبيرة فى البحث — ليتكلم عن سمات البيان النبوى ، فيشرح خصائص الأدب المحمدى مقسما عناصر أسلوبه إلى أفكار وصور وتعبير ، ثم ليتحدث عن كل عنصر بما يبرز دقائقه مع التمثيل والتدليل ، وإذا كان تقسيم الأسلوب إلى عناصر ثلاثة مسألة اصطلاحية معاصرة إذ أنه لايمنع أن تكون الصورة جزءا من الفكر فى كثير من الأساليب ، كما أن التعبير يلتصق بالفكرة التصاقا تاما بحيث لاتبرز فى البيان الأدبى عن غير طريقة ،

أقول إذا كان هذا التقسيم مسألة اصطلاحية فقد راعيتها على ما يوجه إليها من بعض الاعتراض لأنها مع ذلك كله أقرب طريق إلى التحليل الصادق والتشريح الواضح بحيث تعطى القارىء صورة أمينة لما يريد الكاتب أن يقوله عن كل نص أدبي يتعرض له ، وقد اتسع المجال فى هذا الفصل للحديث عن أمور بيانية تدرج فى الصورة الفنية ، فأوضحت المراد من التشبيه فى البلاغة المعاصرة ، وبينت الصورة الجزئية والصورة الكلية ومنزلتهما فى الأسلوب البياني ، كما أوضحت المراد من الموسيقى الخفية النثرية على نحو ما أسفرت عنه الدراسات المعاصرة ، كل ذلك فى ظلال الاستشهاد بالحديث النبوى ، وفى ظلال الحديث عن التعبير النبوى رأيت الموضوع يتسع للقول المحدد عن الغرابة فى الألفاظ مفصلاً كيف استعملها الرسول فى بعض مخاطباته للأعراب من القبائل النازحة ، كما بينت ما يورثه التكلف البديعى فى القول من ثقل وجفاف ، موضحاً موقف البيان المحمدى من السجع ، ومستشهداً بآراء النقاد فى ذلك . مما أرجو معه أن تكون سمات الأدب النبوى قد برزت بوضوح لا لبس فيه . هذا ومجال القول فى هذا الفصل بالذات شاسع فياح ولكن التحديد أجدر .

أما الفصل الثالث عشر فقد اختص بإيضاح رسالة الأدب كما حققها نبى الإسلام ، وقد بدأت بالإشارة إلى إن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، وقد كان تعبير رسول الله كخواطره الشريفة فى أرفع درجات الجمال ، فهو بهذا الاعتبار أديب لأمحالة .

ورأيت أن أشير إلى التقاء الأدب الرفيع بالدين حين يصدر الأديب عن مثل رائحة ومبادئ نبيلة مبيها كيف سما محمد برسالة الأدب سمو لا يتناول ، ومفصلاً نصيبه ﷺ من تحرير الأفكار وإنارة العقول مما يساعد على إبداع أدب عاقل متحر ، ولم أر بدا من الإلمام بقضية الفن للفن كما تتردد بين الحين والحين ، لأرى مدى ماتنتهى إليه فى ظلال الحديث عن أديب كبير كنبى الإسلام ، ثم استشهدت بفقرات جميلة للأستاذ درينى خشبه عقدها فى الموازنة بين أثر

الأدب النبوي في إصلاح العالم وأثر كبار أدباء أوروبا في كل لغة وموطن .
وهو قول لم يصدر عن حماسة المؤمن قدر ما صدر عن بحث المنقب الهادف
وقضاء العادل المنصف .

وكنت أتمنى أن أعرف موقف الرسول من النصوص الأدبية في عصره
وماسبقه من أدب الجاهلين ، وحين أعوزني ذلك عقدت الفصل الرابع عشر
لأتحدث عن تفسير النبي ﷺ للقرآن على أنه في بعض وجوهه نص بياني .
فضربت الأمثلة الوافية لما كشف به النبي عليه السلام عن بعض المعاني
المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق ، ولما فسر به النبي كلام الله في سياق
إرشادي يمهد للمعاني القرآنية ، ويكشف عن مدلولها ، ثم لما جاء فيه التفسير
المحمدي إجابة عن سؤال ، أو مراعاة لواقع حال . ولم ألجأ إلى كتب التفسير
المشتهرة في ذلك بل لجأت إلى النصوص النبوية في كتب الحديث ، وهي
بحمد الله ذات حيز كبير .

أما الفصل الخامس عشر فقد جعلت عنوانه (بين إعجاز القرآن وإبداع
الحديث) مثلما ما يقال في الاختلاف الشاسع بين الأسلوب المعجز
والأسلوب المبدع . ليكون هذا الباب في لبابه ردا على من يزعمون من ذوى
الاستشراق أن القرآن من تأليف محمد . إذ ما بين الأسلوبين من الاختلاف
لا يشير أدنى إشارة إلى تأييد هذه الفرية الخبيثة . وقد تعمدت تعمدا أن أكثر
الاستشهاد والنقل في هذا الفصل بالذات عن كبار الكتاب والباحثين لأجد من
أقوالهم ما يزيد الموضوع قوة وتأييدا . وقد قلت بصدد ذلك أن الكاتب ضعيف
بنفسه قوى بتأييد غيره وموافقته . فإذا استعنت في هذا المقام الدقيق بآراء ذوى
العقول القوية فقد آويت إلى ركن شديد .

ويجىء الفصل السادس عشر — وهو الفصل الأخير — خاصا بما تحدث به
كبار النقاد في القديم والحديث عن البيان المحمدي فاستعرضت أهم ما قال
الجاحظ والشريف وابن الأثير محللا مناقشا ، ومكتفيا بهم عن غيرهم في

القديم ، ثم عمدت إلى ثلاثة من قادة المعاصرين في الأدب العربي وهم الرافعي والعقاد والزيات فأوجزت بعض اللباب مما سجلوه عن البيان النبوي . وقد تحدث هؤلاء جميعا بما شرّح سمات الأدب النبوي تشريحا يضاف إلى ما خصصت به الفصل الثاني عشر من تحليل فيزيده قوة وتأكيذا ، كما يبين كيف وقفت هذه العقول الكبيرة موقف المأخوذ بأدب النبوة المسحور بطابعه الفريد . وهو تبين يؤيده الشاهد ويدعمه الدليل .

أما المراجع ، فقد تعددت وتنوعت وسأشير إلى أهمها في خاتمة البحث . ولكنني أخص بالذكر مرجعا حافلا هو كتاب « التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول » وقد كتبه مؤلفه المعاصر في خمسة أجزاء كبار تحوى ما فى أصول الحديث الخمسة الصحاح وهى صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى والمجتبى للنسائى ، ثم رتبه وفق الأبواب من عبادات ومعاملات وآداب وسير ومكارم أخلاق ومغاز وابتهاال ورقائق وهلم جرا ، فيسر لى طريق البحث إذ أنه عرض ما فى الكتب الصحاح عرضا سهلا ذلولا ، يقرب المراد من أيسر طريق ، وقد قرظه كبار العلماء المعاصرين كالأساتذة محمد بخيت ، وعبد المجيد اللبان ، ويوسف الدجوى ، وعبد الوهاب النجار ، وحيب الله الشقنيطى بما لامزيد عليه فوق تزكية الأستاذ محمد مصطفى المراغى إياه ، وقد قرأته جميعه مرات كثيرة فوجدته أهلا لكل تزكية ، واعتمدت عليه فى أكثر مارويت من الأخبار عن رسول الله . أما هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى بجزئيه الكبيرين فقد أكثرت من النقل عنه دون الأصل لأنه رتب الأحاديث النبوية — مستقاه من صحيح البخارى — وفق الحروف الأبجدية فكان ذلك مما يسهل العثور على النص النبوى دون عناء . وجزى الله أنصار السنة بما أسلفوه ، وأنزلهم أرفع المنازل يوم يقوم الأشهاد .

هذا وأرانى بعدما بذلت جهدى المحدود فى هذه الرسالة المتواضعة مضطرا إلى أن أختتم مقدمة البحث بما ختم به الأستاذ مصطفى الرافعى حديثه عن البلاغية النبوية إذ قال :

« على أننا إن كنا قد عجزنا ، ووعدنا الكلام أكثر مما أنجزنا فلاضير أن نصف النجم في سراه ، وإن لم نستقر في ذراه ونستدل بما رأينا منه وإن لم ننفذ فيما واره ، وإذا خطر الفكر الضئيل في مثل هذه الحقيقة السامية ، فقل إنها خطيرة ضيف وإذا اجتمع للقلم سواء في تلك السماء العالية ، فقل إنما هي سحابة صيف ، ولعمر الله كيف نضرب بالغاية على تلك البلاغة التي لاتحد ، وكيف نمضى بعد أن كل حد الفكر ، ووقفنا عند هذا الحد^(١) »

على أنى أزيد على قول الأستاذ الرافعى أن أدعو الله بهذه الآية الكريمة : ﴿ ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين^(٢) ﴾



(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٣٧٨ .

(٢) البقرة آية ٢٨٦ .

النص النبوي ثابت مكين

لم تخل الأحاديث النبوية الكريمة من شبهات ظالمة ، تحيق بها بين الحين والحين ، إذ يرجف بها قوم لم يبلغوا من أصالة العلم حدا يقف بهم موقف المطمئن الواثق ، فيسرعون إلى تسطير ما تهجس به نفوسهم دون تريث ، ولكن الراسخين في العلم من ذوى البصر الثاقب بتاريخ الحديث والمحدثين كانوا ولا يزالون يؤدون حق الله في تمحيص الحقائق ، وإزالة الأراجيف ، فما يهتف شك بقول مخطيء حتى تجد السنة المطهرة أنصارها الغير من قوم علموا الحق فأذاعوه ، ورأوا الباطل فناوءوه ، ومن الطبيعي في تاريخ العلم أن تنشأ بعض الشكوك حول بعض مقرراته ، وهى مما لاتضيق بها صدور قوم يعلمون أن الشك طريق اليقين ، وأن من حق المتشكك أن يفصح عن خباياه ليجد الدواء الناجح فى شفائه ، فإذا عرف الحقيقة وأشاح عنها متعسفا غير منصف ، فلا علينا منه ، وحسب المنصفين أن يطمئنوا إلى معتقدتهم الصحيح .

وقد كان الخوارج وبعض غلاة الرافضة ممن أباحوا لأنفسهم تجريح بعض الصحابة ، ووراء ذلك تجريح ما يروونه من بعض الأحاديث ، ثم قام بعض رءوس الاعتزال يجاهرون بالشك فى حجية السنة بأدلة يرونها موضع السداد والتوفيق ، ولكن الله قد قبض للسنة من يدحض أدلة الاعتزال ، حيث فسح للإمام الشافعى فى الأم^(١) مجالا واسعا لعرض آراء الناقدين والأتیان على بنيانها من القواعد ، وقد سبق ذلك مساق الجدل فى حوار هادف يرد الحق إلى نصابه ، ثم مضت العصور وماتزال حجج الإمام الشافعى فى أدلتها الملزمة وإفحامها الملجم موضع القبول والإعجاب ممن لايعتقدون الرأى عن هوى مريب .

(١) الجزء السابع من كتاب جماع العلم ص ٢٥٠

أما ما افتراه الزنادقة والملاحدة حول السنة المطهرة فما أسرع أن تبدد ظلامه في ضياء الحقائق ، وكان صدوره من ذوى الريب مدعاة للنفور منه بادية ذى بدء ، إذ هناك فرق بعيد بين أن يرجف بالسنة معتزلى شبه عليه وجه الحق وهو بعد صادق السريرة عظيم الإخلاص ، جهير الحجة ، وبين أن يرجف بها زنديق يلحد في آيات الله ويتعمد مواطن الريب ، لينسج من وهبها المتآكل ستارا يضل البصائر الكليلة ، ويرضى النفوس العليلة ، لذلك كانت الأسماع تنأى عن مفتريات الزنادقة الكاذبة عن الحديث وغيره من أصول التشريع ، وإن كان ذلك لم يمنع علماء الإسلام من تفنيد شبهاتهم الواهية من أقرب طريق .

وإذا كان لكل عصر شكوكه وأوهامه فإن المعركة لاتزال قائمة ، إذ دلف إلى الميدان فريق من المستشرقين تسلحوا بسعة الاطلاع ، وادعوا أصالة المنهج فى التبويب والتحرير وعكفوا على المخطوطات المجفوة ينشرون مهملها ، ويفسرون نصوصها ، ثم خدعوا بعض الناس لدينا ، وأكثرهم قد تتلمذ عليهم فى بلادهم ولم تكن لديه دراية إسلامية بصيرة قبل الاتصال بهم ، فحين قرأ بحوثهم المغرضة وقر فى نفسه أنها آية الآيات فى سلامة المنهج وصحة الاستقراء ، ودقة الاستنباط ، ثم وفد إلينا مع رفاقه ليبشروا بأراء أساتذتهم وفيهم من أصاخ إلى الحق من علمائنا بعد النقاش والتصويب فبان لديه الزيف ، ومن مضى فى غلوائه ، فظل يردد ما نقل ، ثم ترجمت إلينا نصوص هؤلاء ، فقرأ طلاب العلم دوائر معارفهم الإسلامية ، ونصوص مؤلفاتهم الدينية وقد مزجت السم بالدم ، فكان واجبا أن تنشب المعركة من جديد ، لاسيما أن الأحاديث النبوية قد ظفرت من افتراء الاستشراق بأوفى نصيب .

وإذا كانت دائرة المعارف الإسلامية قد ترجمت إلى العربية تحت عناية وزارتي التربية والثقافة ، فأتىح لها أن تصل إلى كل مكتبة عربية فى المدارس والكليات والمجامع العلمية فإن مما يفاجأ القارئ أن يجد بها فى مادة الحديث هذه الأسطر المرية :

« لا يمكن أن تعد الكثرة الغالبة من الأحاديث وصفا تاريخيا صحيحا لسنة النبي بل هي على عكس ذلك تمثل آراء اعتنقها بعض أصحاب النفوذ في القرون الأولى بعد وفاة محمد ونسبت إليه فقط .. » .

والحق أن سياسة الاستشراق التبشيرية كانت من البراعة بحيث استطاعت أن تخفي نياتها المرضية في هذه الناحية الهامة متذرة بما يوجد في بعض الكتب الدينية من الأحاديث الموضوعية . فاستقت منها مادتها الخصبة للدلالة على ماتزعم . متطرفة من بابها الهين إلى الطعن في جل ماورد ، مع أن المبتدئين في علم السنة يعرفون أن أئمة الحديث قد أسهبوا القول في الموضوعات من الأحاديث ولم يتركوا أثرا نبويا إلا حكموا عليه وأبانوا درجته ، وتعرفوا سلسلة رواته وحقيقة منته ثم بحثوا عن الوضع الكاذب ومتى بدأ ؟ أبدأ في عهد الخلافة الراشدة أم في عهد الأمويين ومن وليهم ؟ ثم ما مبررات هذا الاختلاق أمهي الخلافات السياسية بين الأموية والخوارج والشيعة إذ ينتصر كل فريق بما يروج من المفتريات ، أم الزندقة المتأصلة في نفوس قوم آمنت ألسنتهم وكفرت قلوبهم فهبوا يهدمون الإسلام ، أو يحاولون بما يختلقون من أكاذيب تنسب لصاحب الدعوة المطهرة ، أم العصية القاتلة للجنس والقبيلة واللغة والموطن ، أم القصص والمواعظ التي قام بها أناس لا يرجون الله وقارا فاستهوا العامة بغرائب الأقوال عن الجنة والعرش والملائكة وخلق الكون وتواريخ السابقين معزوة إلى رسول الله ، أم الخلافات الفقهية والكلامية التي جعلت ضعاف النفوس يؤيدون أقوالهم بالمخترع الزائف دون تقوى أو خشية ، أم الجهل الشائن بالدين يدفع فريقا من الزهاد والعباد إلى اختلاق أحاديث الترغيب والترهيب ظنا منهم أنها تميل بالنفوس إلى الخير عن الشر ، وتجتذب الغافلين إلى الاستغفار والتسبيح أم التطفل المباهى بالمعرفة لدى نفر يفتخرون بعلو الإسناد وغريب الحديث^(١) .

(١) السنة ومكانتها في التشريع من ص ٧٦ إلى ٨٨ .

أجل عرف المبتدئون في دراسة الحديث كل ذلك ، كما عرفوا أن جهودا جبارة بذلت من كبار العلماء لمقاومة الوضع والتوثيق من الأحاديث ، فنقدوا الرواة ودرسوا تاريخهم عن الثقات ليعلموا الصادق من الكاذب ، ثم وضعوا قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييزه ، من صحيح وحسن وضعيف ، ومن مرسل ومنقطع ، وشاذ ومنكر ، ثم ذكروا علامات كثيرة للوضع في السند والمتن ملكت بها الأسفار . حتى أصبح لدينا علم خاص يعرف بمصطلح الحديث . كما أفردوا كتباً خاصة بالأحاديث الموضوعية مثل اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية ، وتمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لأئمة من كبار المحدثين في الإسلام ، وإذا كانت سنة الله تقضى أن يعترف بالحق نفر من أعدائه ، فإن بعض الذين تحدثوا عن التاريخ الإسلامي من المستشرقين قد بالغوا في الثناء على يقظة الفكر الإسلامي في تتبع الرواة وفحص الإسناد لدى المحدثين ، وعدوا ذلك أدق منهج علمي ينبغي أن ينتقل من الحديث إلى التاريخ . يقولون ذلك في معرض الكلام عن التاريخ الإسلامي ، ثم يلجم الغرض كثيرا منهم فلا يعترفون به في معرض الكلام عن الحديث النبوي .

« ونحن نعلم أن المستشرق المجرى اليهودي الكبير جولد زيهر من أكبر علماء الاستشراق سعة اطلاع ، وطول صبر على التنقيب في علوم الدين ، وغزارة مادة ، إذ أن كتبه الثلاثة عن الشريعة والعقيدة في الإسلام وعن مذاهب التفسير الإسلامي وعما سماه بدراسات إسلامية تنبئ عن إمام واسع وبحث ملحف دعوب ، وتنقيب جاهد في مطاوي المخطوطات والمطبوعات . ولكن آفة الرأي الهوى لديه في جل ما كتب فهو مثلا في باب السنة النبوية — لا يتتبع النصوص ليستخرج منها القول الصائب ، ولكنه يفترض — أولا — الحكم المفروض افتراضا ، ثم يذهب متلمسا ما يسنده من مبتور الروايات ومختلق الظنون فيأتي بكلام يظنه البعيد عن الدراسات الإسلامية سالكا منهاجا قويا من البحث — وما أكثر هؤلاء من مدعى الكتابة والتأليف — أما البصير بتاريخ ثقافته

وأصول دينه ، فيضرب كفا بكف حين يجد هذا الداهية الخطير في كتابه دراسات إسلامية - مثلا - يقف أمام بعض النصوص التي تحرم كتابة الحديث مع ما يقابلها من النصوص التي تبيح الكتابة فلا يوازن بينهما بما يعرفه أهل العلم ، وبما سنشير إلى بعضه عن قريب ، بل يلجأ إلى الافتراض المتخيل ، ويجزم في جراءة عجيبة بأن هناك حزبين متناضلين اتخذوا من تعارض الأحاديث سلاحا يذود كل منهما به عن رأيه ، فأهل الرأي وقد زعم أنهم اعتمدوا في وضع فروع الشريعة على عقولهم وأهملوا حديث رسول الله ، ^{بمكان} حججهم أن الحديث لم يكتب دهرا طويلا فغابت معالمه ، وتشتت أمره ، وأيدوا رأيهم بأخبار اختلقوها ثبت أنه لم يكتب ، أما أهل الحديث ممن يعتمدون على النص النبوي فلم يقفوا واجمين في زعمه بل فعلوا فعلتهم ، واختلقوا الأخبار تأييدا لقولهم ، فنسبوا إلى الرسول أحاديث في إباحة الكتابة » .

أرأيت إلى المعركة كما يتصورها جولد زيهر .. لقد أراح نفسه من مشقة الموازنة بين النصوص المتعارضة بتخيل مغرض ، يثبت أن الفريقين من أعلام الرأي وأئمة المحدثين كذابون واضعون ، كل فريق يختلق من الأحاديث ما يسير مع وجهته وكأن الاختلاق عمل مشروع يستبيحه كل فقيه دون تحرج . وقد كان الباحث الأستاذ يوسف العث قوى الحجة حين نقل كلام زيهر السابق في بحثه الخاص بنشأة تدوين العلم في الإسلام ، ثم أجهز عليه بما ينسفه نسفا من واقع التاريخ التشريعي حيث قال^(١) بعد أن أشار إلى الاختلاف في تدوين الحديث .

« ولعل هذا الاختلاف مما دعا جولد زيهر إلى القول بأن العلماء انقسموا إلى طائفتين متخاصمتين في شأن جواز الكتابة أو عدمها ، على أنه لم يصب حين قال إن من ادعى عدم جواز الكتابة هم أهل الرأي ، وأن مخالفهم هم من أهل الحديث ، فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين ، لأن من أهل الرأي من

(١) مجلة الثقافة ص ١٠٩٧ من السنة السابعة .

امتنع عن الكتابة كعيسى بن يونس وحماد بن زيد وعبد الله بن ادريس ، وسفيان الثوري وبينهم من أقرها كحماد بن مسلمة وزائدة بن قدامة ويحيى بن اليمان ومن المحدثين من كره الكتابة كابن عليه وهشيم بن بشير وعاصم بن ضمرة وغيرهم ، ومنهم من أجازها كبقى الكلاعى وعكرمة بن عمار ومالك بن أنس وغيرهم .»

لقد كان على جولد زيهر أن يدرس رجال رأى رجال الحديث قبل أن يأتى بمزعمه الخاطيء : ولئكة يفترضه افتراضا ليصل إلى الغاية التي انتهى إليها حين ذكر فى كتابه المشار إليه ما ترجمته نصا :

« إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للإسلام فى القرنين الأول والثانى ، وأنه ليس صحيحا ما يقال من أنه وثيقة الإسلام فى عهده الأول عهد الطفولة ولكنه أثر من جهود الإسلام فى عصر النضوج^(١) .»

ثم أفاض فى تعداد الموجبات لوضع الحديث ليتخذ منها الدليل على أن القسم الأكبر من الحديث النبوى كان نتيجة للتطور فقط وما جاء به من أسباب الوضع لم يكن خافيا على المبتدئين فى دراسة علم الحديث ولكنه ألح عليه ليستأصل به أصلا ثابتا من أصول التشريع ، فهل جاءه أن محاولة ذلك الاستئصال قد منيت بالخذلان أمام ما ثبت عن الرواة الثقات والحفظة العدول ، لقد أحسن الدكتور على حسن عبد القادر حين أعقب كلام زيهر برأى صريح لزميله المستشرق فينك يردبه على أمثال هذه الأراجيف إذ يقول فى صراحة واضحة :

وإذا لم يستطع النقاد المسلمون لأسباب داخلية وخارجية أن يميزوا كل الأجزاء غير الصحيحة من الحديث فإنه ليس من الحق أن نسلبهم كل الثقة ،

(١) ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٧ من كتابه « نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى » .

ذلك أن الحديث الإسلامي يحتوى على أساس صحيح ، والرأى القائل بأن الحديث ليس إلا من وضع أهل القرنين الأول والثانى وأنه لا يدل إلا على ماصورته الأجيال الإسلامية لعصر الرسول وأصحابه هذا الرأى يجهل كل الجهل ما لشخصية الرسول من تأثير كبير فى المسلمين ، والجهود التى تحاول إبطال آثار الرسول التاريخية فى السنة والحديث إنما جاءت من فهم تاريخى ماذى ، وهذا الفهم لا يريد أيضا أن يتبين ما فى القرآن من أمور إلهية اعتقادية ويرى أن ذلك إنما يستقصى من آلاف الصور والمثل والتأثيرات المختلفة والاختلاط بالشعوب الأخرى وغير ذلك مما يؤدي فى آخر الأمر إلى أن يكون تراث الإسلام مختلف الأشكال والألوان لا يصور رابطة متماسكة^(١) .

لقد وضع الأستاذ فينك يده على موضع الداء لدى جولد زيهر وشيعته حين أعلن أنهم يقتصرون على الفهم المادى وحده تاركين كل أثر إلهى أو نبوى يغذى العنصر الروحى فى الإسلام بل يحاولون أن يجعلوا تراث الإسلام وليد أجيال متعاقبة تختلط فيها الشعوب والثقافات اختلاطا ينشئ النصوص والعقائد إنشاء تأثيريا لا صلة له فى أكثره بمحمد عليه السلام .

ولنا أن نبحث عن السبب الأصيل الذى نشأت عنه هذه البلبلة الدائرة حول الحديث النبوى فى أذهان بعض الكاتبين ، فنعلن أن خطأ بعض من كتبوا تاريخ التشريع الإسلامى قد قوى هذه البلبلة . فقد تعاونت بعض الأقلام على تسجيل فكرة هامة فى تاريخ التشريع تقول أن تدوين الحديث النبوى قد نشأ أول مانشأ فى القرن الثانى من الهجرة إذ أن عصر الرسول وصحابته ومن وليهم فى القرن الأول قد مرّ دون أن تقيّد الأحاديث فى الصحف . فلما جاء عصر التدوين كان كثيرا مما رددته الألسن مدعاة الشك والنظر ، وقد ساعد على تأكيد هذه الفكرة ما يرويه بعض الرواة من أحاديث نبوية تأمر بمنع التدوين ولنا الآن أن نميط اللثام عن حقيقة هذه الفكرة لنرى أنها لم تكن لتستقر على أساس صحيح .

(١) ص ١٣١ المرجع السابق .

إن الذين كتبوا تاريخ التشريع الإسلامى يعلنون أن عمر بن عبد العزيز كان أول من أشار بجمع الحديث وقد صدع بأمره الإمام محمد بن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) فكان أول من دون الحديث فى كتب خاصة غير مبوبة ثم شاع التدوين بعد ذلك فى الجيل التالى فنشط ابن جريح (١٥٠) وابن اسحاق (١٥١) والربيع بن صبيح (١٦٠) ومالك (١٧٩) وغيرهم إلى أن جاء القرن الثالث فظهرت الكتب الصحاح الذائعة مستندة إلى ماتطلبه التقدم الفكرى من اتخاذ مناهج خاصة بكل محدث كأن يقتصر البخارى ومسلم على الحديث الصحيح ، فينحو منحاهما من أراد ، أو يجانبهما من يرى له منهجا آخر من المحدثين ، إلى آخر ما نعلمه من تاريخ الحديث ، هذا مايعلنه مؤرخو الحديث ، وقد فهم منه الفاهمون أن السنة لم تدون من قبل عهد عمر بن عبد العزيز ، وساد هذا الفهم حتى أصبح لدى كثير من المثقفين حقيقة بدهية لا تقبل الاختلاف ، فأتاح للمرجفين أن يتساءلوا فى عجب كيف حفظت الألسنة وحدها أحاديث الرسول فى مدى مائة وثلاثين عاما أو تزيد .. ثم استفاضت أحاديث تدل على منع الكتابة فأكدت مدعاة الشك فيما تردده الألسنة وحدها ، وأمامنا الآن ننظر فى شيئين هاميين ، ننظر فى الأحاديث الدائرة حول كتابة الحديث إثباتا ومنعا كما ننظر فى مقدرة الألسنة على الاحتفاظ بالنص النبوى دون وهن يظن ، وعسى أن نطمئن بعد ذلك إلى رأى متين .

أما الأحاديث الدائرة حول كتابة السنة إثباتا ومنعا فلنبداً منها بما يستدلون منه على المنع ، ومنه^(١) .

(أ) ماروى من قول رسول الله « لا تكتبوا عنى شيئا سوى القرآن فمن كتب عنى سوى القرآن فليمحه ، وكان من هذا أن زيد بن ثابت دخل على معاوية فسأله

(١) تاريخ الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٧١ .

عن حديث وأراد أن يكتبه ، فقال زيد :
إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئا من حديثه فمحاها^(١) .

(ب) روى الإمام الجافظ عبد الرازق بن همام الصنعائي المتوفى سنة ٣١١ في مصنفه أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن وأشار عليه الصحابة بذلك حين استفتاهم ولكنه طفق يستخير الله شهرا . ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال : إني أريد أن أكتب السنن وإني تذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبنا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لأشوب كتاب الله بشيء أبدا^(٢) .

(ج) كان أبو سعيد الخدري يستأذن في أن يكتب عنه ما يحدث به عن رسول الله فيأبى ويقول أتريدون أن تجعلوها مصاحف إن نبيكم كان يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا كما كنا نحفظ ، وفي رواية أخرى أنه قال : أردتم أن تجعلوه قرآنا ، لا ، لا ، ولكن خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله^(٣) .

(د) روت عائشة عن أبيها أنه جمع الحديث عن رسول الله ﷺ فكان ما عنده خمسمائة حديث ، فبات ليلة يتقلب كثيرا ، قالت فغمني ، فقلت أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك ؟ فلما أصبح قال أى بنية هلمى الأحاديث التى عندك فجئته بها ، فدعابنار فحرقها ، فقلت لم أحرقتها ؟ قال : خشيت أن أموت وهى عندى فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ولم يكن كما حدثنى فأكون قد نقلت ذلك^(٤) .

(١) جامع بيان العلم وفضله ج ١ : ٦٣ .

(٢) جامع بيان العلم ج ١ : ٦٤ .

(٣) المصدر السابق ج ١ : ٦٤ .

(٤) تذكرة الحفاظ ج ١ : ٥ .

هذه نصوص دالة على منع التدوين ، وقد أجاب عنها بعض المحدثين بأن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباس الحديث^(١) ، أو بأن النهي خاص بكتاب الوحي المتلو مثل زيد بن ثابت^(٢) كيلا يخلطوا القرآن بغيره ، أو أن النهي لمن أمن عليه النسيان ووثق بحفظه^(٣) ، وهى إجابات تصلح ردا على مثل زيد بن ثابت إذ كان من كتاب الوحي ، وكذلك من على شاكلته من الكتاب ، أما أنا فلم أر فيما سبق الاستشهاد به عن أبى بكر وعمر وسعيد الخدرى ما يدل على نهى الرسول عن كتابة الحديث ، بل ما يدل على غير ذلك إذ أن أبا بكر وعمر قد جمعا الأحاديث فعلا ثم بدا لهما أن يرجعا عن التدوين لأسباب ذاتية ، ولو كانا يعلمان وجود نص نبوى فى منع الجمع ما قاما بكتابة حديث واحد ، وما كان هناك مجال لاستشارة الصحابة ، وإذ ذاك لا يؤخذ امتناعهما عن التدوين مأخذ النهى المحرم من رسول الله بل مأخذ الاحتراز الشخصى من رجلين يتحفظان فلا يجزمان بصحة ما لديهما من الأحاديث ، فأين دليل المنع فى موقفيهما هذين حتى نعتبرهما حجة نبوية .. أما أبو سعيد الخدرى فليس فيما روينا عنه ما يدل على نهى الرسول ، وإنما استئذن الرجل فى الكتابة عنه فأبى وقال أتريدون أن تجعلوها مصاحف ، إن نبيكم كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ ..

هذا رأيه ومنحاه فحسب ، فكيف يؤخذ منه ما يدل على تحريم نبوى لكتابة الحديث ؟ أظن أننا بهذه المناقشة الهادئة قد أوضحنا حقيقة مانسب إلى الرسول من أقوال تشير إلى منع التدوين فى عصره ولنا أن ننتقل بعد إلى أدلة المثبتين . إن الذين يقولون بوقوع التدوين فى الصحف فى عصر السنة الأولى : يستدلون بأدلة متعددة لعل أهمها ماأتى :

(١) تدريب الراوى ١٥١ .

(٢) مقدمة ابن الصلاح ١٧١ .

(٣) المصدر السابق .

(١) أمر رسول الله ﷺ بكتابة خطبته يوم فتح مكة ، لرجل من اليمن ، كما جاء في باب كتاب العلم من صحيح البخارى .

(٢) روى البخارى في هذا الباب عن أبى هريرة قوله : ما من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثا عنه منى ، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب^(١) .

(٣) أن عبد الله بن عمرو كان يسمى صحيفة أحاديثه بالصادقة ، ويقول عنها ما كتبت فيها إلا ما سمعت أذناى من رسول الله ﷺ ، ويتحدث عنها مجاهد فيقول : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا فسألته ما هذا ؟ فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه أحد^(٢) .

(٤) فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ أمر بعد هجرته إلى المدينة — بإحصاء المسلمين وبكتابة أحكام الزكاة وما يجب من المال وما مقداره ، فكتب ذلك فى صحيفتين وبقيتا محفوظتين عند أبى بكر الصديق وأبى بكر عمرو بن حزم^(٣) .

فإذا أضيف إلى ذلك كله وجود بعض الصحائف لدى الصحابة مدونا بها حديث رسول الله كان ذلك دليلا عمليا على إباحة الكتابة ، فمن ذلك كتاب أسماء بنت عميس (توفيت سنة ٣٨) وكانت هاجرت مع زوجها جعفر بن أبى طالب إلى الحبشة وتزوجت أبا بكر بعد موته وقد جمعت فى هذا الكتاب بعض أقوال الرسول . ومنه كتاب سعد بن عبادة (١٥ هـ) ، ومنه صحيفة عبد الله بن عمرو المعروفة بالصادقة (٦٥ هـ) ، ثم صحيفة سمرة بن جندب ، وصحيفة جابر بن عبد الله (٦٨ هـ) ، وقد روى قتادة ما فى هذه الصحيفة ، هذا غير صحف الشيعة التى تسجل بعض ما كتبه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومهما كان موقف أهل السنة منها فهى فى منزلة الاعتماد من المنصفين من

(١ ، ٢ ، ٣) : تاريخ الفقه الإسلامى ص ١٧٣ .

علماء — الشيعة^(١)، وللدكتور على حسن عبد القادر استنتاج جيد فقد قال بصدد الحديث عن السند والمتن في كتابه نظرة عامة في الفقه .

« والمن في الأصل يطلق على الأصل المكتوب قال لييد :
وجلا السيول على الطلول كأنها زبر تقد متونها أقلامها

وفي اختيار المحدثين للفظ المتن ما يمكن أن نستنتج منه عدم صحة ما هو معروف من أن الحديث لم يكن مكتوباً ولكنه كان مبنياً على الرواية الشفوية » والدكتور لم يفطن إلى هذا الاستنتاج إلا بعد تعدد الروايات القائلة بوجود صحف نبوية لدى نفر من الصحابة والتابعين ، ولا تزال ترفدنا بما يقوى هذه الوجهة ، فقد عثر الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبدي على صحيفة همام بن منبه من أعلام التابعين كما رواها عن أبي هريرة^(٢) ، مما دعا العلامة مناظرا حسن الكيلاني رئيس القسم الديني بالجامعة العثمانية في حيدر أباد أن يعجزم في كتابه (تدوين الحديث) بأنه إذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر مما جمع بعد ذلك في الجوامع والمساند والسنن في القرن الثالث^(٣) .

ولنا بعد هذه الحقائق أن نجزم بأن ما فهم من كتب تاريخ التشريع بأن التدوين للحديث كان أول ما كان بعد تفكير عمر بن عبد العزيز ، إنما يدل على بدء التدوين الشامل الذي يهدف إلى الاستقصاء .

ولا يدل على أن كتابة الحديث في صحف شخصية لأفراد من أعلام الصحابة والتابعين كانت محرمة ، حتى فكر في الأمر عمر بن العزيز . . . ومتى تأكد ذلك فقد لزم أن تخفت أصوات القائلين بأن المدة الطويلة بين رحيل رسول الله

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص ١١٨ .

(٢) السنة قبل التدوين ص ٣٥٦ .

(٣) الإمام البخاري للدكتور الحسيني هاشم ص ١٤ .

وابتداء ابن شهاب الزهري بالتدوين كانت مدعاة تسيان أو تزيد كما يحلو لمهاجمي السنة أن يتشددوا بين الحين والحين ، على أننا حين أسهبنا في ذلك لم نغفل قوة الذاكرة لدى العرب في صدر الإسلام فلها هنا بعض الحديث .

لقد وعدنا فيما قبل أن ننظر في مقدرة الألسنة على الاحتفاظ بالنص النبوي دون وهن وهي مسألة أشبعها المحدثون تحليلا وإفاضة ، فأجمعوا على أن أمة العرب قد وجهتهم إلى الاهتمام بالحفظ فقويت الذاكرة لديهم قوة خارقة كما ضربوا لذلك بعض الأمثلة من المشاهد الملموس ، فالأعمى أقوى حفظا من البصير إذ جعل كل اعتماده على الحفظ أما البصير فإن ركونه إلى الكتاب مما يضعف ذاكرته عن غيره ، وقد ساعد العرب على تقوية ملكة الحفظ لديهم طبيعة جوهم وبساطة معيشتهم وسعة خبرتهم بأساليب لسانهم وطرق بيانهم ، فإذا أضيف إلى ذلك شدة تعلق الصحابة بآثار رسول الله كان انتباههم إلى استيفاء أحاديثه أقوى وأشد ، ومن علم أن أبا زرعة وأحمد بن حنبل والبخاري كانوا يحفظون آلاف الأحاديث بأسانيد لا يستكثر أن يحفظ أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعائشة أكثر ماسمعه عن رسول الله دون إسناد . فإذا وجدت الصحف المكتوبة وأسعفت الحافظة القوية ، وتفرغ الملا الكثير برواية الحديث فلن يهي منه مر السنين كما يدعون . على أننا نعرض هذا النص الحاسم على الذين يستكثرون ورود الآلاف من الأحاديث عن رسول الله ، ويرجعون بروايتها مهولين .

قال أبو زرعة الرازي في جواب من قال له : أليس يقال : حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث قال : ومن قال إذا غير زنديق ؟ ومن يُحصى حديث رسول ﷺ ، لقد قبض ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه ومن سمع منه ، وهم أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما من الأعراب ومن شهد معه حجة الوداع كل من رآه وسمع منه بعرفة ، وقال الرافعي قبض رسول الله

والمسلمون ستون ألفا ، ثلاثون ألفا بالمدينة وثلاثون ألفا في قبائل العرب^(١) ،
« .. ننقل هذين النصين لنقول إنه على افتراض كون المسلمين ستين ألفا فقط
عند وفاة رسول الله ، وجلهم قد حدثه وسمعه وروى عنه أفيكون ما لدينا من
حديثه عنهم من الكثرة بحيث نظن به الظنون دون تدليل » .

إن ما أرجفت به الأعلام المسلمة في هذا العصر حول السنة المطهرة يرجع
إلى أن كتب مصطلح الحديث من الدقة والصعوبة بحيث لا يفهما جماهرة
المثقفين فظلت محصورة بين نفر من المتخصصين لم يقوموا بواجبهم الأكمل
في تبسيطها وتوضيحها تمثيا مع روح الزمن ومقتضياته . ولو أن جمهور
المثقفين عرفوا حقيقة مصطلح الحديث لقدروا الجهد الجهد الذي بذله علماء
الإسلام في حماية السنة والحرص على صدقها المتأكد ، ونحن الآن نرى اعقد
المسائل والنظريات في علوم الطبيعة والكيمياء تكتب لمن لم يتخصص في
دراستها كتابة مبسطة تنأى عن المصطلحات العلمية وتهدف إلى تبسيط الفكرة
العامة ؟ أفيجوز لنا بعد ذلك أن ندعى أن مصطلح الحديث وقف على
المتخصصين دون أن نبذل جهدا يسيرا في عرض حقائقه وتقريبها للقارئ
العام . ونحن نرى بعض المجلات والكتب تحيطنا بالشكوك الزائفة عن السنة
ورجالها ثم نتركها غير مباليين .

على أن المسألة بعد ليست مسألة القارئ العام ، فلدينا كتاب أفذاذ لاشك
في طهارة نياتهم وسلامة اعتقادهم قد تأثروا بأقوال الاستشراق ، ولهم مع ذلك
جهد ممتاز في تدوين السيرة المحمدية وتاريخ العلوم الإسلامية ، ولن أضرب
المثل بالكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل حين ذكر في « حياة
محمد » ما لا نسلمه له عن مقدار ماعده البخارى صحيحا من
الأحاديث^(٢) ، فالدكتور هيكل رحمه الله — وإن كان في طليعة كتاب السيرة

(١) تدريب الراوى ص ٢٠٦ .

(٢) حياة محمد ط ثانية ص ٥٠ .

النبوية والمدافع عن صاحبها أحر دفاع وأقواه — لم يدرس مصطلح الحديث على أهميته لكتاب السيرة النبوية ، ولكنى أضرب المثل بأستاذنا العالم الكبير الدكتور أحمد أمين إذ أن ثقافته العلمية بالأزهر ودار القضاء الشرعي قد أوقفته على دقائق هذا العلم وخفائيه ، ولكنه قرأ كثيرا في كتب الاستشراق فتأثر — ككل قارىء — بما عده صحيحا من أقوالهم ، وحين تفرغ لتاريخ العلوم الإسلامية كان مقاله عن حديث رسول الله مدعاة نظر طويل ، وقد أبلى الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله بلاء طيبا في مناقشة أقواله ، وكان الأستاذ أحمد أمين من سعة الصدر وكمال الإنصاف بحيث اعترف أن نقد الدكتور السباعي نقد علمي صحيح^(١) . وكان أهم ما اتجه إليه السباعي في نقده ما حكاه الأستاذ عن وضع طائفة من الأحاديث وعدالة بعض الرواة من الصحابة والتابعين والأحاديث المعتمدة عن أبي حنيفة واختلاف العلماء في الجرح والتعديل ، وقد قال صاحب فجر الإسلام ص ٢٦٦ « وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ولكنهم — والحق يقال — عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب إلى النبي ﷺ لا يتفق والظروف التي قيلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المؤلف في تعبير النبي أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا ، ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم » .

وحديث الدكتور أحمد أمين عن العناية بالإسناد أكثر من المتن ، وجد النقد المقنع من رجال العلم ، فمنهم من بين أن العناية بالمتن كانت محل الاعتبار مثل العناية بالسند سواء بسواء ، لأن أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع في السند من اشتهاى الراوى بالكذب أو اعترافه مؤخرا بتعمد الوضع أو ادعائه رؤية

(١) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ١٧٨ .

شيخ لا تثبت رؤيته لاختلاف الزمان والمكان أو انتمائه إلى فرقة مغرضة تخدم أهواءها بالتزويد والانتحال ، نقول إن أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع في الإسناد ذكروا علامات الوضع في المتن ، كأن يكون التعبير في الحديث ركيكا لا يتصور صدوره من أفصح البلغاء ، أو أن يكون المعنى فاسدا يخالف ما تعرفه البدائنه الواضحة فلا يجوز أن يقوله نبي مرسل كان مضرب المثل في الحكمة والسداد ، أو أن يخالف الحديث نصا صريحا من نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل أو يتضمن أمرا جهيرا من شأنه أن تتوافر الدواعي إلى نقله ، ثم لا يرويه إلا شخص واحد ، أو أن يخالف الحقائق المشتهرة المعروفة في عصر النبوة . كل هذه وأمثالها علامات يعرف بها الحديث الموضوع ، وقد أسهب علماء السنة في بسطها وضرب الأمثلة عليها مما لا كتبه الألسنة من الموضوعات ، فالقول بأن الاهتمام بالسند قد تحيف الاهتمام بالمتن مما لا ينهض على أساس قويم ، وأكبر الظن أن أستاذنا الدكتور أحمد أمين قد وجد الحديث يستفيض عن تاريخ الرواة ومنزلتهم في ميزان الجرح والتعديل ، فظن ذلك مزيد اهتمام بناحية دون ناحية مع أن طبيعة البحث في الإسناد هي التي تحتم الخوض في تاريخ الرجال فإذا كان لدينا حديث واحد نقل عن أربعة من الرواة مثلا فإن الكلام عن كل راوٍ منهم يتطلب بعض البسط فإذا تحدث علماء السند عن أربعتهم جميعا فإن حديثهم بلا شك يكون أضعاف كلامهم عن المتن المروى ، وليس ذلك تحيفا للمتن إذ هو مما يتضح فيه الرأي دون فحص متصل في الإسناد المتسلسل .. هذا وجه الحق فيما ردده المستشرقون عن مغالطة وحكاه الأستاذ أحمد أمين عن إخلاص لم يتحرر أسبابه تحريا دقيقا . وقد تأكدت نظرية الاهتمام بالسند أكثر من المتن تأكدا أصيلا لدى كثير من المثقفين إذ فاتهم ما ألمحنا إليه من أن طبيعة الإسناد المتسلسل تقتضي هذه التوسعة والإسهاب دون أن تحيف المتن في شيء ، فليس لدينا عدد من الأوراق يلزمنا أن نقسمه نصفين بالتساوي لنملا بالنصف الأول حديثنا عن المتن ونشغل بالنصف الثاني حديثنا عن السند . وإنما لدينا في الإسناد رجال كثيرون روي متنا واحدا قد لا يتجاوز السطر . وحامت الريبة حول المتن فوجب البحث

المتشعب في رجال الإسناد . إن تأكد نظرية الاهتمام بالسند أكثر من المتن قد وجدت مكانها لدى الكثيرين حتى ممن شرعوا أقلامهم لمعارضة الأستاذ أحمد أمين فإن زميله الناقد الأستاذ عبد الوهاب حمودة حين أراد نقد رأيه في الاهتمام بالسند أكثر من المتن ، لم يوضح أعباء الإسناد كما ألمحنا إليها من قبل ولكنه وافق صاحب فجر الإسلام على قوله ، ومضى يلتمس التبرير لما كان من إجحاف بالمتن فقال :

« إن علماء الحديث لما رأوا أن الاطلاع على ما في الإسناد من علة على ما ينبغي يعسر على غيرهم بخلاف الاطلاع على ما في المتن من علة فإنه سهل المدرك سرفوا جل عنايتهم إلى بيان ما يتعلق بالإسناد ليكفوا غيرهم مؤونة ذلك ، لذلك نرى كتب العلل تتعرض لذكر ما وقع في الحديث من الاضطراب من جهة الإسناد ، وقلما تتعرض لذكر ما وقع فيه الاضطراب من جهة المتن ، لأن النقد المتعلق بالإسناد دقيق غامض لا يدركه إلا أفراد من أئمة الحديث ، هذا إلى أن علم الحديث كالتاريخ من العلوم النقلية التي يلزم أن تكون صحة النقل هي أول ما يطلب توافره فيها أما ناحية الدراية فلا يكون لها المنزلة الأولى مهما كانت أهميتها وإلا انقلبت العلوم النقلية علوما عقلية »^(١) .

وكلام الأستاذ حمودة محل اعتراض كبير إذ أننا الآن لا نعتد التاريخ علما نقليا ، حتى يقاس به الحديث . ولو أصاب الأستاذ مقطع الحق ، لذكر أن المتن قد أصاب موضع الاهتمام ، وليست المسألة مما يقدر بالكم دون الكيف . وليت شعري إذا لم يكن المتن موضع الاهتمام فقيم اختلاف الفقهاء أمام النص الواحد . لاشك في أنهم قد حللوا النص تحليلا وثيدا مشبعا ، وذهبوا يقلبونه على عدة احتمالاته وما كان بحشهم عن السند إلا طريقا لتثبيت المتن . وذلك في لبابه لا يدل على الاهتمام بشيء أكثر من شيء كما نراه .

(١) لواء الإسلام : السنة الخامسة ص ١٠٦ عن مقال الأستاذ حمودة

إن طبقات المحدثين — وما أكثرهم — على تناسل العصور لم يملوا التأليف في علوم الحديث رواية ودراية حتى بلغت الموسوعات النبوية مبلغا يفوق الحصر مع نشاط حركة النقد والتجريح والتعديل ، وكل هذا قد أضاف إلى الأحاديث النبوية الصحيحة ثقة تامة لدى المتمكنين كما أبان عن زيف الأحاديث الموضوعية وضلال من تبؤوا مقاعدهم في النار بالافتراء على رسول الله . وما زخرت المكتبة الإسلامية بهذا الحشد الكبير من كتب السنة إلا لتدل بأصدق منطق وأخلصه على أن الأحاديث الصحيحة من ثبوتها الراسخ وصحتها المتوفرة في حرز مكين . وأن على الذين يرجفون بالسنة المطهرة أن يتعلموا قراءة مصطلح الحديث فهم في غيهم يعمهون .



طابع الحديث الصحيح يدل عليه ويحتم الاستشهاد به

إذا كنت لاتجد شخصين يتفقان تمام الاتفاق فى الصورة الخلقية التى تنطبع فى العين بمجرد الرؤية — فإنك لاتجد كذلك أديبين يتفقان تمام الاتفاق فى آثارهما الأدبية ، ومهما كان بينهما من التشابه والاقتراب فهو تشابه المختلفين اللذين يتفقان فى بعض السمات ويختلفان فى البعض الآخر ، وإذا جاء التقارب المتشابه قليلا أو كثيرا بين أديبين متوسطى المكانة فإنه لايجوز أن ترى أديبا كبيرا يقارب أديبا كبيرا فى سماته الأسلوبية ، إلا إذا كان أحدهما يحتذى صاحبه عن عمد . ويقتفيه عن قصد ، وإذا ذلك لايصح أن يقترن به اقتران المتماثلين ، بل يذكر معه كما يذكر التلميذ مع الأستاذ ، فوجود الشخصية الأدبية المتميزة دليل واضح على أصالة الأسلوب القوى ، ولكل من اشتهر بالبيان عن جدارة سمته المنفردة وطريقته الواضحة شاعرا كان أو خطيبا أو قصاصا ، حتى لتستطيع أن تعرف بعض آثاره إذا جاءتك غفلا من إمضائه ، مادمت قد أدمنت قراءته عن بصر ، وتتبع جولاته الأدبية فيما سطر من آثار . وقد اشتهر لدى النقاد فى عصرنا الحاضر أن الأسلوب هو الرجل ومعنى هذه العبارة أن كل أسلوب أدبى يحمل طابع صاحبه ، فهو وليد فكره ووحى عاطفته ، وإذا كانت الأفكار تدل على معدن الأديب الذهنى وإطلاعه الثقافى قوة وضعفا ، فإن العاطفة تمد الأسلوب بما يشئ بآمال الكاتب وأحلامه ومايرسم خلجات وجدانه وهمسات مشاعره . حتى ليجيء أثره الأديبى صورة صادقة من نفسه وإذا ذلك يكون الأسلوب هو الرجل دون نزاع .

نسوق هذه المقدمة الواضحة لنريح أنفسنا ممن يزعمون أن بعض الآثار الأدبية قبل عهود التدوين كانت مظنة التغيير والتبديل والحذف والإثبات . فإذا كان ذلك صحيحا فى بعض وجوهه ، فإن السمات الخاصة للأديب تكون حينئذ أداة التفريق بين الصحيح والموضوع شعرا أو نثرا ، وآية ذلك أنك تقرأ ديوانا خاصا

بشاعر جاهلي كعنترة فإذا كنت ممن درسوا أسلوب عنترة دراسة لاتغفل طريقة التعبير العامة في العصر الجاهلي والخاصة في أسلوب الشاعر ، مضافا إليها ما تعلم من حقائق ثابتة عن طبيعة البيئة ، وتاريخها وأحداثها وما يمكن أن توحى به من أفكار أدبية وصور خيالية ، واتجاهات نفسية ، إذا كنت ممن درسوا عنترة هذه الدراسة ، فإنك تستطيع أن تبين الصحيح من المنحول في شعره ، ولك أن تصدر حكمتك الخاص على قصائد الشاعر في ظل ما ثبت لديك من قوله الأصيل ، فإذا قال لك قائل بعد ذلك إن ديوان عنترة يجمع الأصيل والدخيل وإن الحكم على الشاعر بما سطره الرواة في ديوانه لا يحمل عناصر الصدق الصحيح ، إذا قال لك ذلك فاعلم أن القائل قد طعن في غير مطعن إدأغفل المقرر المعلوم من سمات الشخصية الأدبية التي تتحدد بوضوح في الإنتاج الأدبي فتثبت الصحيح ، وتنفي الدخيل .

إن مانقوله في عنترة ، نقوله فيما نقل إلينا من النص الأدبي لمحمد ﷺ — وله المثل الأعلى إذا قيس ببشر سواه — فإن بعض رجال اللغة والنحو قد آثروا عدم الاستشهاد بحديثه ، حيث جاز لديهم أن يتصرف الراوى في اللفظ دون المعنى ، ولو كان هؤلاء نقدة أدب وبيان ماقالوا ذلك ، لأن رجال النقد الأدبي يعرفون طابع كل أديب ، ولا يحتاجون في الحكم على آثاره لسلسلة الرواة ومجموعة الأسانيد كما يفعل رجال الحديث ، بل إن الحديث يصح لدى بعض علمائه ، ويقف منه الأدباء موقفا مخالفا لأنه في رأيهم لا يحمل الطابع العام كما يعرفونه من سمات محمد البيانية . وسنقف بعد حين لدى حجج المعترضين من رجال النحو واللغة لنكر عليها بالسلاح العلمي الذي لايسمح لشبهة ما أن تظل غائمة دون تبديد إنما نريد أن نقول الآن إن دواعي سلامة النص المحمدي كثيرة موفورة ، وهي من القوة والإقناع بحيث لاتحتاج إلى لجاج طويل .

وإذا استطاع بعض الحواريين المخلصين من أتباع بركليس وديموستين وشيشر أن ينقلوا خطبهم النثرية الطويلة عن احتفاء فإنك لاتجد حواريين أخلص من صحابة محمد وأودائه ، فكانوا في مجلسه ينصتون وكأن على

رعوسهم الطير ارتقابا لكلمة توجه أو خطبة تقال أو حديث يروى ، وكان الشاهد منهم يبلغ الغائب مافاته من قول الرسول عملا بقوله « نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها »^(١). وإذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه تبركا ويتزاحمون على شعرات رأسه احتفاظا ببعض آثاره حتى صارت محبتهم له موضع العجب من المشركين وحتى قال أبو سفيان في غيظ :

مارأيت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا^(٢) ..
« إذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه وشعرات رأسه فهم على حديثه أحرص ، وبالانتباه إلى حروفه وكلماته أكلف وأشوق ، ولم تأت لنا هذه الثروة النبوية الضخمة إلا عن احتفاء وهيام .

وقد كان رسول الله يعلم أنه ينطق ليبليغ الشاهد الغائب ، فكان لا يسرع القول في عجلة بل يلقي حديثه متهملا وثيدا ، وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه » وفي رواية أخرى كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه^(٣) .

قال أبو هالة في وصفه : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة طويل السكوت يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ويتكلم بجوامع الكلم فصلا لافضول فيه ولا تقصير إذا أشار أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها^(٤) .

(١) مصدرها ص ٣٢ .

(٢) محمد المثل الكامل ٣٩٦ .

(٣) التاج ج ٣ ص ٢٤٨ .

(٤) المثل الكامل ص ١٤ .

فالرجل الذى يكون من سماته التفكير المتصل ، والسكوت الطويل ، وعدم الكلام فى غير حاجة ، جدير أن تنتبه له الأسماع إذا قال وإذا كان الإيجاز طابع حديثه — إلا لدى بعض المقتضيات الهامة — فإن كلامه أسرع إلى الحفظ لاسيما إذا كان لايسرد سردا بل يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه كما قالت عائشة ، وإذا كنا نعلم أنه كان عليه السلام حلو المنطق حسن الترتيل بعيدا عن التكلف والتمتمة والفأفة وتعقيد الصوت فهو يرسل القول متقن الأداء محكم الضبط مشبع اللفظ مساوقا لطبيعة اللغة . إذا كنا نعلم ذلك عنه فلن نترقب لحديثه غير الحفظ والترديد . وبخاصة إذا كان فى ملأ أمى يعتمد على الحافظة ، ويتفاخر بقوة الذاكرة وأى قول يباهى بحفظه الصحابى الصادق أعظم من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

ولكن كان بعض علماء اللغة والنحو يخافون تبديل لفظ بلفظ محتجين بجواز ذلك فقد فاتهم أن الكثرة الكاثرة من الأئمة لايجيزون « وأن من أجاز من هؤلاء فقد أراد التجويز العقلى الذى لاينافى وقوع نقيضه فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون^(١) » ولسنا نصدر القول دون بينة فلدينا الأحاديث الصحاح تنطق بتحرز الراوى واحتراسه بحيث لو ظن أن كلمة شابته كلمة فإنه يذكر الكلمتين معا خروجا من التبعة ، وفيما يلى أمثلة قليلة من حشد كثير :

١ — عن عمران بن حصين^(٢) . كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيته والخدام راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته قال الراوى وحسبت أن قال والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته .

(١) إيجاز القرآن للرافعى ٣٥٩ .

(٢) هداية البارى إلى ترتيب البخارى ج ٢ ص ٨ .

٢ — عن أبي كبشة الأنماري عن النبي ﷺ قال ثلاثة أقسم عليهم ، مانقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ولافتح عبد باب مسألة إلا فتح عليه باب فقر أو كلمة نحوها^(١) .

٣ — عن أبي جهيم رضى الله عن النبي ﷺ قال لو يعلم المار بين يدي المصلى ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين خيرا له من أن يمر بين يديه . قال أبو النضر (أحد الرواة) لأدرى قال أربعين يوما أو شهرا أو سنة^(٢) .

٤ — عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال تحملت حمالة فأتيت رسول الله أسأله فيها فقال أقم حتى تأتينا الصدقة فتأمر لك بها ثم قال يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ... إلى أن قال : ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما أو قال : سدادا من عيش^(٣) .

٥ — عن أبي موسى رضى الله عنه قال سمع النبي ﷺ رجلا يثنى على رجل ويطره فى المدحة فقال أهلكم أو قطعتم ظهر الرجل^(٤) .

٦ — عن عبد الله رضى الله عنه قال خط النبي ﷺ خطا مربعا وخط خطا فى الوسط . وقال هذا الإنسان وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به^(٥) .

هذه أحاديث ستة لم أتعمد اختيارها فى بحث دائب وإنما تواردت على العين فى نظرات عابرة . فرأيت أن أستشهد بها لأعلن أن مبدأ الرواية بالمعنى لو كان ذائعا قبل عصر التلوين ما حرص الراوى على أن يذكر ما اشتبه عليه ، بل لاكتفى بما

(١) لتاج ج ١ ص ٥٠ .

(٢) التاج ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) التاج ج ٢ ص ٣٤ .

(٤) التاج ج ١ ص ٥٠ .

(٥) التاج ج ٥ ص ١٧٩ .

يبلغ المراد من أحد اللفظين ، وفي رأي أن الذين ذهبوا إلى جواز الرواية بالمعنى قد لبس عليهم الأمر حين وجدوا اختلافا يسيرا في روايتين للحديث الواحد ، فتوهموا أن الأصل الذى قاله الرسول واحد وأن اختلاف الألفاظ من الرواة ، وهو وهم فى أكثره لأننا نعلم أن الرسول كان يكرر أحاديثه لصحابته فى جلساته المتعاقبة ليسمع من لم يكن سمع ، وقد يبدل بعض الألفاظ فى مجلس سابق ببعضها الآخر فى مجلس تال : ثم يروى من سمع المجلسين كما سمع ، فتختلف الروايتان فى الألفاظ ، ويظن بعض الناس أن الحديث قد روى بمعناه ولكن تكرار القول من الرسول يفسر هذا التغيير فى النص – فى أكثر أحواله – ولنا أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة بما يلى :

١ – عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يمسك نفسه عند الغضب^(١) . مع رواية عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ سأل ماتعدون الصرعة ؟ قلنا الذى لا يصرعه الرجال قال ليس بذلك ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب .

٢ – عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثا ولايملاً جوف ابن آم إلا التراب ويتوب الله على من تاب^(٢) . مع رواية عبد الله بن الزبير أن النبى ﷺ كان يقول لو أن ابن آدم اعطى واديا ملآن من ذهب أحب إليه ثانيا ولو أعطى ثانيا أحب إليه ثالثا ولايسد جوف ابن آدم إلا التراب^(٣) .

١ – عن أبى موسى رضى الله عنه قال سمع النبى ﷺ رجلا يثنى على رجل

(١) التاج ج ٥ ص ٤٨ .

(٢) التاج ج ٤٩٥ .

(٣)، (٤) التاج ج ٥ ص ١٧١ .

ويطريه في المدحة فقال أهلتكم أو قطعتم ظهر الرجل (١) . مع رواية أبي بكر رضى الله عنه قال ذكر رجل عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيرا فقال النبي ﷺ ويحك قطعت عنق صاحبك يقوله مرارا (٢)

٤ — عن أنس رضى الله عن النبي ﷺ قال إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قال وما رياض الجنة قال حلق الذكر (٣) مع رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يارسول الله وما رياض الجنة قال المساجد (٤) .

٥ — عن البراء رضى الله عنه قال أهدى النبي ﷺ ثوب حرير فجعلنا نلمسه ونتعجب منه قال النبي ﷺ أتعجبون من هذا قلنا نعم قال مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منه (٥) مع رواية أنس أن أكيدر صاحب دومة بعث إلى النبي بجبة ذيباج منسوج فيها الذهب فلبسها النبي ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم فقال أتعجبون من هذه ، لمناديل سعد في الجنة أحسن منها (٦)

هذه بعض الأمثلة لما يتعدد فيه الراوى فيكون مظهره التبديل عند قوم مع أن كل راو قال بما سمع ، ونحن مع ذلك لانمنع أن يكون الراوى واحدا ويحدث التبديل في بعض الألفاظ ، ولكنه من القلة بحيث يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة إذ أن فرط انتباه الرواة من صحابة رسول الله لما يصدر منه من قول ثم مراجعة أقواله واستدكارها في حلقاتهم الخاصة مما يضيق مسألة التغيير اللفظي بحيث لا يتسع إلى حد يظن معه بعض النحاة واللغويين أن للراوى أن يحافظ على المعنى وحده وله أن يأتي بالألفاظ كما يشاء ، ونضرب بعض الأمثلة لهذا القليل

(١) ، ٢) التاج ج ٣ ص ٣٤ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٩٤ .

(٤) التاج ج ١ ص ٢٤٨ .

(٥) التاج ج ٣ ص ١٥٤ .

(٦) التاج ج ٣ ص ١٥٥ .

النادر مما صدر فيه التبديل في حديث لصحابي واحد كان هو الراوى الأول وإن اختلفت سلسلة الرواة بعد ذلك .

١ — عن أبي برزة الأسلمى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته^(١) ، هذه رواية أبى داود أما رواية الترمذى « فىا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لاتؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله^(٢) .

٢ — عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها^(٣) . هذه رواية الترمذى أما رواية أبى داود فلفظها أنازعيم بيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه^(٤) ؟

٣ — عن أنس رضى الله عنه النبى ﷺ لكل نبى دعوة قد دعا بها فاستجيبت فجعلت دعوتى شفاعا لأمتى يوم القيامة^(٥) هذه رواية البخارى ومسلم أما رواية الترمذى « فلكل نبى دعوة مستجابة وإنى أختبأت دعوتى شفاعا لأمتى وهى نائلة إن شاء الله من مات منهم لا يشرك بالله شيئا^(٦) »

٤ — عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من يشكر الله لا يشكر الناس^(٧) هذه رواية أبى داود . أما رواية الترمذى : من لم يشكر الناس لم يشكر الله^(٨) .

(١ ، ٢) التاج ج ٥ ص ٣٠ .

(٣ ، ٤) التاج ج ٥ ص ٤١ .

(٥ ، ٦) التاج ج ٥ ص ١٢٣ .

(٧ ، ٨) التاج ج ٥ ص ٧١ .

٥ — عن أنس رضى الله عنه من حديث عن الرسول ﷺ إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء^(١) هذه رواية الترمذى أما رواية مسلم فلفظها إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفه كيف يشاء^(٢).

على أننا بعد هذه الأمثلة المختلفة نتساءل هل فقد الطابع الأدبى فى أسلوب الرسول كثيرا بهذا التبديل الذى يلحق القلة القليلة من أحاديثه؟ إننا نعرف أن عناصر الأسلوب الأدبية كما فصلها النقد الحديث تتكون من الفكرة والصورة والتعبير . والفكرة والصورة صحيحتان دون شك فى كل ماورد عن رسول الله أما التعبير فقد تغير تغييرا طفيفا فى البعض دون البعض ، أياكون لنا إزاء ذلك أن نرفض الاحتجاج بالحديث ونظن بصياغته الظنون احتياطا لهذه القلة القليلة مما تطرق إليه بعض التبديل ، ولماذا لانرفض الاستشهاد إذن بالشعر العربى القديم إذ أن من اليقين كل اليقين أن الوضع قد تطرق إلى بعض أبياته ، وقد ظهر الانتحال واضحا فى بعض ماروى حماد وخلف وأفاض فى ذلك أئمة الأدب بما لامجال لإنكاره . لو اتخذنا مقياس بعض المحدثين فى إهمال الاستشهاد بالحديث كافة لمجرد ظن التبديل فى بعض الألفاظ فإننا نلزم حينئذ بإهمال الاستشهاد بالشعر القديم لمجرد إضافة يسيرة أو كثيرة تبرع بها بعض الرواة على ما تنوقل من القصائد والأبيات . ولكننا مع ذلك نستشهد بالشعر العربى عالمين أن حاسة الذوق الأدبى لدى الناقدين تستطيع بمهارة ، أن تفرق بين الأصيل والدخيل ، ولكى لانكون متناقضين فيما نصدر من الأحكام فعلىنا أن نجزم بصحة الاستشهاد بالحديث النبوى اتكالا على حاسة الذوق الأدبى لدى النقاد كيلا نزن الشئ الواحد بميزانين مختلفين فيلحقنا التريب .

(١) التاج ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٢٠٧ .

والعجيب بعد ذلك كله أن بعض ساداتنا من النحاة واللغويين يحتجون بأقوال
منثورة تعزى للأعراب دون أن يعرفوا القائل فتكون في رأيهم موضع
الاستشهاد . مع أن تطرق التبديل والتغيير محتمل فيها احتمالاً لا يقاس باحتمال
التبديل في أحاديث مطهرة يتضافر الرواة المخلصون على تمحيصها واستدكارها
أطراف الليل وآناء النهار إن لم يكن رغبة في تفهم أسرارها التشريعية والأدبية
فابتغاء لمرضات الله وزلفى قريبة إلى رضوانه .. إنهم يستشهدون بأقوال منثورة
معزوة إلى المجاهدين من أعمار العرب ثم يحجمون عن الاستشهاد بآثار
الرسول فهم مثلاً في باب نعم وبئس يستدلون بقول الأعرابي نعم السير على
بئس العير ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله من توضع يوم الجمعة فيها
ونعمت ومن اغتسل فالفُسْل أفضل . وفي باب حذف ضمير الشأن يستدلون
بقول الأعرابي إن بك زيد مأخوذ ولاستدلون بقول رسول الله إن من أشد الناس
عذاباً يوم القيامة المصورون ، وفي باب الفاعل يستدلون بقول الأعرابي أكلوني
البراغيث ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل
وملائكة بالنهار ، بل إنهم يضعون قاعدة خاصة في الجر بالمجاور اتكالا على
قول بعض الأعراب (هذا جحر ضب خرب) ولا يسمحون لأنفسهم أن يرفضوا
الاحتجاج بقوله ، على ندرته وشذوذه ونحن نعرف أن هذه الأحاديث السابقة
تتردد في كتب ابن هشام وابن مالك ومن تبعهما من النحاه . ولكننا لانقصد
هؤلاء المجيزين بل نقصد المانعين ممن يحرمون الاستشهاد بالحديث ولا بد أن
نفصل الأمر تفصيلاً لا يحتمل اللبس فنشير إليهم موضعين .

إن أول من نص على عدم الاستشهاد بالأثر النبوي لغة ونحوها هو أبو الحسن
علي بن محمد الأشيبلي المعروف بابن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠ ، وأثير الدين
محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥ حيث زعم أن ذلك
مذهب المتقدمين والمتأخرين من علماء العربية إذ قال في شرح كتاب التسهيل
مانصه :

« إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو وعيسى بن عمرو الخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائي والفراء وعلى بن مبارك الأحمر وهشام الضرير لم يفعلوا ذلك — أى لم يحتجوا بالحديث — وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس »

وقول أبي حيان فى القرن الثامن الهجرى إن ذلك مذهب المتقدمين ومن تبعهم من المتأخرين يتضمن مبالغة مفرطة إذ لو كانت المسألة موضع إجماع لترددت قبل عصره فى كتب العربية ولكننا لانعرف من تعرض لها من العلماء قبله غير ابن الضائع وقد رد عليه البدر الدمامينى حين قال فى حاشيته على المغنى :

« أسقط أبو حيان الاستدلال على الأحكام النحوية بالأحاديث النبوية باحتمال رواية من لا يوثق بعربيته إياها بالمعنى ، وكثيرا ما يعترض على ابن مالك فى استدلاله بها ، ورده شيخنا ابن خلدون بأنها على تسليم أنها لاتفيد القطع بالأحكام النحوية تفيد غلبة الظن بها لأن الأصل عدم التبديل لاسيما والتشديد فى ضبط ألفاظها والتحرى فى نقلها بأعيانها مما شاع بين الرواة ، والقائلون منهم بجواز الرواية بالمعنى معترفون بأنها خلاف الأولى وغلبة الظن كافية فى مثل تلك الأحكام بل فى الأحكام الشرعية فلا يؤثر فيها الاحتمال المخالف للظاهر وبأن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى فى غير ما لم يدون فى كتب ، أما ما دون فلا يجوز تبديل ألفاظه بلا خلاف كما قاله ابن الصلاح ، وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول قبل فساد العربية وحين كان كلام أولئك على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر كذلك دون ذلك البدل ومنع من تغييره ونقله بالمعنى فبقى حجة فى بابه

صحيحة ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق في استدلالهم المتأخر (١).

وإذا كان بعض المتقدمين من علماء العربية لم يحتجوا بالحديث فقد أجاب عن ذلك المجيزون للاحتجاج — كما روى الأستاذ محمد الخضر حسين — بأن علماء اللغة العربية في العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث حتى يقفوا منها على ما يسعف في الاستشهاد ، ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة في ذلك العهد ولم يتناولها علماء العربية كما كانوا يتناولون القرآن الكريم وإنما اشتهرت دواوينه ووصلت إلى أيدي أهل العلم من بعد فإن سلمنا عدم احتجاجهم بالحديث فلعدم انتشاره بينهم لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به وأما مادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين في عدم الاحتجاج بالحديث فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث ، وقد استدل بالحديث الشريف الصقلي والشريف الغرناطي في شرحيهما لكتاب سيبويه وابن الحجاج في شرح المغرب ، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطى ، وأبو الشلوين في كثير من مسائله ، وكذلك استشهد بالحديث السيرافي والصفار في شرحيهما لكتاب سيبويه وقال ابن الطيب : بل رأيت ذلك في كلام أبو حيان نفسه «أه من مقال الأستاذ الخضر»

ولنا أن نسأل أبا حيان بعد ذلك ما رأيه في الأحاديث التي وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها إذ أن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطريق دليل على أن الراوي لم يتصرف في لفظ ؟ ثم ما رأيه في الأساليب البيانية المشتهرة مع جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وقد سارت على كل لسان أيكون الرواة قد تصرفوا أيضا في بعض ألفاظها حين جرت بها الأفواه كالمثل الشرود . إن وجه الحق أشهر من أن يدل عليه وأخالنا نعترك في غير ميدان .

(١) نقلنا هذا النص وما قبله من مجلة المجمع اللغوي — الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ عن بحث مسهب جيد للأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين يدعو إلى الاستشهاد بالحديث ، كما رجعنا إلى ما كتبه بذلك الصدد البغدادي في الجزء الأول من الخزانة ، والعلامة الشيخ حمزة فتح الله في الجزء الأول من المواهب ، والعلامة الصبان في حاشيته على الأشموني وليس وراء ذلك موضع لتقيب .

لقد أطلنا بعض الشيء فى هذا المضمار لنخاطب من يعشقون الجدل العلمى بنصوصه المقررة ، وكان لنا عن ذلك غنى لو رجعنا إلى الشخصية الأدبية لمحمد ﷺ كما تتجلى فى أسلوبه فإنها بطابعها المتميز ، وخصائصها المنفردة تدفع ما عسى أن يثيره هذا الجدل المترمت من غبار . فقد ترك محمد ﷺ آثارا مشتهرة فى الخطبة والرسالة والأقصوصة والمثل والحديث المتبادل والابتهاال السماوى وقد طبعت كلها بطابعه واتسمت بميسمه . فأنت تحس روحا واحدة تنظم هذه الآثار المختلطة على اختلاف مناحيها ، وسنلم قريبا بخصائص أسلوبه ﷺ فى فصل خاص يحاول أن يتعرف سماته البيانية وملامحه التعبيرية . فذلك مالمس منه بد . ولكننا نعرض الآن أمثلة مختلفة لبعض آثاره الكريمة تنطق بطابعه البيانى العام ، وتجزم بأن صاحب هذا النسق الرائع الممتاز مبين أعظم البيان وهو فى تفكيره وتصويره وتعبيره أبعد من أن يستطيع أحد إطفاء نوره وإخماد جذوته بوضع لفظ مكان لفظ أو تقديم جملة على جملة فى نصوص متماسكة يشد بعضها بعضا كالبيان المرصوص .

خطب رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من غاب فرب حامل فقه لافقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاثة لا يغفل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله والنصيحة لأولى الأمر ولزوم الجماعة ، فمن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له^(١) .

هذا أنموذج من خطابه يليه أنموذج من رسالته حين كتب إلى أكثم بن صيفى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٥٤ .

من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفي ، أحمد الله إليك ، إن الله أمرني أن أقول لا إله إلا الله أقولها وأمر الناس بها والخلق خلق الله والأمر أمر الله خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم ، ولتعلمن نبأه بعد حين^(١) .

أما أنموذج الأقصوة فنقله من رواية الشيخين عن النبي ﷺ قال :

بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ منى فنزل البئر فملاً خفه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله وإن لنا في البهائم لأجرا قال في كل ذات كبد رطبة أجر^(٢) .

ونأتى بأنموذج المثل فنستشهد بقول رسول الله مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا^(٣) .

أما أنموذج الحديث فنحو قوله تجلدون الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجلدون خير الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية ، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه^(٤)

(١) جمهرة رسائل العرب ج

(٢) التاج ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٣) هداية الباري ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) هداية الباري ج ١ ص ٢٠٨ .

فإذا كان لابد من أنموذج للابتهال السماوى فلنذكر دعاء رسول الله بين التكبير والفتحة .

« اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقى من الخطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد^(١) .

ألا يرى المنصف أن لأسلوب محمد ﷺ طابعا فريدا يلوح فى فنون أدبه وتضاعيف حديثه أنه طابع الخلوص والقصود والاستيفاء — كما قال الأستاذ الرافعى^(٢) ويعنى بالخلووص النفاذ إلى اللباب من طريق سهل يسير وبالقصود الإيجاز الذى تحل فيه الكلمة محل جملة مترادفات وبالاستيفاء وقوع الكلام تاما مبسوطا لا ينقطع دون الغاية .. وذلك إجمال سنبسطة ونضيف إليه حين نشرح عناصر الأسلوب المحمدى فى فصل حفيلى .

على أن آية الإبداع فى تعبير محمد ، تروءك حين يتحدث عن الأحكام التشريعية بلغة الأديب ، فنحن نقرأ المواد التشريعية فى كل قانون أرضى جافة خشنة . تلوح لعقلك جامدة صماء ، وكأنما كتب على ذوى التشريع أن يحبسوا أحكامهم فى نصوص مظلمة مغلقة تتطلب منافذ الضوء فى كل حرف ، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده فى إبداعه التشريعى فإن نبي الإسلام قد استلهمه التعبير فى أكثر ماشرع من أحكام . إنك تقرأ أحاديث محمد التشريعية فلا يعيبك أن تجد طابعه الأدبى وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادى على نفسها ، وتفريك بتأملها تاليا ومستعيدا ، حتى لينسى القارىء أنه يطالع تشريعا وله الحق فى ذلك فهو يقرأ أنموذجا من الأدب القوى يعرض الفكرة القوية معرضا أخاذا فيبعث فيها من الحياة مايكاد يخرج بها عن دائرة القانون فى أنظار القاصرين .

(١) هداية البارى ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٣٧٧ .

إقرأوا إن شئتم هذه الأحاديث :

- ١ — سئل رسول الله عن ضالة الإبل فقال مالك ولها . معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر فذرها حتى يلقاها ربها^(١) .
- ٢ — إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدري كم صلى ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدين وهو جالس^(٢) .
- ٣ — إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه^(٣) .
- ٤ — تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم قالوا أعلمت من الخير شيئا قال كنت أمر فتياي أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر فتجاوز الله عنه^(٤)
- ٥ — لاتسأل المرأة طلاق أختها لتكتفىء ما في إنائها^(٥) .
- ٦ — كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج^(٦) .
- ٧ — لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما^(٧) .
- ٨ — العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضي كواهل الليل^(٨) .
- ٩ — قال لمعاذ : صل الظهر بعد ما يتنفس الظل وتبرد الرياح^(٩) .

(١) هداية الباري ج ١ ص ٦٧ .

(٢) ص ٩٧ .

(٣) ص ١٥٧ .

(٤) ص ٢١٦ .

(٥) المجازات ص ٥٠ .

(٦) ص ٩١ .

(٧) ص ٩٣ .

(٨) ص ١٧٠ . (٩) ص ١٧٢ .

١٠ — من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا أبداً ، ومن تحسبى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يعجا بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً^(١) .

ومابنا أن نطيل أكثر من عشرة أحاديث .

وقد أكثر الناقدون من القول بضرورة تأثير الشخصية الأدبية الفذة فيما وليها من الأجيال ، فالجاحظ مثلاً كان ذا شخصية فذة ، تركت طابعها البارز فى مئات الأدياء من معاصرين ومتأخرين ، حتى إنك لاتزال تلمس روحه فى بعض كتاب العصر الحاضر كالبشرى والمازنى والرافعى وغيرهم من صفوة البلغاء . وتأثير الجاحظ الأدبى إذا قيس بتأثير محمد ﷺ فى الأدب العربى كان لاشيء فقد نهج الرسول نهجا جديدا فى الخطابة الدينية احتذاه كل من جاء بعده ، حتى إنك تقارن بين الخطابة فى الجاهلية والخطابة فى صدر الإسلام ، فترى روحا وثابا نهض فجأة فى بيان الرسول ثم أخذ يثب فى ألسنة الخطباء إذ يرتقون المنابر فى كل موعظة . وإذا كان القرآن الكريم يضى على الأثر الأدبى جمالا وروعة إذا استشهد به فى موضعه ، فإن الحديث النبوى قد شاركه هذه الميزة الجليلة ، فأصبحت كلماته وعباراته مددا لا ينفد للبلغاء ، حتى لترتفع بالأثر إلى ذروة بيانية لاتتطاول ، إقرأ إن شئت خطب أبى بكر وعمر وعلى ، ثم انتقل إلى عظات الحسن البصرى والأوزاعى والغزالى وابن الجوزى ، بل اقرأ خطب الخوارج أنفسهم ، تجد البيان النبوى قد حلق بهم جميعا فى أرفع أوج . ونحن الآن نطالع المقالات الأدبية لصدور البلغاء فى القديم والحديث ، فنحس الأثر النبوى فى تأييد فكرة أو تأكيد عبارة أو إيضاح رأى ، ونراه يترك فى مجاله ما يتركه الورد من نفع فواح ، وإنك لتقرأ المقال ضعيفا وانيا ، وما تزال تحدث نفسك على إهماله حتى تجد الكاتب يلم بأثر نبوى جاء به فى مكانه ، فكأن

(١) التاج ج ٣ ص ٤ .

صبحا أضاء على غير انتظار فاكتسح الظلمات ، ولن يكون ذلك إلا بإبداع ملهم مطبوع ، له سماته البارزة التي تستعصى على التبديل والتحوير كما يتوهم الغافلون .

دع الحديث المتصل من قوله ، والخطبة الرائعة من بيانه ، والرسالة السائرة من إنشائه ، وانظر إلى إجابته العابرة على سؤال طارىء ، أو تعليقه الموجز على واقعة حال فإنك ترى هذا الطابع الممتاز يشع عليك نورا من أفكاره ، ولن يقول هؤلاء المتشككون إن الراوى قد تصرف فى جملة تتركب من ثلاث كلمات وهى بعد مضرب المثل الشرود :

١ — يسمع رسول الله أعرابيا يقول بعد صلاته اللهم ارحمنى ومحمدا ، ولا ترحم معنا أحدا فيرد عليه محمد فى رفق لقد تحجرت وسعا .

٢ — ويرى حادى المطايا يسرع بالنساء فيقول له رفقا أنجشة بالقوارير .

٣ — ويصف له بالمدينة قادم من مكة بعض مشاهدها فتغرورق عيناه حيننا لمطارح صباه ويقول فى هدوء : دع القلوب تقرر ..

٤ — ويسأل عن صحابى لا ينام الليل بل يقرأ ويذكر فيقول : ذلك رجل لا يتوسد القرآن .

٥ — ويعتب عليه الأنصار فى موقف فيقول لهم مبتسما أنتم الشعار والناس الدثار .

٦ — ويرى جملا هزيلا فيصبح بصاحبه بعيرك يشكوك أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره .

٧ — ويسأل عما اقترفه المؤمن قبل الإسلام فيقول الإسلام يجب ما قبله .

٨ — ويتحدث عن قرب القيامة فيقول بعثت فى نسمة الساعة إن كادت لتسبقنى .

٩ — ويرى سائلا يتكفف فيصيح به اليد العليا خير من اليد السفلى .

١٠ - ويسمع فى سورة هود أحاديث الغابرين ممن عصوا الله فيقول فى ألم :
شيبتنى هود وأخواتها .
هذه عشرة أحاديث أخرى^(١) (ولو كان المجال ذا سعة لاستفاضت من طرازها
الأحاديث .



(١) أخذت جميعها من (المجازات النبوية) للشريف الرضى فى مواضع متفرقة .

القرآن أستاذ محمد نظرة في عوامل تكوينه الأدبي

يتحدثون عن المؤثرات الهامة في تكوين الأديب ، إذا أرادوا أن يحلّلوا حياته الأدبية ، فيبحثون عن مصادر إلهامه ، وعوامل إبداعه ، ويرجعون ذلك إلى بواعث داخلية من استعداده الحاص ، وتكوينه الذاتى ، وخارجية من تأثير البيئة فى اتجاهه ومنحاه . ولا بد لنا أن نبحث عن هذه المؤثرات فى مجال يتحدث عن أفصح البلغاء .

لقد اختار الله محمدا ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن ، ووكل إليه أن يفسر كتابه ويبين وحيه حين قال فى محكم آياته ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وحين قال ﴿ فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ وحين قال ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .. إلى غير ذلك من الآيات التى تنطق بمهمة الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية ، فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان ، ويتقارعون بالفصاحة ، فلا بد أن يكون الذى يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان والمنطق أشدهم عارضة وأقواهم حجة . ولا بد أن يكون الذى اختاره لهذه الهداية قد مكن له فى منبته وفى نفسه من عوامل السداد والتوفيق ما يحرز به الفلج الحاسم فى ملأ لُدِّ أبناء .

أجل لقد مكن الله له فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعا وإفحاما ، ولم يكن محض الصدفة العابرة أن يختاره الله من بنى هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، فكل هؤلاء الأجداد قد توارثوا البلاغة ، وكانوا رؤساء فى أقوامهم يقولون فيُسمعون ، ويُسألون فيجيبون ، وكانت

الرئاسة القبلية في الجزيرة العربية بعامة ومكة بخاصة ، تركز على عوامل بارزة من الشجاعة والكرم والبيان فكل رئيس في قومه لا يحتل مكان الصدارة إلا إذا سال فئاؤه بالخير للمعتفين ، وجرؤ قلبه بالبأس والشجاعة غداة الروع وعرف كيف يفصل في المآزق المشتبهة بالقول الجزل . هذه هي عناصر الرئاسة العربية كما اتضحت في أسرة كعب بن لؤى . وقد بدأنا الحديث به لأن كتب العهد الجاهلي قد تحدثت كثيراً^(١) عن زعامته ، واجتماع العرب إليه في كل جمعة ، ليأمرهم بالطاعة والكف عن الشر ، وسمى هذا اليوم يوم الرحمة أو يوم العروبة^(٢) فكان يوم عيد قومي لاجتماع القبيلة ويوم عيد ديني لزيارة البيت ، ولا يتم ذلك إلا لعظيم يأتمر بأمره العرب ، وقد حافظوا على تاريخ وفاته فأرخوا به حتى كان عام الفيل فمحا ما قبله من ذكريات المجد ، ثم جاء حفيده قصي بن كلاب ، فأخذ حيازة البيت الحرام في يده ، وأنشأ دار الندوة بمكة فكان أول من فطن إلى الحكم الشورى من العرب ، ويروى الثقات أنه هو الذي أسس مدينة مكة وقسمها بين قريش وخزاعة ، وجمع شملهم ولم عزوتهم ، ولم تكن مكة قبل قصي سوى معبد بدوي قائم في الصحراء فصنع بها قصي أكثر مما صنع تيزيو لأثينا ورومولو لروما ، وأبو جعفر المنصور لبغداد ، وكان خطيباً لا يبارى تنوقلت على بعد الأمد بعض أحاديثه حتى إذا مات حزنت عليه قريش حزناً لا يزال يتردد صداه في الشعر العربي القديم ، وقد سمي مجعماً إذ جمع الله به القبائل من فھر فنزلوا بطحاء مكة في الشعاب ورءوس الجبال ، ثم جدد بناء الكعبة إذ تأكلت أحجارها وكادت تصير إلى أنقاض ، وجاء ولده عبد مناف فاحتل مكان أبيه في رئاسة دار الندوة ، وكان حليماً لا ينطق إلا بما يأمر بالمعروف من صلة الرحم ودم الحروب والغارات ، أما ولده هاشم فقد ملك بعد أبيه الرفادة والسقاية ، وكان يصنع الطعام لحجاج البيت ، وكان إذا أهل هلال ذي الحجة من كل عام ، قام إلى الكعبة فخطب الناس وحضهم على

(١) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٢٨٢ .

(٢) ثورة الإسلام ص ٢٤٠ .

إكرام الحجاج ، وأعلن أنه فتح بيته للوافدين ، وسارت له فى ذلك أقوال ترويهها كتب الأدب ، وهو بعد والد عبد المطلب الجد الأول للرسول ، وما حديث عبد المطلب فى رئاسته وفصاحته ببعيد .

أسهبنا بعض الشيء فى بيان السمات المتواترة فى رجال النسب المحمدى ، لنعلن أن ما اشتهروا به من الفصاحة والمجادة قد خلص إلى سليلهم العظيم فكان من عوامل سيادته ولنعمى على مايلوكة حقدة المستشرقين من غمز دنىء لأجداد محمد ، فقد حلا لبعضهم أن يكيل المدح جزافا لبني عبد شمس لينتقص بني عبد مناف ، وكل أدلته ما تناقلته الكتب من كثرة مال بني عبد شمس . ولو عرف هؤلاء أن حقوق السيادة ومغارم الفضيلة ، هى التى جعلت مال بني عبد مناف نهب الراجين ومنال الطامعين لعرفوا أنهم يمدحونهم بما يظنونه موضع التقصير ...

ولم تكن قلة المال — ذات يوم — مكن الغميزة فى شرف أو رياسة لدى الأعاجم ممن ينكرون عامدين منازع الفتوة والمروءة لدى المساميح من أبناء عبد مناف . ولك أن تعجب حين تجد المستشرق الكاثوليكي لامنس . يكتب تاريخا مسهبا ليزيد بن معاوية . لينتقص الحسين بن على ثم يعلو إلى معاوية مادحا مباهايا لينتقص على بن أبى طالب فإذا تحدث عن أبى سفيان بالغ فى مآثره متوهما أنه يعد له برسول الله ، فإذا بلغ حرب بن أمية فضله ورفع على عبد المطلب . وأنت تسأل فىم هذا الهيام العنيف بنى أمية لدى القس الكاثوليكي العجيب ، فلاتجده غير التنفيس قليلا عما يضطرم فى حناياه من بغض لبني الإسلام .

لقد ورث محمد الفصاحة فيما ورث من سمات آبائه ، وقد مكن الله له من أفانين البلاغة والسداد والإفحام بما استطاع أن يبهر به قوما قال عنهم الجاحظ واصفا بلاغتهم المبدعة .

« وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه — العربى — إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حتى حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند

المقارعة والمناقلة أو عند صراع حرب ، فما هو إلا أن يصرف وجهه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدا من ولده ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب وإن شيئا الذي في أيدينا جزء منه لنا لمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعد التراب وهو الله الذي يحيط بما كان .
والعالم بما سيكون^(١) .

لقد أحسن شيخ أدباء العربية في حديثه عن فصاحة العرب إذ وصف الأمر كما كان في تدفق بيان وخلوص عبارته ، وإن من يوكل إليه إقناع من أنصف من هؤلاء وإفحام من اتبع هواه دون إنصاف ، لسيد بلغائهم وأفصح رجائهم دون نزاع ، ولم يقل رسول الله ﷺ أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت في بنى سعد مباهاة بالفصاحة ومفاخرة بالبيان فما كان أبعد عليه السلام عن المفاخرة والمباهاة ولكنه كان يعبر عن حقيقة خالصة ويجيب عن سؤال من سأله كيف يخاطب رجال القبائل على اختلاف لهجاتهم ، وتنوع ألفاظهم ، واختلاف مدلولاتها بين القبيلة والقبيلة ؟ كيف يخاطب هؤلاء بما يعجز عنه — عادة — القرشي الناشئ في مكة والمنتقل إلى المدينة . دون أن يتعمق بطون القبائل قبيلة قبيلة حتى يلم بعشرات اللهجات المتضاربة ومئات الألفاظ المغلقة فيجيبه الرسول عن الحقيقة الماثلة دون تزيد حين يعلن أنه أفصح العرب ، ولد في قريش ونشأ في بنى سعد .

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٥ .

هذه النشأة القوية في ربوع الفصاحة ، ومسارح البلاغة كانت بعض عوامل الإعداد الإلهي لنبية الكرم والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وإذا كان عز وجل قد قدر عليه أن ينشأ هذه النشأة ليتمكن لسانه من الأداء المحكم عما يلهم خاطره ويحيش بنفسه من المعاني فقد قدر عز وجل أن يحيا حياة خاصة تساعد نفسه على الاتساع والعمق فيشعر مشاعر الدقيق الحس ويفكر تفكير المتفتح اليقظ ، ويرى كل عابرة وطائرة رؤية المتأمل المحيط ، لتكون تجارب حياته ومشاهد بيئته ، وصور الكون أمامه كتابا مفتوحا ، يقرأ في سطورهِ ما لا يقرأ البسطاء من ذوى النظر المحدود . لذلك أورثه الله الظمأ الحار إلى المعرفة ، ومنحه من لدن شب عن الطوق هذا التساؤل المتطلع عن ألغاز الكون ومعمياته ، وأوسع له من ذات عقله ليفكر فيطيل التفكير ، ويتدبر فيمعن التدبر ، كما أوسع له من ذات نفسه ليحس الخلجة السانحة ، ويتأمل الومضة البارقة ويتسمع إلى أخفت أحاسيس الضمائر والمكنونات . أما تاريخ حياته يوما فيوما فمما ساعد على تقوية انتباهه ودقة شعوره ، وعمق حساسيته مساعدة كان من أثرها أن أصبح الداعية المختار إلى نشر دين الله في الأرض ، وأن يكون وحده المعنى بقول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ، وصدق الله

لم يكذب خلق صلى الله عليه وسلم في بطن أمه جنينا يقات قطرات الدم الخالص حتى فوجئت الأم الرءوم بما أثار شجونها من موت زوجها الحبيب . فوجمت العروس الشابة وجوما طبعها بطابع الحزن المرير ، وأخذ الجنين الحي في أحشاء أمه يقات لنا حزينا يتحدر من نفس تحمل كوامن الشجن ، وتنطوى على أقسى ما تنطوى عليه عروس حسناء فجعت في مشرق أملها وهي تتحسس بين أحشائها فلذة منه تضطرب مؤذنة بوجودها المتوثب إلى مشرق الضياء . ثم أهّل الطفل المنتظر ليحيا في كفالة جده لا في رعاية أبيه ، وكانت مدة الحمل الحزينة ، قد تركت طابعها لالمحالة فيما بعد في نفس الطفل ، فلم تكن حياته الطويلة مجالا للطرب والنشوة إنما كان ما وصفه أبو هالة متواصل الأحزان دائم التفكير ، ليست له راحة ، طويل السكوت . وقد كان في

صغره موضع العجب من عارفيه ، فإن مرضعته العطوف حليلة السعدية تقول عنه إنه كان يقلق بالليل فلا يئسى ولا يصرخ ، ولكن سمة الضجر تطبع وجهه فتخرج به من الخيمة فينتطلع في سرور إلى نجوم الليل وإذ ذاك ينفرج ضيقه فإذا شبعت عيناه من نور السماء أظبقهما وأخذ الكرى بمعاقد أجبانه^(١) .

نشأ محمد في بنى سعد مانشأ ، ثم عاد الطفل المتأمل إلى أمه بعد الرضاع ، فخرجت به من مكة إلى زيارة قبر أبيه بالمدينة ، وبلغ من حساسيتها أنها لم تخبره — وهو غض نضير — بمكان القبر كيلا تثير تساؤله ، إنما تسللت إليه منفردة فذرفت من دموعها ثم كرت أدراجها إلى مكة والمرض يهداها هذا حتى إذا كانت في الطريق بالأبواء لفظت أنفاسها وتركت الصغير في السادسة من عمره مع جاريتها أم أيمن كي تسلم اليتيم إلى جده عبد المطلب . أي صدمة تحملها الطفل حين فتح عينيه فوجد أمه تفارقه قسرا لتوضع في لحد بالأبواء . لم ينس الرسول هذا المشهد طيلة حياته فظل يراوده بين الفينة والفينة ، حتى إذا خرج في عهده الأخير إلى الحديبية ناويا دخول مكة ، تعمد النزول بالأبواء فوقف على قبر أمه وبكى فبكى لبكائه المسلمون . هذا الحزن الذي طاف باليتيم تجدد في حياته مرات كثيرة ، تجدد حين فقد لعهد قريب جده ، ثم تجدد حين رأى الدنيا تحيطه بغرائب المنكرات ، من إثارة للحروب ، وشن للغارات ، وعسف بالضعيف ، واعتزاز بعصية الجاهلية ، ونزقها الأرعن فكان دائما يطيل التفكير فيما يرى ويسمع ، ويرى أن الحياة في حاجة إلى إصلاح وتوجيه .

على أن هذه النشأة الجادة الحزينة جعلته يفكر تفكير الرجل المحنك وهو شاب يافع ، إذ أنس من نفسه انصرافا عن دواعي اللهو وبواعث الطرب ، تقوم الأعراس بمكة ويخف الشباب أرسالا إلى مسارح اللهو يصاحبون القيان ، ويستمعون الألحان ، ويشاركون في العزف والرقص والشراب ، ومحمد عزوف عما ينشط له اللذات ، لا يحب أن يشارك في اللهو ويراه عبثا طائلا

(١) محمد رسول الله ص ٧٤ .

لا يلقى بمفكر ملهم مثله ، وقد حدثه اللدات عما تمثله الأفراح والأعراس من مغريات اللهو والطرب ، وطال الحديث مغريا دائما فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يذهب ذات مرة إلى مشاهدة ما يلهج به اللدات ، ولم يكذ يأخذ مكانه حتى أخذ النوم فما أيقظه إلا وهج الشمس ، يقول المؤرخون إنها معجزة ، وأقول مستعينا ببسائط علم النفس إن النوم كان حيلة لاشعورية تخلص بها محمد مما يكره ، لأنه ذهب إلى العرس بعد أخذ ورد من بعض رفاقه ، فحين وجد نفسه في المكان وهو في أطوائه غير مقتنع بما يرى من المناكر والملاهي ، تغلبت داعية الباطن على وعيه المتيقظ فكان النوم حيلة لاشعورية انتصر بها الضمير المستكن . وقيل في بعض الروايات أن محمدا ذهب إلى العرس في شبابه مرتين ، فكان النوم هو ستارة الأمان والتعليل واحد في موقفين متحدين .

هذا العزوف المشيخ عن الملاهي ماخطبه ؟ لا بد أنه كان يسأل نفسه فيطيل السؤال ، يسأل نفسه عن ضرورة القيام بإصلاح ينجي الناس من الشرور والآفات . ليس الأمر أمر عرس ولهو ، ولكنه أمر الحياة بما يصطخب فيها من آثام . ماهذه الخمور التي تراق في كل مكان ، حتى إذا شربها العاقل عاد وحشا هائجا يقتل ويذبح ويعيث في الأرض بالفساد . ماهذه الغارات التي تعبا فيها القوى وتتكتل الجهود لينهب ملاً ملاً . تكون القبيلة آمنة في خيامها ترعى الأم طفلها ، والكبير صغيره ، والصحيح مريضه ، ثم تصيح الصائحة فإذ خيل تغير ، وسيوف تشرع ، ورماح تطعن ثم إذا الدماء سائلة ، والشباب صرعى ، والنساء أسرى ، والشيوخ والأطفال بلا مأوى . ماهذه الأوثان التي يعبدها الناس في الكعبة ، إنها حجارة صماء صنعت بيد صانع فكيف تصير أربابا تدير الكون وتسأل الخير وتدفع الشر ، وكيف يعبدها العقلاء وقد صنعوها بأيديهم ولو هم أحدهم لاستطاع أن يكسرها بفأسه فيجعلها حطاما تذروه الرياح . أهي مع هذه المهانة آلهة خلقت الأرض والسماء ، وملكت الزرع والضرع والماء . من يصدق هذا ؟!

منافذ للتفكير كثيرة اتسع لها جناح هذا المتأمل الصامت . وقد بدأ بنفسه فأصلحها هداية من الله ، واستجابة لهواتفه الذاتية ، فلم يلعب ميسرا ، ولم يشرب خمرا ، ولم يسجد لوثن ، وكان مثال الأمانة والنزاهة حتى عرف بين الناس جميعا بالصادق الأمين . ولكن هداية النفس وحدها لا تكفى بل لابد من هداية الناس . وكيف ؟ دون ذلك أهوال .

كانت الأشعار الأدبية ترن في مكة وتتجاوب بها أرجاء عكاظ ، ويسمر بها العرب في أنديتهم راوين مباحين . ومحمد البليغ المبين لا يعيرها سمعه ولا يهش إلى خلابتها الرنانة ، وغزلها الرائق ، وحماستها المتأججة ، ولماذا ؟ إنها لاتهدف إلى غاية ، ولاترسم طريقا لخير ، فقيم الاهتمام بها في ملأ فاسد يعكف على الأباطيل ، وكانت الخطب المطيلة يرمى بها المقاول من البلغاء وقد تنكبوا القنا واعتجروا العمائم وشدوا الأوساط وأرخوا عليها العباءات . ومحمد البليغ المبين يشرح عنها فلا يسمع ، ولا يستعيد . فقيم الاهتمام بها وهي تدعو إلى العصبية وتوقف الفتنة وتتخذ سلاح الحروب . فكل متشدد لا يعنى بالحق ولا يلتزم الصدق ولا يمشد الإصلاح وإنما يرضى قومه ويتبع هواه .

لا شيء من ذلك يستهوى هذا المفكر الصامت . إنما الذى استهواه وظل يذكره حتى آخر سنى حياته ، خطيب من إياد وقد إلى عكاظ يحمله جمل أوراق فتجمع حوله الملأ ورأى محمد فى سماته النبيلة ما جذب به إلى الاستماع إليه فأنصت ثم أنصت ، فإذا به يسمع وإذا القائل قس بن ساعدة يحذر الناس ببعض ما يجيش فى صدر الشاب المتأمل ، ويضرب الأمثلة بمشاهد الكون فيصيح : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، إذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراه ، إن فى السماء لخيـرا . وإن فى الأرض لعبرا ، مابال الناس يذهبون ولا يرجعون ،

أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم قس بالله قسما لإثم فيه أن الله ديننا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذى أئتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرا»^(١)
حديث شائق يسمعه النبي الشاب فيأخذ بمجامع نفسه . ويظل يتذكر صاحبه ، حتى يجيء إليه وفد عبد القيس بالمدينة ، فيسألهم عن قس بن ساعدة ، فيجيبونه فيتذكر موقفه فى عكاظ ثم يقول عنه « يرحم الله قسا . إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »^(٢) .

وكانت الاجتماعات السياسية والحربية والدينية ، تعقد فى دار الندوة وغيرها ، وتأتى أنباؤها إلى من لقبوه بالصادق الأمين ، فلايسرع إلى شهودها ، ولو فعل لأخذ مكانه فى صدارة بنى هاشم أو سبط أهل مكة حسبا وأشرفهم مكانا ، ولكنه يستمع إلى أنبائها فيشيخ ، ويدعى لشهودها فيحجم ، وكأنه يتساءل مايفعل القوم فى هذه الاجتماعات غير أن يشربوا الخمر ويلعبوا الميسر ويقتسموا الأزمات . ثم يخرجوا إلى صفقات الربا ، وغزوات السلب ، وأوكار البغاء ، وعبادة الأصنام .

وفى يوم يأتيه أن حلفا عقد فى دار عبد الله بن جدعان يسمى حلف الفضول يدعو لنصرة الضعيف ، وإحقاق الحق ، فيسرع إلى دار ابن جدعان فى شغف ويمد يده مع المجتمعين قياما فى شهر حرام يتعاهدون على ألا يظلم بمكة غريب ، ولا قريب ، ولا حر ، ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه فيكونوا جميعا مع المظلوم على الظالم شريفا كان أو ضيعا ، أو يبلغوا فى ذلك عذرا ثم عليهم ألا يتركوا لأحد عند أحد فضلا حتى يأخذوه متعاهدين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى التأسى فى المعاش ، والتساهم بالمال^(٣) . ما هذا إنها

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٣٥ .

(٢) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٣٥ .

(٣) بلوغ الأرب ج ٣ ص ١٢٥ .

الأغراض التي ينشدها ، والتي تخالجه وحيدا حين يخلو إلى هواتفه فليحرص عليها مع الحريصين ، وقد مضت الأيام وقام بعبء الرسالة ، فحقق هذه الأغراض صادعا بوحى ربه ، ولكن اجتماع حلف الفضول لم يبرح ذاكرته فهو يتحدث عنه بالمدينة قائلا لصحابته « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت » .

هذه بعض هواتف الشباب الصامت العزوف تراوده متقطعة بين الفينة والفينة ، وقد ينجو منها أمدا طويلا مشتغلا بالتجارة ، أو ناهضا بأعباء المنزل والزوجة والولد ، ولكنها تعود وتلح عليه ، وتلحظ عليه خديجة زوجته أم المؤمنين ما يعتريه من الصمت المفاجيء والإطراق المتصل فتساءل في نفسها ، فيم إطراق هذا الإنسان النبيل الشهم إنه لنظيف كل النظافة في مسلكه ، يقرى الضيف ، ويرعى الكل ، ويحمى الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، وإنه لفي سعة من المال ورفاهة من العيش فقيم الإطراق الطويل ، وعلام الصمت والاعتزال . وإن اعتقادها الراسخ في همامة نفسه وسمو مثله ليحدثها بشيء عجيب يوشك أن يحدث ، أو ليس ميسرة قد حدثها بمعجزة الغمامة ، وتلك لن تكون لإنسان عادى يأكل ويشرب ويفرق في هموم الأكل والشراب غير متطلع إلى أفق أعلى تشرق فيه لوامع الحق والعدل والإحسان . لقد تحقق حاجسها الصامت فقد بدأ الزوج يواصل الاعتزال نازحا عنها إلى غار حراء .

قد يظن ظان أن الذي نكتبه أدب متخيل لا حق واقع ، والحقيقة أن مهمة الناقد أن يبحث الظواهر الغريبة في حياة الأديب متلمسا تعليلها المعقول ، والنبى ﷺ كان يطيل التفكير والتأمل فلا بد من علة واضحة لذلك ، وكان ينأى مشيحا عن أماكن اللهو والريب ، فلا بد لذلك من سبب ؟ وكان لا يرحب بشعر الجاهلية في الحروب ، والحماسة والغزل والهجاء ، ولا بخطبها في الثأر والاعتزاز بالعصية . وهي تحيط به عن شمال ويمين إنما يرحب بأنموذج معين

من الخطب جاء على لسان قس . وباجتماع منصف قام به حلف الفضول لدرء المظالم .. لن يفعل ذلك إنسان خواء لا يفكر فى شىء بل لا بد وراءه من نفس ذات مثل عالية ، ومنازع رفيعة هيأها البارئ المصور لحمل رسالة السماء . ثم شاء لها أن تعتزل ، وتخلو قبل أن يضىء لها القرآن طريقها المشتبه فقيم كانت تفكر أثناء الاعتزال ؟ وكيف استطاع القرآن أن يجيب عن أسئلتها الغامضة ، فيكون لها بإجابته الشافية أكبر أستاذ ..

إن الجبال العارية الجرد التى تحيط بمكة ليست مما يملأ العين جمالا وبهجة ، فليست لها سفوح تزهى بالخضرة ، ولا تتوجهها الثلوج أو تكسوها الأشجار ، وهى فى أتون الهجير تصلى نارا حامية تحيلها جمرة حمراء ، فإذا لفيها الليل بظلامه بدت قاتمة دهماء وكأنما تسربت بأثواب الحداد فى غير الليالى القمرى . إلى هذه القمم الموحشة كان يسعى محمد بين الدروب والأزقة بمكة ، ليجلس فى غار منها متأملا متعبدا يفكر فيما هيأ الله نفسه له من عوالم الحق والخير والمعروف . كان يجد بعض العزاء فى أشعة الكواكب تنحدر برفق إلى مخدعه فى بعض الليالى فتؤنس وحشته وتسامر وحدته فإذا أطلق لعينيه أن تمتد وراء الجبال شاهد بساطا من الرمل تصفعه الريح بسياطها الهوج ، فينتفض سياجا هائجا من الدر ثم يتبدد هباء .. إن بعض الذين كتبوا السيرة المطهرة من كتاب الغرب — منصفين ومتحاملين — قد تصوروا مكة ذات حدائق ، وبساتين ، وجعلوا جبالها نمطا أوربيا تتوجه الثلوج آنا وتحوك له الطبيعة أزهى الثياب من ريحان وأزاهير ، آنا آخر ، وأخذوا يعللون رحلة محمد إلى الغار كما يعللون مواقف لامرتين وجيته وهو جو وابن خفاجة من طبيعة أوربا ، وقد فاتهم شىء كبير هام جدا هو الفرق الهائل بين مواقف الشعراء من عرب ومن عجم من الطبيعة وموقف سيد الأنبياء ، هؤلاء يقصدون إلى قمم الجبال ومعارض الأنهار ، وأبسطة الصحراء ليجدوا الأنس البصرى والراحة الذاتية فيما يشهدون من مسارح ، وليجعلوا الطبيعة بغاباتها وأشجارها وأزهارها منظرا خلفيا لمشهد شعرى فى قصيدة غزلية أو ليجعلوها مسرحا أنيقا لقصة

عاطفية . ما إلى هذا كان يذهب محمد حتى يقاس بسواه إنه كان ينظر إلى الطبيعة ليتساءل عن صور الطبيعة . هذه النجوم . هذا الجبل . هذا الليل . هذا النهار . كل ذلك رائع مهيب جليل . فمن أوجد هذه الروعة ، أخلقت من غير شيء ! أتمخضت عنها المصادفة . أبعل أن توجد لها أصنام لا تملك لنفسها ضرا و لانفعا .. وان الوحدة الخالية لمما يساعد النبي الموعود على اجتلاء غوامضه ، واستيضاح خوالجه ، وبالفعل كانت وحدة الغار بداية الطريق . ففيه بدأت الرؤيا الصادقة وفيه نزل الروح الأمين بالقرآن على قلب محمد ليكون من المرسلين .

أخذت آيات القرآن تتوالى فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش في صدره من خواطر ، وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سموات ، فإذا به ينقذه من حيرته ، ويجيب على أسئلته . ويؤيد وجهة نظره في الحياة والأشياء . أليس محمد كان ينأى عن الأصنام ، لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام . أليس محمد كان يشيح عن العصبية الحمقاء ، والتعالى بالأنساب لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى . إن العناية التي استخلصته لرسالة السماء قد طبعت حياته بطابع السماء حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفسا ظامنة وقلبا تائقا ، وروحا متطلعا ، فروى الظمأ وشفى الغليل . وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله ﴿ ووجدك ضالا فهدى ﴾ إن الحيرة التي توزعت نفس الرسول قبل البعثة كانت الاستعداد الطيب من التلميذ المخلص لتلقى تعاليم الأستاذ المرشد . وها هو ذا الأستاذ الحكيم يجيب على كل سؤال ، ويرشد إلى الطريق الأمثل ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا نخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

كان التلميذ المعتزل يرى دورات الليل والنهار ، وارتفاع السماء ، وانبساط الأرض ، وتفجير الأنهار ، وإرسال الرياح ، ونهوض الجبال ، وإجراء الرزق ، وبدء الخلق فيتساءل متلهفأتم ذلك بدون مبدع ؟ أقامت به الأصنام الصم ؟ فتأتى

إجابة الأستاذ دقيقة صريحة بمثل قول الله ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آله خير أما يشركون ، أم من خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبأنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض . إله مع الله قليلا ما تذكرون . أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يعثون ﴾^(١) .

وكان التلميذ المتأمل يرى الفجرة من الأعراب يسرقون ويقتلون ويعيثون في الأرض فسادا ثم يموتون كما يموت الأبرياء الصالحون. دون عقاب رادع أو جزاء منصف ، فيتعاضمه أن يتساوى البر والفاجر في العقابة . ويتساءل ألا يقوم هؤلاء ليوم ينتصف فيه المظلوم من الظالم ؟ وهل خلق الخلق سدى فما هذه الدنيا إلا لعب ولهو وما يهلكنا إلا الدهر كما يزعم معاصرون ؟ إن أحاسيس أعماقه الدفينة بما برأها الله من إلهام نبوي لا تقر ذلك ، ولكنه يتطلع متسائلا في حيرته يريد التأكيد والتثبيت ، فيأتيه الأستاذ بالبلسم الشافي حين ينزل عليه جبريل بمثل قول الله .

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ونفخ في الصور فصعق من في السماء ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرق للأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم

(١) النمل الآيات من ٥٩ : ٦٥ .

بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون .
وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم
خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم
هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب
جهنم خالدين فيها فيئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة
زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم
فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من
الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش
يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿١﴾ .

وكان التلميذ المتطلع ينكر في أعماقه ما اشتهر في زمانه من وأد البنات ،
وإظهار الفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ويريد أن يعلن حق
اليتيم في العون والرعاية ، وحفظ المال ، وينفر ممن يطففون الكيل والميزان ،
ويحب العدل والقسط ، وينفر من الربا ويراه ابتزازاً دينياً . ثم ينظر فإذا الجاهلية
مطبقة على غير ما يعتقد . ويتطلع إلى من يشد أزره في إصلاح يقوم به كما
أسرع من قبل إلى الانضمام في حلف الفضول ، ولكن السماء التي ألهمته ذلك
ترسل آياتها المفصحة بمثل قول الله .

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ،
ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر
منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم
تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل
والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى

(١) الزمر . الآيات من ٦٧ : ٧٥ .

وبعهد الله أوفوا ، ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً^(١)
فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴿٢﴾
وبمثل قول الله من آيات محكمة .

﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من
المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه
موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار
هم فيها خالدون يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار
أثيم ﴾^(٣)

ثم يكون التلميذ الحريص فى حاجة إلى معرفة أحوال الأمم الغابرة ،
والعصور الخالية ليضرب لقومه المثل ، وليأخذ لنفسه الأسوة فينزل عليه القرآن
بقصص فرعون وهامان ، وقارون وأقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط
ويوسف وغيرهم من المرسلين . ﴿ ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى
بين يديه وتفصيل كل شئ ﴾ ويلزم قومه الحجة بمثل قوله ﴿ وما كنت لديهم
إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ؟ ﴾ . ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ ؛ ﴿ وما
كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ثم يرد شبهتهم المفتراة إذ يقول عمن
عزوا إليه تعليم الرسول : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى
يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ .

لقد أسهنا بعض الشئ فى الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم لنعلن أن هذا
الكتاب المبين قد ملأ حياة الرسول ، وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة
والحجة والبيان ، ولم أراع التدرج الزمنى فى الاستشهاد بآيات القرآن ، بدءاً

(١) الأنعام . الآيات من ١٥١ : ١٥٣ .

(٢) البقرة . آية ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

ونهاية لأنى فى هذا المجال لا أرصد خطوات التشريع خطوة خطوة ، فأبين مراقبها فى سلم الحياة النبوية ، فذلك شأن علماء التشريع إنما أختار نصوصا قرآنية توضح أستاذية القرآن ، ولكن شاركتها كل نصوص القرآن فى الأستاذية والتوجيه فلسنت فى مجال الاختيار والتفضيل ، وكل كلام الله جيد مختار ، ولكنى أستشهد بما يفد على الذهن ويسد حاجة البحث ، وإن شابهه سواه .

لقد روى أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله لقد طفت فى قبائل العرب فما وجدت أفصح منك فمن أدبك ؟ فقال عليه السلام « أدبنى ربي فأحسن تأديبي » إن بعض الشراح يميلون بكلمة الأدب فى سؤال أبى بكر ورد الرسول إلى المعنى الخلقى . ولكنى أجد السياق صريحا ينطق بأنها تخص المعنى الأدبى وإلا فما معنى قوله فما رأيت أفصح منك . والفصاحة هنا فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى ، إذ أن بعض البسطاء يتصورون الفصاحة خلافة لفظ ، وشقشقة بيان لئن تصورنا ذلك لدى بعض خطباء الجاهلية ممن وفدوا على كسرى باختيار النعمان ، فلن نتصوره إطلاقا فى فصاحة رسول الله ، إذ أنها فصاحة العاقل المكين الذى أرشده القرآن ، وأفرغ عليه آلاف المعانى ، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد ، فإذا تكلم فعن رصيد ضخمة من التفكير الثاقب والمعرفة الغزيرة والدراية الكونية والتاريخية والفقهية مما بسطه محكم الذكر الحميد . ومن هنا كان تعبير رسول الله دسما بمعناه مشرقا بلفظه ، وتتابع المعانى وتسلسلها لدى البليغ المطبوع يعجز الألفاظ المنتقاة جبرا ، ويسوقها مساقا هادئا كى تأخذ مكانها الطبيعى دون نشاز ، وما ضلّت الألفاظ لدى بعض الناس وصارت موضع اللجاج والجدل إلا لأنها لم تأخذ مكانها المحدد ولم تفصل على المعنى المراد أحكم تفصيل .

ولقد كانت معانى محمد فى إرشاداتها ربانية ، وكانت ألفاظه معرضا رائعا لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه فإن أثره عليه عظيم جليل .

على أن هذا الأستاذ — لم يتخل عن طبيعة المربي اليقظ في شيء . فكان يقسو عليه في بعض الأحيان قسوة الحريص محذرا مصمما ، مخافة أن يحميد التلميذ عن الطريق ، فهو يقرعه بمثل قوله :

﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا ، وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاك فيها إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنننا تحويلا ﴾ أما إذا حاد عن الأولى في شيء فهناك المحاسبة الصريحة تنطلق عالية مدوية لتقول :

﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك إلا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة ﴾ ، ولتقول : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾

تلك نماذج من محاسبة الأستاذ ومراقبته ، وقد تركت أثرها القوي في نفس التلميذ فكان يقرأ القرآن ، أو يسمعه وجلا حذرا متمعنا ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

قال لى النبي ﷺ اقرا على ، قلت أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إنى أحب

(١) عبس . الآيات من ١١:٥ .

أن أسمع من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال أمسك فإذا عيناه تذرفان رواه الشيخان^(١) ، ومع هذا الحرص البالغ في موضع المؤاخظة فقد كان الأستاذ مشيدا بتلميذه معددا سجاياه مشجعا إياه شأن المربي الناهض الذي يدفع أشباه المرموقين إلى الأوج مترقبا غدهم البهيج يقول الله تعالى — وما أكثر ما قال عن نبيه — ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾^(٢) .

وقال : ﴿ إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾^(٣) .

وقال : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ . وكان مشيا أعظم الشاء حين قال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ لقد سئلت عائشة عن أخلاق الرسول فقالت فيما قالت . وكان خلقه القرآن . أجل كان القرآن طمأنينة خاطره ، ومصباح عقله ، وملهم معانيه ، ومحدد اتجاهه ، وياله من أستاذ .



(١) التاج ج ١ ص ٩٦ .

(٢) الفتح . آية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) الفتح آية ١٠ .

محمد ﷺ خطيباً

لا يقدر تأثير محمد ﷺ في الخطابة العربية على مر العصور إلا من عرف كيف كانت الخطابة العربية قبله ، وكيف صارت بعده .

نحن نعلم أن حياة الحروب والغارات في الجاهلية مع الحرية التامة للقائلين قد أوسعت مجال الخطابة الجاهلية ، إذ أن من المقول الطبيعي أن تفيض الألسنة الفصيحة بما تجيش به الصدور في مواقف عابسة تختلط فيها الأمور ، ويفزع الناس إلى ذوى العقل والرئاسة فيهم ليسمعوا منهم ما يوضح الغوامض ويجلو الدياتجير ، وهؤلاء لا بد أن يتوسطوا الملاء ليقولوا بما توحيه عقلياتهم ومنازعهم . فازدهار الخطابة في المجتمع الجاهلي أمر يتفق وطبيعته ، فهو مجتمع ذو أحداث وذو رجال ، فلا بد من القول الواسع العريض .

ولكن أى ازدهار ذلك ؟ هل هو ازدهار الفكرة الصائبة ، و المنطق المتسلسل والأسلوب المطرد . إن ما لدينا من بقية ما حفظته الأجيال لا يوحى بشيء من ذلك فالخطبة الجاهلية لا تعنى بالترتيب والتسلسل ، ولا تخاطب العقل مخاطبة واعية بصيرة ، ولكنها صرخة متحمس يصيح بها فى ملاء . حتى ذكر بعض الناقدین^(١) أن الخطابة المنطقية المقنعة قد ازدهرت فى بلاد اليونان والرومان ، وعز على أرباب الفصاحة فى الجاهلية أن يوجدوا خطبا متماسكة ، وهذا كلام فيه كثير من الحق لأن شيوع الارتجال بمعناه الفطرى قد دفع كل قائل إلى القول دون إعداد ، وقد عبر عن ذلك الجاحظ حين قال « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجمالة فكرة ، ولا استعانة ، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذاهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »^(٢) هذا إلى أن غرض القول فى أكثر أحواله لا يوحى باتباع

(١) فن الخطابة ص ١٨٢ للدكتور الحوفى .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٥ .

المنطق فى القول والتزام الحجة فى المناقشة ، فأى منطق شديد يلتزمه خطيب يتكلم فى حرب البسوس ، وقد مكثت أربعين عاما بسبب ناقة عجفاء . وأى حجة صائبة يتذرع بها متحدث فى معركة عبس وذبيان ، وقد فاضت بها مئات الأرواح من أجل فرس سابق ؟ لا ننكر أن من بعض خطباء الجاهلية حكماء عقلاء كأكثم بن صيفى ، ولكن تلاحظ الحوادث الهوج عن شمال ويمين يعصف بصوت الحكمة ، فلا يكاد يسمع بين قعقة الرماح وصليل السيوف .. حتى هذه القلة القليلة من الحكماء ، إذا أتيح لها أن تتحدث لم يجيء حديثها متساوقا يجرى فى اطراد مرتب ، وإنما هى حكم وأمثال تضم إلى بعضها فى استكراه وقهر ، حتى لو تركت جملة ونطقت أخرى ما اضطرب السياق ، واستعرض إن شئت ماتعورف من خطبة أكثم بن صيفى فلن تعثر إلا على مثل قوله :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد البرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لأمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء المرء يعجز لا محالة ، أفضل الأولاد البررة ... إلخ^(١) .

فماذا ترى فى كلمة هذا العاقل الحكيم غير حكم معقولة رصت رصا وحشدت حشدا دون سياق مطرد . ولو سارت خطب الخطباء على هذا النهج الجاف ما انتفع بالخطابة ملاً ، وما كان للخطباء تأثير . وقد توجد فى بعض ماروى عن القوم خطب متماسكة ولكنها من القلة الضيقة بحيث لا نملك الحكم عليها كطابع بارز للخطابة فى العصر الجاهلى ، هذا إذا عرفنا أن بعض

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٢١ .

هذه الخطب المتماسكة مما يجوز أن نحكم عليه بالوضع ، لأن من أفكاره مالا يتهياً لجاهلى لم يشرف بنور الإسلام كما أن بعضها الآخر لا يخالجننا شك فى صحته كخطبة قس بن ساعدة الذائعة مثلاً . وهذه الخطبة لم تعدم من يشك فى صحتها كزكى مبارك وطه حسين وغيرهما . ولكننا نعتقد أن الخطيب الذى ضربت به العرب المثل فى الفصاحة فقالت أبلغ من قس . لا يمكن أن يحوز هذه الشهرة الفياضة وهو شخص أسطورى كما يزعم الزاعمون ، إذ أن جميع القبائل الضاربة فى بطون الجزيرة العربية ، أعقل من أن تخدع بشخص لاحقيقة له ، فتضرب به المثل وتمدح البلغاء بتشبههم به . هذا إلى أن الرسول شهده وتحدث عنه وروى قوله . ولن يكون ذلك لغير خطيب مكين .

جاء محمد ﷺ والخطابة الجاهلية لا تتركز على أساس من وحدة الموضوع ، وصحة المنطق ، فأحدث فيها انقلاباً كبيراً يجب أن يشير إليه الباحثون ، إذ لم يرها ﷺ مجال خلافة ومباهاة وموضوع افتخار بالفصاحة والإغراب . ومصدر تيه وإعجاب للمتفهمين المتشدقين بل كان عليه السلام حرباً على هذه الفقايع التى لاترى فى الخطابة إلا معرضاً للثرثرة واللمز والتطاول والادعاء . وإذا كانت خطب اليونان على اشتها صيتها وجهارة رجالها لم تسلم فى بعض موضوعاتها من السفسطة الخالية والتضليل المغرق ، بحيث عيب على نفر من أعلامها تطاولهم على الحق وتغريهم بالمستمعين ، فإن محمداً ﷺ بخطبه النبوية قد وضع الميزان الجديد للخطيب المنصف الأمين .

لقد هيات الأقدار لرسول الله أن يكون المثل الأعلى للخطيب الممتاز شكلاً وموضوعاً ، أما من ناحية الشكل فنحن نعلم أن مؤرخى الخطابة يعدون المظهر المرئى لشخص الخطيب من بواعث توفيقه ، ودلائل نجاحه فالخطيب البارز الوضىء النظيف ذو الصوت الملىء واللفظ الطلق يحوز بودار النجاح لمجرد رؤيته ، إذ القلوب إليه أجذب وعلى سماعه أحرص .

وقد كان رسول الله ﷺ — كما وصفه ابن أبي هالة — وقد كان وصافا شهيرا — فخما مفخما يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر — عظيم الهامة رجل الشعر أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العينين له نور يعلوه ، ويحسبه من لم يتأمله أشم . كث اللحية أدعج سهل الخدين أشنب مفلج الأسنان . خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء^(١) . وبديهي أن الخطيب حين يتحدث إنما يظهر انفعاله في وجهه فإذا رزق صباحة وضاءة فقد ضاعف انفعاله من جماله وضاعف في تأثير سامعيه . هذا قول ينص عليه علماء النفس ولنفوسنا جميعا خبرة به ، فكم من دميم تزدرية النفوس ولا تحب أن تسمعه . وإذا كان بعض الخطباء كالحجاج والأحنف من ذوى الدمامة ، فيعلم الله كم بذلوا من التحجب والتلطف حتى تدسسوا إلى نفوس السامعين ، فتحملوا بذلك ما عوفى منه ذو الطلعة الصبيحة كرسول الله ، أما صوته فكان رقيقا سلسا مفصلا حتى ليحفظه السامع إذا سمعه . لا يميل إلى صخب مرتفع ولا تعوقه حبسة أو تقف به تأتأة أو لتغة . فإذا تكلم أشرقت ثناياه فكأن شعاعا أضاء . وكان مع هذه الصفات الموهوبة يزيد إلى مظهره حسنا باحتفائه بما يجمل ويزين ، إذ يخضب لحيته بالحناء فتبدو شقراء جميلة ويحب التطيب بالعطر ليأنس إليه من حوله ، وكان يكره أن يرى رجلا أشعث أغبر منكوث الشعر أو ذا أسنان صفر لا يتعهدها بالسواك^(٢) ، ويراعى التناسق في الإطار العام ، فحين دخل مكة يوم الفتح لبس عمامة سوداء مشابهة للون الراية التي ترفرف من فوقه . هذا المظهر الشكلى للخطيب يفرغ عليه من المهابة ، والقبول ما تعرفه نفوسنا دون تأكيد .

(١) محمد الشبل الكامل ص ١٠٢ .

(٢) ثورة الإسلام ص ٣١٤ .

أما اهتمام الرسول بالموضوع فى خطبته فقد ملأ عليه أقطار نفسه لا يهتم بالحديث فى موقف حتى يهيبىء معانى القول ، وما ذلك لعى أو ضعف كما يتصور البسطاء ولكنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنه مسئول عن كل لفظ وأن صحابته سيتداولون حديثه كما نطق به ، فلا بد أن يختار من الألفاظ المحددة ما لا يدع المجال للتفريع والتشقيق . هنا موضع تهيئة القول وهنا مجال التحديد . وهنا أيضا تعليل ظاهرة الإيجاز التى انطبع بها أدبه — أو كاد .

ولنا وقفة يسيرة عند إيجازه فى أكثر من خطبة . وقد بز عليه السلام الخطب الطوال بالكلام القصير ، إذ أن الإيجاز العربى فى بلاغته المعجزة وليد ذهن ثاقب يستعرض حشودا من المعانى ليرزها فى عبارة محدودة ، تكون جوامع الكلم وشوارد المثل ، فهى عصارة مركزة لمادة دسمة تضم من أسباب القوة ما يتيح لها التغلب والنفاز ، وهنا كان الأديب الموجز أعرق فى البلاغة من الأديب المطنب ، إذ أن الثانى يدون خواطره كما تجبىء ، أما الأول فيقف وراء هذه المعانى المثالة ، يطالع وجوهها ويتأمل منازعها ، ثم يأتى بفحواها الشامل فى جملة تصيب المحز وتطبق المفصل ، وأذكر أن بعض البلغاء من أساطين الأدب أرسل خطابا مسهبا فى أحد أموره ولم يفته أن يعتذر فى نهايته عن الإطناب كأثر ملحوظ ، إذ لا وقت لديه يتسع للإيجاز ، ولن يقدر هذا الاعتذار الصادق غير من تمرس بأساليب البيان فعرف مضايق الإيجاز وقد فطن الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى روعة الإيجاز فى البلاغة العربية فقال متحدثا عن بيان محمد صلى الله عليه وسلم :

والإيجاز هو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل ، وقوة الروح ، وقوة الشعور ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه^(١).

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ١٩ .

ونحن نعلم أن أصحاب الدعوات الكبيرة في حاجة ماسة إلى تكرار القول وترديده ، والخروج به من نطاق الدقة والتحديد إلى مجال الإسهاب والتطويل لترسخ مبادئهم في الأذهان وتصل تعاليمهم إلى القلوب ، فالإيجاز — إذن — في ظاهر الأمر لا يصل بهم إلى الهدف المنشود . نعلم ذلك ولا نستغربه من قادة الرأي ، ورواد الإصلاح في عصورنا الحديثة . ولكن الأمر جد مختلف بيننا وبين عصر النبوة ، فالعرب إذ ذاك قوم بلغاء يقدرّون الإيجاز حق قدره وقد قالوا في بعض قوانينهم الأدبية إن البلاغة الإيجاز ، فهم إليه أميل وما نزع نازعهم إلى الإسهاب إلا عن ضرورة تحتم ذلك ثم يعود إلى الإيجاز ، مكثفيا باللمح والومض عن الطرق الملح والتشقق المتفرع ، هذا إلى أن رسول الله كان يحارب الثثرة فيما يحارب من الآفات ، ويرأها مضرّة البلاغة في القول ومدعاة الشغب في العمل حتى قال في بعض أحاديثه إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون .

وقد يقتضى الأمر لمناسبة عارضة أن يفيض رسول الله في القول فلا يتأخر ، لذلك روى أبو سعيد الخدرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد خطب ذات يوم بعد العصر فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف ، ولسنا نجد من يخبرنا عن موضوع خطبته تلك لنعرف الدافع الذى حدا به إلى تجنب الإيجاز ، ومن يدرى لعل الله قد شاء له أن يطيل لا شعورياً في موقف كذا ليعلم الحسدة من أعدائه أنه يملك أزمة البيان المطيل ، وأن إثارة الإيجاز ترجيح صائب للجادة المثلى من طرق الحديث ، وإذا كان لكل مقام مقال فإن مقال الإيجاز يستدعى من الخبرة النفسية والثقافية الملهمة ذخيرة وافية واقية ، فقد تحين المناسبة المرتقبة وتفتح نوافذ القول من كل ناحية ويظن المستمعون أن مجال الخطابة ذو سعة ، ثم يقف محمد فيوجز إيجازاً لا مجال بعده لإطناب وتهويل ، ويترك النفوس ذاهلة لاتدرى كيف استطاعت الجمل المحدودة أن تفعل ما لا يفعله حديث اليوم الطويل ، فتخلق جواً من التأمل والعبارة والحيرة يمتد أياماً طويلة دون أن ينقطع فيضه وأن يغيب صده هذا رسول الله يرجع إلى

مكة يوم الفتح الأعظم فيقتحم عرينا طالما جمع أعداءه وذوى الضغائن من مناويئه ، وتخفق راية النصر على جيش الإسلام سابقا ظافرا ، وإذ ذاك تتطلع العيون الكافرة دامعة مغيظة ترتقب أن يفاجئها الجزاء الرادع من المنتصر الظافر دون إبطاء ، ثم يقف الخطيب القائد فلا يشك مستمع في أنه سيتعرض إلى تاريخه الطويل مع أعدائه متشفيا شامتا ، وسيعدّد ما منّ الله عليه به من فوز سباق ، ثم يميل بالتهديد والوعيد إلى قوم أخرجوه من وطنه ، وآذوه في دعوته وناصره الحرب في مغتربه ، بالله : كم ينتظر السامع من محمد في مثل هذا اليوم الأغر . إنه ليقف والأبصار خاشعة والرقاب منحنية فيقول :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثره أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي (١) هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا ، فيهما الدية مغلظة منها أربعون خلفه في بطونها أولادها » .

يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

يا معشر قريش : ماترون أنى فاعل بكم ، قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) .

ما هذا الإفحام البليغ تنبعث به حروف معدودة فتترك النفوس ذاهلة مأخوذة ، كم يستشعر الطليق من ذات نفسه ندم الخجل فيرى في وجهة عرق الخزي ، ويحس في حلقه مرارة الأسف . وكم من الساعات سيظل مرددا لقول محمد اذهبوا فأنتم الطلقاء . مستحييا أن تعود به الذكرى إلى باطل سلف ، وإثم أدبر ،

(١) حمهرة خطب العرب ج ١ ص ٥٢ .

أرأيت الإيجاز يبلغ مبلغه من النفوس حتى يصبح في كلماته مثلا شرودا مجلجل الأصداء ، تاركا في النفس أعنف ضروب التأثير . إنه لاشك وليد خبرة بالمنازع الهاجسة يحدوها بما يضمن لها الهدوء والتثبيت .

الإيجاز إذن كان السمة الأولى لخطابة محمد ﷺ ، وتجاوره السمة الثانية المتجلية في قوة الإقناع ، إذ كانت خطب الرسول من روعة إقناعها الملجم بحيث لا تدع منفذا لمهاجم متربص . فإذا سألت عن مصدر هذا الإقناع وجدته الصدق الحار الذي تفعل به نفسه نحو رسالته العالية ، فكثير من الخطباء من يغترون بمواهبهم الكلامية فيخطبون في الدعوة إلى أمور لا يعتقدون صوابها ، بل سيقوا إلى ذلك سوقا وراء نفع مادي أو منصب حكومي أو تأييد حزبي . ومهما أتقنوا التمثيل والمداراة فلن تجد لدى حديثهم هذا برد الاطمئنان في نفسك ، لأنهم لا يزيدون عن محترفين يمثلون أدوارهم دون أن تشتعل في صدورهم جذوات الصدق ، وهي التي تهيج هائج الانفعال فيوحى بالنفاد والتأثير ، أما محمد ﷺ فقد كان صدقه الحار ، وإخلاصه القوي ، وإيمانه الأكيد برسالته مما يدفعه إلى قوة الإقناع . إنه ليس خطيب قبيلة يتحدث عن مفاخرها بالباطل والحق ، ولكنه نبي يؤمن بضرورة الإصلاح الذي اقتنع به ، وعليه تبعاً لذلك أن يقنع الناس . هذا الصدق الحار يدفعه إلى أن يخلو إلى نفسه فيتلمس وسائل الإقناع من مشهد حاضر أو دليل ملموس أو سؤال واضح الإجابة ليمهد بذلك الطريق إلى العقول والقلوب ، لنا أن ننظر في أول خطبة رويت عنه ، وهي التي قالها حين صدع بالدعوة تنفيذاً لأمر ربه . كان من المظنون والمقام مقام دعوة جديدة لنبي جديد أن يعد نفسه — لو لم يكن محمد بن عبد الله — لموقف طويل يشغل الساعة والساعتين وأن يتحدث عن تاريخ حياته بإفاضة يمهد بها لهذا الطارئ الجديد ، وأن يستغيث بروائع الأخيلة ، ذات التهويل ، والعبارات ذات الجرس يقرع بها الأسماع ، ولكنه ليس محترفاً للقول يصول به مباحيا بالإطناب والخلاصة والمغالطة ، بل هو نبي يعتمد على الصدق الملجم والإقناع المفحم ، فيصعد إلى الصفا بمكة ثم يلتفت يمينا وشمالا ،

لينادى بصوته المطبوع النافذ يا معشر قريش . يامعشر قريش . فيتواثب الجالسون ويتداني النازحون يستمعون إلى هذا الذى وصفوه بالصادق الأمين ، لم يشكوا لحظة فى صدقه أو يماروا ساعة فى أمانته ، يستمعون إليه وهو يسألهم فى هدوء ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟

فيصيح الملاء فى صوت واحد : نعم ماجربنا عليك كذبا ؟
فيتفرس فى وجوههم وقد ألزمهم بتصديقه حين وجه إليهم سؤاله ، فأجابوا عنه بما أَرْضاه ثم يقول متابعا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزؤن بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا^(١) .

أرايت إلى الإقناع الملزم يأخذ به محمد العقول ! لقد سألهم عن صدقه فاعترفوا به ثم أقسم لهم بما يثبت هذا الصدق ويؤكدده حتى إذا أعلن رسالته إليهم خاصة وإلى الناس كافة لم يترك الأمر دون تدليل ، فهناك حساب وبعث وجزاء ، لكن كانوا ينامون فالموت كالنوم حقيقة واقعة ، ولكن كانوا يستيقظون فالبعث كاليقظة حقيقة أخرى ووراء البعث جزاء وحساب وإنها لجنة وإنها لنار .

لأظن أن كلمات هذه الخطبة الموجزة تغيب عن سامعها . ولا بد أنها كانت مجال نقاش وعراك بين المجتمعين . لقد اعترفوا مجتمعين أنهم ماجربوا على

(١) حمهرة خطب ج ١ ص ٥٢ .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٧٢ .

الرجل كذبا . وهم يعلمون أن الرائد لا يكذب أهله ، ثم لا يستطيعون فى سطوة هذا البيان المقنع أن يدفعوه فىكون قصارى قائلهم الألد الخصيم أن يسأل : ألهذا جمعنا ؟

صارت خطب الرسول بهذا الإقناع الصريح مرتبة الألفاظ مطردة المعانى واضحة التركيب لأن تعتمد الإقناع يدفع صاحبه إلى أن يجرى القول فى نسق متصل يسلم أوله إلى آخره كما تسلم درجات السلم — طال أو قصر — بعضها إلى بعض فى غير مشقة ، وأقوى الكلام ما طرق عليك عقلك طرقا تعيه بتأملك حتى إذا بلغ موضعه من فكرك انتقل تأثيره إلى وجدانك فيقتنع به اقتناع الواثق المدرك ، وعشاق الخلافة اللفظية يطربون الوجدان بمعسول الألفاظ وما تتضمنه من سجع وازدواج طربا سطحيا ، فلا يلبث الوجدان أن يفيق من طربه إذا استعاد خطب الخلافة اللفظية مرة أو مرتين ، لذا يجدها بالتكرار قد نفضت زركشتها السطحية ووقفت عارية عن التأثير المقنع ، أما الذين يقنعون الوجدان بالقول الحى والمعنى الصادق فلن تزول حرارة تأثيرهم النفسى مهما تكررت أقوالهم لأنها بإقناعها الفكرى فى حرز مكين .

استمع إلى مثل ذلك من قول محمد فى خطبة له :

أيها الناس إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، ليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشيبية قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار^(١) .

أرأيت كيف قسم الخطيب أفكاره وحدد معانيه بين الماضى والمستقبل ، والذاهب والآيب ، وقد برع فى المقابلة بين الدنيا والآخرة وبين الشيبية والكبر

(١) إعجاز القرآن لبقلاوى ص ١١٠ .

والحياة والموت ، والأجل الماضى والأجل الباقي براعة من يقابل بين معان متعارضة ترسم بتعارضها فجاءة فى النفس ، وليست حلية لفظية من البديع يتكلفها متكلف دون أن تغوص إلى حقيقة متعارضة فى كبد الحقيقة الإنسانية ، وهنا مجال التأثير القوى لا الخلافة السطحية التى تصيد من زائف المحسنات .

لقد أكثر الواعظون من لدن رسول الله إلى يومنا هذا من التحذير من الموت ، فلا تكاد تسمع خطبة جمعة حتى يأخذ عليك الخطيب منافذ سمعك بعبارات مكرورة تشير إلى الجزاء والثواب والجنة والنار واليوم الآخر ، وليت هؤلاء يعلمون أن مجرد ذكر الموت والجنة لا يترك تأثيرا ، إلا فى حديث مرتب مقنع كحديث الرسول ، فليست المسألة مسألة تهويل وترهيب ، دون خطة تحكم الإقناع ، ليتهم يرتسمون مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم فى إحدى خطبه عن الموت :

أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب وكان الحق فيها على غيرنا قد وجب وكان الذى يشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون نبوتهم أجدائهم ونأكل من تراثهم كأننا مخلدون بعدهم ، نسينا كل واعظة وأما كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه فى غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعت السنة ولم تستهوه البدعة^(١) .

تلك نصوص صريحة من خطب نبي الإسلام تتسم بالإيجاز وقوة الإقناع وحرارة الصدق ، وهى بعد واضحة التركيب سلسلة اللفظ ولعل هذه جميعا هى السمات البارزة فى خطبه عليه السلام .

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٥٣ .

نقول — لعل — ولا نجزم ، لأن مئات الخطب النبوية قد ضاعت دون راو ، لقد كان عليه السلام يخضب في العام الواحد خمسين خطبة جمعة ، دون غيرها من خطب الغزوات والعيدين ، والكفاح ، والاستسقاء فكم من الخطب قالها على المنبر في عمره السعيد . إن كتب الأدب والسنة لاتتجاوز عدد أصابع اليدين ، فماذا جمعت من خطب محمد ﷺ !! أليس لنا أن نتخذ من ذلك دليلا على أن الراوين عنه لم يتزيدوا عليه فيما رووه من الآثار ، وإلا فلو كان كل راو يترك لنفسه العنان أن ينقل من المعانى ما تدل عليه ألفاظه الخاصة كما ظن بعض الواهمين ، لرويت لنا مئات الخطب عن رسول الله ، ولكن قلة ما روى من هذه الخطب دليل الثبوت والاحتياط .

لقد حفظ لنا الدهر خطبة جمعة كاملة رواها الطبرى ، وكأن الزمن قد شاء أن يقدمها مثلا لمنهج سنة الرسول ، ثم أتبعه خطباء الإسلام من لدنه ، ليظهر تأثيره فى الخطب الدينية بدءا وطريقة واستشهادا بالقرآن وموعظة بالتي هي أحسن ، ونحن ننقلها فى مجال البحث عن خطابة محمد لتكون أحد شواهد تأثيره البارز فى هذا المجال . قال عليه السلام فى خطبة جمعة بالمدينة « الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفر وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالا بعيدا ، وأوصيكم بتقوى الله فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وأن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ، ومخافة من ربه ، عون صدق على ماتبعون ، من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا يتغنى بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم وما كان من سوى ذلك يود

لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله وأنجز وعده لاخلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾^(١) فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا ، عظيما وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله قد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولا قوة إلا بالله فأكثرُوا ذكر الله واعملوا لما بعد هذا اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا وقوة إلا بالله العظيم^(٢) لقد نقل هذه الخطبة الدكتور شوقي ضيف في بحث بالثقافة عن « خطابة الرسول » ، ثم قال تعقيبا عليها :

« وما من ريب في أن صورة هذه الخطبة — إذا صحت — هي الصورة التي تحكمت في خطب الجمع النبوية كما تحكمت في خطب من جاءوا بعده من حيث طريقة افتتاحها بالحمد لله ، والصلاة على النبي عليه السلام ثم من حيث توشيحها بأى القرآن الكريم ثم من حيث ما تعالجه من الدعوة إلى تقوى الله ، وخشيته وطاعته وطاعة رسوله ، وما جاء به من أوامر ونواه » وقد امتازت الخطبة بالتكرار في ألفاظها ومعانيها ونحن نعرف أن التكرار من أهم رسل

(١) ق آية ٢٩٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٢٥٥ .

الأسلوب الخطابي وقد كان النبي ﷺ يميل إلى هذا التكرار كما يبدو من خطبته الكبيرة الأخرى التي احتفظ لنا الرواة بكثير منها ونقصد خطبة حجة الوداع^(١).

ونحن نؤكد مع الدكتور أن هذه الخطبة وعشرات مثلها من قوله الرسول قد خطت للخطبة الدينية مجراها ، بدءا ، بالتحميد والصلاة على رسول الله واستشهادا بآيات القرآن . وإذا كان فيها بعض الطول النسبي كما في خطبة الوداع فإن الذي نرجحه أنه عليه السلام كان يميل إلى قصر الخطبة في أكثر أحواله . ودليلنا عليه ما أسلفناه من بعض خطبه ، ثم قوله عليه السلام أقصروا الخطبة وأطيلوا الصلاة !

أجل لقد ظهر تأثير الخطب النبوية في خطب خلفاء الإسلام بعد محمد فما روى عن أبي بكر وعمر من المشهورات الذائعات ينحو المنحى النبوي ، ولو كان في المقام سعة لاستشهدنا بخطبتيهما — على الأقل — عند التولية ، ولكن اشتهار ما روى عنهما يشفع لنا حين نهمل ترداد الذائع المشتهر لدى القراء .

أما علي بن أبي طالب فقد تربى في بيت النبوة وتأثر من الهدى النبوي بما نضح على بيانه قوة وبهاء ، ولكن حوادث عصره وما أقساها على نفسه قد دفعته إلى ضرب من الإطناب يثير به هؤلاء القاعدين عن نصرته ، ويناوئ به هؤلاء الذين نازعوه حقه ، وفتحوا باب الشر على المسلمين ، فتساقطت الأرواح في معركة خسر فيها الإسلام مئات من رجاله ، وفي طليعتهم أمير المؤمنين الشهيد كرم الله وجهه ، فإذا قرأنا خطب العصر الأموي رأينا من رجاله من عاد إلى الطبيعة الجاهلية من الجلجلة بالغرير والخلافة بالتمويه ، والتزيد في اللجاج طمعا في الغلبة كالحجاج ، ومن نهجوا النهج المحمدي في الدعوة إلى الله بالإقناع والمنطق والتأثير كالحسن البصري ، وأكاد أقول كأبي حمزة الشاري

(١) مجلة الثقافة السنة الثامنة ص (١٣٣٥) .

لولا مانع عرفه من تعسف جماعته ، وتهورها في مؤاخذه المسلمين دون عدل .
إن رجلا يحول الخطابة العربية من مجرى معوج إلى مجرى مستقيم ويرسم
بطابعه الأدبي آلاف الخطب الدينية — وغير الدينية في بعض الأحيان — على
مد العصور الإسلامية لجدير أن يكون خطيب عصره دون منازع ، وخطيب لغته
دون منازع . ولسنا نضيف إليه أمرا خارجا عنه حين نبين تأثيره الخطابي ،
ولكننا نعترف بالحق لصاحبه في مجال الرصد النزيه .

ولا بد من وقفة هادئة لدى خطبة حجة الوداع ، إذ أن لها أكثر من دلالة هنا في
تقدير نبوغه الخطابي إذا عرفت ظروفها الحرجة ، وما اشتملتها من مناسبات .

لقد كان الجمع الحاشد الذي خطب فيه الرسول خطبته تلك ، أكبر جمع
أُتيح لمحمد ﷺ أن يخطب فيه ، فقد حشد من حجاج القبائل ما لم يتيسر
جمعه قبل ذلك إذ أتت الخطبة بعدما رسخت أقدام الإسلام ، وخطبت وده
الوفود متحدثة بلسان القبائل وأدرك الجاحدون من المشركين أن نجم الإسلام
قد تآلق وازدهر ، وأن التخلف عن ركبه حكم نهائي بالاعتزال والهوان ، ولأن
يكونوا ساقاة في جحفل الإسلام تتقدمهم الطليعة والقلب والجناحان خير من أن
يصبخوا لا شيء إطلاقا في ركب الحياة ، هذا الجمع الحفيل بالحشد ، قد وقر
في نفس خطيبه بإلهام رباني أنه لن يقف هذا الموقف مرة أخرى ، إذ سيأتيه
اليقين الصادق قبل دورة العام ، وهذا ما عبر عنه صراحة حين قال « فلعلني لا
ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا » . وقد يطرأ مثل هذا الخاطر في نفس غير
النبي فيتجاهله ويلتمس المبررات لتكذيبه ثم يستريح إلى هذا التجاهل ، ويسير
مع الحياة سيرا طبيعيا لا يكدره تذكر الرحيل القريب ، ولكن طروقه في نفس
نبي ملهم عودته الأيام أن تصدق تنبؤاته مما يستحيل معه التجاهل ، فما ظنك
بخطيب يجتمع أمامه حشد لم يجتمع مثله من قبل ، ويحس أن عليه لهذا الجمع
عبء الإبلاغ . ليخرج من التبعة أمام ربه وأى إبلاغ ذلك ؟ ليس الأمر إبلاغ
مسألتين أو مسألة ، ولكنه إرساء حقوق الإنسان على وضع وطيء ، فلا بد أن
يتحدث عن حرمة الدماء والأموال ، وعن أداء الأمانات إلى أصحابها ، وعن

تحريم ربا الجاهلية ، وعن ديات القتل عمدا وعن غير عمد ! وعن النسيء وضلالته ، وعن النساء مالهن وما عليهن ؟ وعن الأخوة الإنسانية التي ترجع إلى أصل واحد هو آدم ، وعن الميراث والوصية . مسائل هامة مختلفة لو تزاومت في صدر خطيب غير محمد في مثل موقفه لطار سداده وارتج عليه في مقامه . ولكنه يقدر عبء التبليغ ويستشهد بالله على أدائه ، ثم يرسل هذه الكلمة الشاملة التي جمعت فأوعت ثم كانت بمناسبتها وتعدد موضوعاتها ، وغرابة شعور قائلها موضع العجب والإعجاب . وها هي ذى :

إن الحمد لله ، نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهدا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحسبكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذي هو خير ، أما بعد أيها الناس ، اسمعوا مني أبين لكم ، فإنني لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ، اللهم أشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ففيه مائة بغير ، ومن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، إن عدة الشهور اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة

حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم أشهد ، إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا لكم ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تکرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ، أيها الناس إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه ألا هل بلغت ، اللهم أشهد ، فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض فإنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ، كتاب الله وأهل^(١) بيتي ألا هل بلغت اللهم اشهد ، أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت قالوا نعم قال ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لو ارث من وصيته أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من دعى إلى غير أبيه ، وتولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا^(٢)

(١) انفرد الباقلاني برواية وأهل بيتي وأخالها بعيدة لأن رواية النسائي المختصرة ، وروايتي البخاري والترمذي المتوسطتين ، وروايتي مسلم وأبي داود المبسوطتين ليس فيها « وأهل بيتي » وقد جاء حديث حجة الوداع بالتاج ج ٣ ص ١٧٥ عن مسلم .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١١١ .

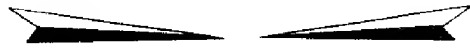
إن القدرة على إيجاز كل هذه المعاني في هذه الكلمات مع الحرص على الإيضاح والتفهم في موقف لا يظن صاحبه أن يتكرر ، لمجال الروعة ، وهو إن دل على قوة العقل ، وامتلاك أزمة القول ، فإنه يدل مع ذلك على رباطة الجأش ووقوة النفس ، والنزول على حكم الله راضيا مغتبطا به ، وتلك شيم الأنبياء . وهناك عنصر هام من عناصر الخطابة النبوية يكاد يبلغ وحده من التأثير ما تبلغه كل الخصائص مجتمعة لأنه ينبىء عن معدن قائله ، وأعنى به عنصر الشجاعة الأدبية لدى المتكلم ، فالخطيب إذا كان شجاع الرأي يزأر في وجه العاصفة بعزيمة لا تعرف النكوص ، فإن المعجبين به يتزايدون حتى ليكون من بينهم بعض خصومه ، وإذا كان هؤلاء يستشعرون الغيظ لجراءته فإنهم في قرارة نفوسهم يسمعون أصوات الضمائر صارخة بالاعجاب والدهشة . هؤلاء هم المعارضون فما ظنك بالمؤيدين الذين يجدون في حديث الخطيب ترجمة عن مشاعر مكظومة ، وتعبيرا عن أحاسيس مكبوتة . ومهما كانت عبارة الخطيب الشجاع سهلة قريبة ، فإن هدفها الأسمى يغنى عن كل صورة خالبة ، ولم يعرف تاريخ النبوات رسولا حمل أمانة اللسان كما حملها محمد بن عبد الله لأن بيئته العربية قد جمعت قوما لا يرمون بالخطب الطوال ويقذفون بالحجج السوائر ، فإذا صيح في وجوههم بما يسفه أحلامهم فتلك هي الشجاعة الأدبية ، وهناك ضرب من الشجاعة الرائعة يفوق مجابهة الباطل ومدافعة الطغيان ، ذلك هو الاعتراف الصريح بحقوق المعارضين ومواجهة مطالبهم بما يحفظ جانب الحيدة والإنصاف ، والخطيب في مثل هذا الموقف يحتاج إلى رصيد ضخم من كرم النخيزة وعراقة الضمير ومثانة الخلق ، وإني لأعرف لمحمد مواقف رائعة أنصف فيها معارضية من نفسه في شجاعة مخلصه ، فزاده الإقرار بالحق رفعة وجلالا .

لقد غضب بعض الأنصار عقب غزوة حنين إذ نال المهاجرون من سبي المعركة أكثر مما نالوه وهم ذادة الدعوة ، وحماة الإسلام ، ومضى حديثهم إلى محمد ﷺ فبادر بالنهوض إليهم وجابه الموقف في نزاهة العادل ، وإنصاف الأمين فعرف لهم حقهم كما عرف لنفسه حقها ، وكان في مكنته — لو تخلى

عن شجاعته المنصفة — أن يتحدث عن نفسه وحدها ، فيفيض فيما نشره الإسلام على المدينة من أمن وسيادة ، ولكنه نظر إلى نفوسهم فعرف خوالجها المقنعة . ولمس نبضات الأفئدة وهمسات النوازع فعرف صدقها الصريح ، وصور ذلك حينما قال :

« يامعشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضللا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، قالوا بلى ، لله ورسوله المن والفضل ؟ فقال ألا تجيبوننى يامعشر الأنصار قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ فقال : أما والله ، لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا : فأسيناك ، وجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا سلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا^(١) .

هذه الكلمات المنصفة قد نزلت على القلوب نزول الغيث الدافق على المحل الظامىء ، فأخصبت الجديب ، وأنعشت الذاوى ، بل إن تيارها القوى قد دفع بالدمع إلى العيون ففاضت المحاجر ندما واستسلاما ، ولا أجد أروع ولا أبداع من براعة المقابلة المذهلة بين رجوع المهاجرين بالشاة والبعير ، ورجوع الأنصار برسول الله ﷺ .. وهى إحدى وثبات العبقرية فى خطابة الرسول . وكم لها من أمثال .



(١) زهرات مشورة للأستاذ عبد الله عفيفى ص ٩٨ .

موقف النبي من الشعر والشعراء

آفة الكتابة التزيد ، فقد تكون قضية من القضايا الأدبية أو العلمية واضحة النتيجة ، لا تتطلب الكثير من الإسهاب ، ولكن نفرا من الكتاب يطيلون القول في غير مقال ، فيضاعفون الشبهة الواهية حتى تتضخم ، ثم يقرنونها بغيرها ويقفون بذلك أمام أدلة قوية تتعارض معها ، وتدور معركة كبيرة في التأييد والتفنيد ، فيتسع القول على أصحابه ، وتمضى الأيام ، فيأتي من الكتاب من يتناول القضية عارضا مافيل من نقض وتأيد ، ومضيفا من استنتاجه مايميل برأى على رأى فيساعد على تضخيم الجدل وتعدد مناحيه . وتترايد النصوص والنقول لكثرة ماخاض الخائضون حتى تصبح القضية الواضحة في بادىء الأمر ذات غموض وتعقيد ، قد لفها غبار الجدل وكاد وجه الحقيقة معه أن يضيع .

لقد قال الرسول ﷺ « إن من الشعر لحكمة » ، وهى جملة صريحة يدل منطوقها الواضح على أن بين مايقول الشعراء ما يوصف بالحكمة ذات الرأى الصائب والسداد العاقل ، كما يدل مفهومها المتلمس على أن من بين مايقول الشعراء مالا يوصف بالحكمة ، بل يذهب مذهب اللغو والأباطيل من حث على اللهو وولوع بما حرم الله من القول ، وهذا هو الجانب البغيض من الشعر ، بل من القول ، شعرا كان أو نثرا فليست القضية فى ذلك قضية شعر بالذات .

فإذا تركت قول الرسول ﷺ « إن من الشعر لحكمة » واستمعت إلى قول الله ﷻ ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾^(١) « تجد الشعراء فريقين فريقا يهيم فى كل واد بالباطل يتبعهم الغواة من الفاسدين إذ يطلقون الكلام دون تحرز ، ثم يقولون مالا يفعلون وفريقا

(١) الشعراء الآيات من ٢٢٤ : ٢٢٧ .

من الذين آمنوا وعملوا الصالحات جاء شعرهم مهتديا بنور الإيمان ، إذ يذكرون الله كثيرا فإذا تطرقوا للهجاء ، فليس هجاء البادىء المتعرض ولكنه دفاع عن ظلم نزل ، إذ انتصروا لأنفسهم ممن تناولوهم بالسباب بغيا دون عدل . »

فالحديث النبوى والآية القرآنية واضحان صريحان فى تحييد اتجاه عاقل ، ومعارضة اتجاه سفيه . هذه الصراحة الواضحة لاتدعو إلى أن نشن الغارة على الشعر قاطبة بدليل أن الشعراء يتبعهم الغاوون .

ولكن الذين تحدثوا عن موقف الرسول من الشعر ، لم يحسموا الأمر حسما واضحا يقطع كل شىء . ولكنهم تعارضوا وتناقضوا ، وأخذ كل ببعض الأدلة النقلية يرمى بها فى وجه صاحبه ، ولم تكن المعركة بين الأدباء وحدهم ، إذ لو اقتصر على ناقدى الأدب لبان وجه الحق من أقرب طريق ، ولكنها انتقلت إلى رجال التفسير تعقبا على آيات القرآن . وإلى رجال الحديث استنباطا من بعض الآثار وإلى رجال السيرة تعليقا على بعض المواقف . وفى هؤلاء المتزمت المتشدد ، والمستنبط اليقظ الميسر ، فدارت الرحى بين الفريقين ، وهى بعد حرب فى غير ميدان . ومازال الخلاف قائما حتى يومنا هذا ، إذ أن المغفور له الأستاذ فكرى يس قد كتب تفسيرا بمجلة الأزهر لحديث رسول الله « إن من الشعر لحكمة » فقال فيما يقال :^(١)

« ويتلخص ماقاله العلماء فى حكم الشعر فى الإسلام فى مذهبين ، فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقا ، قليله وكثيره ، حسنه وقبيحه — واحتجوا بأثار رواها الأستاذ ، وستعرض لها فيما بعد — وذهب قوم إلى إباحة الشعر مالم يكن فيه فحش أو هجو أو إغراق فى المدح ، أو كذب محض أو تغزل بمعين . »
هذا الكلام عن انقسام العلماء إلى مذهبين فى حكم الشعر فى الإسلام .

(١) مجلة الأزهر السنة الحادية والعشرون ص ٢٩٧ .

ماكان يجب أن يبقى على وضعه هكذا ، بعد أن درست النصوص النبوية والآيات القرآنية ، ومواقف الرسول في سيرته دراسة توجب لنا أن نحكم ببطلان رأى ، وبصحة رأى آخر ، بحيث لم يعد مجال للقول بأن هناك رأيين ؟ وفيهم تسجيل ذلك ، والآثار بين أيدينا نوافق بما لا يحتمل الشك . ولنا أن نستعرض مختلف الآيات والأحاديث والمواقف النبوية استعراضا محللا فإذا رأينا أنها جميعا تسير في خط واحد لا في خطين متقابلين كان لنا أن نعلن أن رأى القرآن واحد في الشعر وأن موقف الرسول واحد من الشعر ؟ بحيث لا يكون هناك مجال بعد الآن للقول بكراهية الشعر قليلة وكثيره ، حسنه وقبيحه كما ذهب بعض الناس .

يقول الله تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ ويقول ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات وذكروا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾^(١) .

هاتان هما الآيتان اللتان يتمحل بهما القائلون بكراهية الشعر ، والآية الأولى رد على قول المشركين عن محمد أنه شاعر وأن ما أتى به شعر مما يقول الشعراء فهي مثل قول الله في سورة الحاقة ﴿ فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ . فهي لاتفيد كراهية الشعر . وإنما تربأ بالقرآن أن يكون شعرا من جنس مايقوله الشعراء . فالقرآن الذى تحدى الله فصحاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله لايسمو إليه مايقولونه من الشعر ، فقولهم إن محمدا شاعر فيما يتلو عليهم من الذكر يدحضه أن الله لم يعلمه الشعر الذى تنسبونه إليه ، وقد استنبط ابن رشيق من ذلك أن هذا النص القرآنى يوحى بتعظيم الشعر لابتحقيقه ، لأن القرآن بسرده المحكم قد ارتفع عن أجمل نسق تنيه به العرب من القول وهو الشعر ، فلولا أن الشعر مظنة التأثير

(١) الشعراء الآيات من ٢٢٤ : ٢٢٧ .

والإبداع مانسب هؤلاء الفصحاء قرآن محمد إليه ، يقول ابن رشيق في العمدة ^(١) :
« ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منشور وأن النبي ﷺ غير شاعر لقول الله تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ ويرى أنه قد أبلغ في الحجة وبلغ في المحجة ، والذي عليه في ذلك أكثر مما له ، لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أميا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة ، واشتهرت البلاغة آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازا للمتعاطين ، وجعله منشورا ليكون أظهر برهانا لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادرا على ما يحبه من الكلام ، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ، فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسيل ، وإعجازه الشعراء أشد برهانا ، ألا ترى كيف نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم فقالوا هو شاعر لما في قلوبهم من هبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه مالا يلحق ، والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال الله تعالى ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ أى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل .

أما الآية الثانية ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ فقد سبق أن أشرنا إلى أن تمامها يوحى بأن القوم فريقان فريق يخطب في الباطل ، وفريق يهتدى بالحق ، والشعراء ليسوا وحدثهم كذلك من أصحاب البيان ، فالخطباء والكتاب والقصاص ممن يجوز أن يلحقهم التقسيم لتنوع إنتاجهم بين الحق والضلال ، فلو جاز لنا أن نحكم بكراهية الشعر أصلا لأنحطاط بعض أغراضه لجاز لنا أن نحكم بكراهية جميع ألوان البيان لاتحاد العلة . ولا أظن عاقلا منصفًا يميل إلى ذلك ، وقد أفصح ابن رشيق عن وجه الآية حين قال مانصه : ^(١)

(١) العمدة ج ١ ص ١٢ .

« أما احتجاج من لا يقيم وجه الكلام بقوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ فهو غلط وسوء تأول لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك . ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ، ونبه عليهم فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يريد شعراء النبي ﷺ الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة » . هذا قول ابن رشيقي ، أما الجاحظ فقد أطلق القول دون تحديد إذ قال تعقيبا على الآية الكريمة « فمن الخصال التي ذمهم بها ، تكلف الصنعة ، والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ، ومناسبة أصحاب التشديق ، ومن كان كذلك كان أشد افتقارا من السامع إلى السامع إليه لشغفه أن يذكر في البلغاء ، وصيابه باللحاق بالشعراء ، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية وحب المحاربة ، ومن سخف هذا السخف وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة كانت حاله داعية إلى قول الزور والفخر بالكذب ^(١) . »

وكلام الجاحظ لا يحمل إلا على الفريق الأول ممن يهيمون في كل واد . على أنه لا يخص الشعراء وحدهم ، فخطباء الجاهلية كانوا يتفاخرون بلسان القبائل حبا للغلب والمباهاة وهم بذلك كالشعراء أشد افتقارا من السامع إلى السامع إليهم لشغفهم بادعاء الفصاحة وامتلاك البيان . وإذن فالذم لا يلحق فنا بعينه كالشعر أو أناسا بأعينهم كالشعراء ، وإنما يلحق كل قائل جمع فاشتط وهام في كل واد .

ونحن إذا انتقلنا من أدلة القرآن إلى أدلة الحديث ، لانجد إلا حديثا واحدا أولع به القائلون بكراهية الشعر ، وهو ما روى من قول رسول الله ﷺ عن أبي

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٢٩ ، ص ١٣ .

هريرة «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا فيريه ، خير له من أن يمتلىء شعرا » وقد ظل هذا القول يتردد في كتب الحديث هكذا ناقصا مبتورا حتى طبع كتاب الزركشي المسمى « بالإجابة لايراد مااستدرسته عائشة على الصحابة » فإذا فيه أن عائشة رضی الله عنها قالت مستدركة على الراوى « لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا ودما خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به » . وقد ذكر عبد القاهر حديث أبي هريرة ناقصا في دلائل الإعجاز فعلق عليه السيد محمد رشيد رضا بقوله في أحد هوامشه ص ١٣ .

وفي رواية ابن عدى عن جابر « لأن يمتلىء جوف الرجل قيحا أو دما خير له من أن يمتلىء شعرا مما هجيت به » فانفقت روايتا عائشة وابن عدى على تصحيح مقاله أبو هريرة ، وسقط بذلك الدليل الوحيد من قول الرسول على كراهية الشعر مما استند إليه مبغضوه ، وقد كان محمد ﷺ من رقة الإحساس ونبل الشعور بحيث يبغض كل هجاء ظالم وجه إليه أو لغيره فليست الكراهة لديه نزعة ذاتية تخص مقاله المشركون في هجائه ظلما بل تشمل كل هجاء ظالم ، وقد روى الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز حديث محمد بن مسلمة الأنصارى إذ قال : « كنا يوما عند النبي ﷺ فقال لحسان بن ثابت أنشدنى قصيدة من شعر الجاهلية فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايتها فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت إلى عامر
الناقض الأوتار والواتر

فقال النبي ﷺ : يا حسان لاتعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا ، فقال : يا رسول الله تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟ فقال النبي ﷺ : « يا حسان أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عنى فتناول منى — وفى خبر آخر فشعت منى — وإنه سأل هذا عنى فأحسن القول^(١) » فالرسول ينبه حسانا فى رفق ألا ينشد هجاء فيمن أظهر فى

(١) دلائل الإعجاز ص ١٦ . وقد خرج السيد رشيد الحديث بهامشه .

بعض مواقفه صدق الحديث ونزاهة الضمير .

أما الأحاديث التي رويت عن رسول الله في تحبيذ الشعر فإنها إذا ضمت إلى مواقفه المتعددة من الشعراء لعهد أفصح عن موقفه المؤيد لكل ما سلك سبيل الحق من الشعر ، ودلت على مكانة هذا الفن من نفسه ، وشعوره القوى برسالته القادرة في التأثير والاستمالة والإقناع .

فحين بدأ شعراء الشرك حملتهم على المسلمين إذ انطلق عبد الله بن الزبير وعمرو بن العاص وأبو سفيان بن الحارث يهجون الرسول ويذمون الإسلام جمع محمد الأنصار وقال فيهم :

« ما يمنع الذين نصروا الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ، فنهض حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة لمناقضة هؤلاء الطاعنين الهاجين ، وليس في ذلك خروج عن سنن الإسلام لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وقد ظلم المسلمون حين قام شعراء الشرك بدعائهم المسمومة ضدهم ، وليس شيء أشهر ذكرا ولا أمضى سيرا من الشعر ، فكان من حق الدعوة الجديدة أن ينافح عنها قادة الشعر بما يرد على المشركين كيدهم ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ .

أقام الرسول منبرا لحسان وأمره أن ينشد في الدفاع عن دينه ، وكان حسان أشد زملائه عارضة ، وأقوى المسلمين بيانا ، فأخذ يترصد كل ما يقوله شعراء مكة ليأتى على بنيانه من القواعد ، فإذا بكى ابن الزبير صرعى بدر من المشركين ناقضه ابن ثابت بقصيدة من الوزن والقافية ، وإذا شمت ابن الزبير بالمسلمين بعد أحد لم ينس أن يعرض بحسان فيقول في قصيدة :

ياغراب البين أسمعت فقل إنما تنطق شيئا قد فعل
أبلغا حسان عنى آية فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

فيرد عليه حسان مناقضا بقوله من قصيدة طويلة :

نزلت بابن الزبيرى ضربة
ولقد نلتم وثلنا منكم
كان منا الفضل فيها لو عدل
وكذلك الحرب أحيانا دول

وإذا قدمت الوفود مفاخرة رسول الله وقام الزبيرقان بن بدر يقول فى
قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا
بعث رسول الله إلى حسان فيأتى عجلا ليرد بقصيدته :
من الملوك وفينا تنصب البيع
إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

قال الشعبى « لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا
خييرا قال النبى ﷺ من يحمى أعراض المسلمين فقال كعب بن مالك أنا
يارسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة أنا يارسول الله ، وقال حسان بن ثابت أنا
يارسول الله فقال نعم اهجهم أنت فإنه سيعينك عليهم روح القدس^(١) .

كما أن رسول الله لم يترك حسانا لمعرفة الضئيلة بمثالب المشركين فتأتى
نقائضه واهية ضعيفة ، فعهد إلى أبى بكر العالم النسابة أن يحدثه حديث القوم
وأيامهم وأحسابهم ، فملاً وطابه من كل ذلك ، وجاء شعره قاسيا قارصا ،
فكانت قريش إذا أنشدت شعره قالت « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى
قحافة » وكان محمد يطيل الاستماع إليه ثم يقول « لهو أشد عليهم من وقع
النبيل ، وروى أنه قال أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن
مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى^(٢) ، ونظرا لمكانة
حسان من الدعوة كان حين يقع فى هنات مخطئة يجد الصفح السريع من
رسول الله ، فلو قام غيره مقامه فى حادث الإفك ما وجد الصفح السريع من

(١) دراسات فى الأدب الإسلامى ص ٥٦

(٢) دراسات فى الأدب الإسلامى ص ٣٥ للأستاذ محمد خلف الله .

رسول الله كما وجدته حسان . وأخرى زلت بها قدمه إذ جمحت به أنصاريته
فجلس مع أصحاب له فوق بساط على أطمه فارغ متضايقا لكثرة من يأتي النبي
من العرب فيسلمون ثم يضيع في غمارهم الأنصار كما توهم ، وكان مما قال
في ذلك :

أمسى الخلايبس قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضه البلد

فبلغ ذلك محمدا صلّى الله عليه وآله فقال متضايقا : من لي بأصحاب البساط بفارغ :
وعلم حسان بتضايق رسول الله فجاء نادما يستغفر إليه ، فأعرض عنه مرتين حتى
جاء الثالثة يحمله أصحابه فقال يارسول الله بأبي أنت وأمي . احفظ قولي :

هجوت محمدا فأحبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فرضى عنه رسول الله ، ووهب له سيرين أخت مارية^(١) ، ولولا ما أسلفه من
جميل الدفاع ماسارع النبي بالعفو . بل إنه صلّى الله عليه وآله يوم فتح مكة أمر الزبير بن
العوام أن يدخلها مع بعض الجنود من كداء وسئل في ذلك فأجاب تحقيقا
لقول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موقعها كداء
والكلام عن حسان يطول إذا أرخيناه ، فلنكتف بما أسلفناه .

أما ابن رواحة فقد كان الرسول يستشهد بشعره ويردد أراجيزه ، وكان
يصغى إلى كعب بن مالك مثنيا عليه بالجميل ، وثلاثتهم مسلمون كرام من
الأنصار . فاحتفاء الرسول بهم مما توحىه طبائع الأشياء . ولكن احتفاءه صلّى الله عليه وآله
بغيرهم من الشعراء ، لا لشيء إلا لكونهم شعراء فقط مما ينفعنا في هذا الصدد
وإليكم الأمثلة :

١ — كان أبو عزة الجمحي الشاعر مملقا مقترا ، وذا عيال أطفال ، وقد أسر
في بدر كافرا فأتى رسول الله واستشفعه بأبيات قال فيها :

(٣) المصدر السابق ص ٥٤

ألا أبلغنا عنى النبى محمدا
وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى
بأنك حق والملـيك حميد
عليك من الله الكريـم شهيد
فعفا عنه وأطلقه . وغفر له ما سلف .

٢ — وكان قيس بن الحطيم شاعر الخزرج مقيما على الشرك بالمدينة وقد أسلمت امرأته (قبل أن ينزل تحريم نكاح المشركين للمسلمات) فقال له النبى إن امرأتك قد أسلمت ولا أحب أن تؤذيها ، فقال قيس نعم يا أبا القاسم لست بعائد فى شىء تكرهه واكتفى الرسول بعهدة دون أن يرهقه بما هو أكثر تجلة لمكانته الشعرية .

٣ — أتعب ابن الزبير نفسه فى هجاء المسلمين يمكة ثم جاء بعد الفتح نادما ضارعا يقول :

يارسول الملـيك إن لسانى راتق ما فتقت إذا أنا بور
آمين اللحم والعظام بما قلت فنفسى الفدا وأنت النذير
فعفا عنه الرسول وصان دمه بعد أن سرت أهاجيه فى الآفاق .

٤ — أما أمية بن أبى الصلت فقد حسد الرسول ونابذه العدا ونزل فيه قول الله ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شعنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ .. وما زال يهجو محمدا ويرثى قتلى بدر .. ومع هذا فقد كان الرسول يستنشد شعره ، ويقول آمن لسانه وكفر قلبه ، وفى رواية البخارى وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم بل إن الرسول قد استشهد بقوله :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبـد لك لا أـمـا
ولو كان يكره الشعر لذات الشعر لأعرض عن شعر أمية على الأقل وهو
حاقده اللدود .

٥ — لما قتل النضر بن الحارث يوم بدر ، رثته أخته قتيلة بقصيدتها الشهيرة :

ياراكبنا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفسق
وبها عتاب كريم لمحمد ، فبلغه صلى الله عليه فسمعها متأثرا ثم قال : لو جاءت قبل
مقتله ما قتل .

٦ — أما قصيدة بانث سعاد لكعب بن زهير ، ففي غير حاجة إلى التنويه
بها ، إذ بلغت مبلغها من نفس محمد ، ونادى الأنصار لاستماعها ثم من عليه
ومنحه بردته الشريفة في قصة تطول ، فكانت مصدر فخره في الحياة ، ومنبع
ثراء أسرته بعد الوفاة إذ اشتراها معاوية بمال كثير . وأما إمام محمد بقصائد
الشعر فقد تحدث عنه الرواة بما يؤكد التفاته إلى القريض التفات اليقظ
الدارس ، والأخبار في ذلك مستفيضة ذائعة ، ولكننا نقل من ذلك عن دلائل
الإعجاز وحده مايقع موقع الاستدلال ، وسواه كثير كثير .

لاريب أن أفصح الفصحاء قد ركب في طبعه تمييز جيد القول من رديئه ،
فهو إذا استمع إلى — كلام ما — عرف مواضع الارتقاء ، ومزالق الهبوط فيما
يسمع ، والشعر لا يعدو أن يكون بيانا عربيا يعرفه الفصيح ويتابعه راصدا مواضع
الجودة ، ومساقط الزلل ، وقول الرسول عن نشأته الأولى قبل البعثة أن الشعر
كان مبغضا إليه ، لايعنى إلا أن نظمه كان مما يعاف لديه إذ يجد فاصلا شاسعا
بينه وبين مزاولته ، وتلك آية المعجزة في نشأته ، لأن الله قد صرفه عن ولوج
هذا الباب لما يعلم من إعداده الخاص لإبلاغ كتاب سماوى يشتهه على الناس
بالشعر وليس به فإذا قالوا — فيما بعد — إنه شاعر فلن يجدوا من سابق حياته
مايؤيد زعمهم في شيء ، وإذا كان شعر الجاهلية قد جمع الخبيث والطيب ،
فإن صاحب الدعوة الكبرى إلى تطهير النفوس لن يقبل شعر الهجاء والمثالب ،
وإنما يميل إلى استماع نمط من البيان يترفع عما يؤذى الخلق ، وينال الكرامة ،
وفى الآثار عن رسول الله ما يدل على إمامه الكثير بطرائف الشعر ، وأقوال
الشعراء مما يندرج في هذا النطاق ، وإلى بعضها نشير :

١ - حين شحت السماء ذات ربيع وصلى محمد صلاة الاستسقاء ، داعيا ربه ، لم يكذب يفرغ من دعائه حتى تدفق المطر كأفواه القرب ، وكانت السماء قبل ذلك صحوا ماترى بها قزعة ، فنظر رسول الله إلى أبى بكر وسأله مبتسما ماذا قال الشيخ ؟ يريد أبا طالب فأنشده أبو بكر قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه شمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

٢ - ولما انتهت معركة بدر نظر رسول الله ﷺ إلى قتلى المشركين مصرعين فقال لأبى بكر رضى الله عنه : لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأماثل ، مشيرا عليه السلام إلى قول أبى طالب :

وأنا لعمر الله إن جد مأرى اتلتبسنا أسيافنا بالأماثل
وينهض قوم فى الحديد إليكم نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

٣ - أنشدت سودة بنت زمعة قول الشاعر « عدى وتيم تبتغى من تحالف » فغضبت عائشة لأنها من عدى وطلال جدال بينهن ، فأخبر النبي ﷺ فدخل عليهن قائلا « يا ويلكن ليس فى عديكن ولا تيمكن قيل هذا ، وإنما قيل فى عدى تميم وتيم تميم ، قال عبد القاهر وتمام هذا الشعر :

فحالف ولا والله تهبط تلعة من الأرض إلا أنت للذل عارف
ألا من رأى العبدین أو ذكراله عدى وتيم تبتغى من تحالف

٤ - وروى الزبير بن بكار قال مر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر رضى الله عنه فسمع رجلا ينشد فى بعض أزقة مكة :

يأيهما الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الـمدار

فقال النبي يا أبا بكر ، أهكذا قال الشاعر ؟ قال لا يارسول الله ولكنه قال :

يأيهما الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف

فقال ﷺ هكذا كنا نسمعها .

فلا مجال للنزاع بعد ذلك في أن نبي الإسلام قد سمع الشعر ووعاه وحكم عليه ، بعد أن استفاضت في ذلك الأقاويل وكثر الاستشهاد .
ويسلمنا هذا الحديث إلى قضية أخرى بالغة الأهمية إذا استفاضت روايات مدخولة تنص على أن رسول الله ﷺ كان لا يقيم وزن الشعر حين ينشده ، فإذا أنشد مثلا قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
أنشده هكذا :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك من لم تزود بالأخبار
وإذا أنشد قول العباس بن مرادس :

أتجعل نهبي ونهيب العبيد بين عينيه والأقرع
أنشده هكذا :

أتجعل نهبي ونهيب العبيد بين الأقرع وعينه

تنص الروايات المدخولة على ذلك وأنا أقرأها فأتساءل ؟ أيكون أفصح خلق الله لسانا ، وأنصعهم بيانا غير قادر على إلقاء بيت من الشعر .. وهل قول الله ، ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي ﴾ ينصب على الإلقاء كما ينطبق على التأليف ، فيكون إنشاء الشعر سبيلا إلى تأليفه ثم هل كل راو للشعر ملم بصحة أوزانه وقوافيه شاعرا ينظم القصائد بمجرد روايته وحفظه . أسئلة تتوارد على ذهني دون أن تجد الإجابة المقنعة . والأنكى والأدهش أن يتخذ هذا الحصر الشائن دليلا على نبوة رسول معجزته الفصاحة والبيان ، وحجته المنطق واللسان ، هذه الروايات المدخولة التي تناقلها المؤلفون لاحقا عن سابق تدفعنا إلى مناقشتها بالدليل .

وأبادر فأعلن مقدما أنني أتحدث عن الإنشاد وحده أما تأليف الشعر فلا مجال للخلاف في تحريمه على النبي ، فأنا معترف بأن ماورد من مثل قوله :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله مالقيت

فإنما جرى ذلك على لسانه عفوا بادئا دون ارتصاد لنظمه أو احتشاد لصوغه . ونظيره في ذلك ماجاء بالقرآن من بعض الآيات التي يمكن أن تنسب إلى بحر من البحور دون أن تساق مساق الشعر بحال . فهي في موقعها من الكتاب الحكيم نثر صريح لا يأتيه الشعر من قريب أو بعيد ، كذلك ما جاء عفوا من كلام الرسول .

وقد أسلفنا القول بأن الرسول قد انصرف عن النظم كيلا يظن ظان أن كتاب الله شعر يتدفق على لسان شاعر ، فشاء الله أن يكون رسوله هاديا بخطبه وداعية إليه بأحاديثه فهو لا ينظم ولا ينمق ، إذ أن صاحب الدعوة في حاجة إلى توضيح مذهبه وإرشاد قومه ومناقشة خصومه ببيان واضح لا يجنح به الشعر عن الدقة والتحديد إلى المبالغة والإغراق ، ولا يميل به عن الواقع المشاهد إلى الخيال الشارد فإذا كان في كلامه تأثير أخاذ فهو تأثير الحق الأبلج والمنطق السديد ، واللفظ المحكم ، وليس تأثير القافية الخلافة ، والبحر الصادح ، ولانعنى بذلك أن نثر محمد ﷺ بعيد عن التأثير الوجداني ، والإيقاع الموسيقي بل نقول إن الشعر ميدان ذلك وموضوعه فصاحبه غير مطالب في أكثر أحواله بالتزام التدقيق . تلك مشيئة الله في بُعد محمد ﷺ عن نغم القصائد ورنين الأوزان ، ولكن مامشيئته في أن يكون رسوله غير قادر على إنشاد بيت من الشعر قاله شاعر سواه :

(١)

لنسمع مايقوله الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي في تعليل ذلك :

(والذي عندنا أنه ﷺ لم يمنع إقامة وزن الشعر في إنشاده ، إلا لأنه منع من إنشائه ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه الفطرة القوية فمر في الإنشاد وخرج بذلك لامحالة إلى القول والاتساع وإلى أن يكون شاعرا ، ولو

(١) إعجاز القرآن ص ٣٤٢ .

كان شاعرا لذهب لمذاهب العرب التي تبعته عليها طبيعة أرضهم ثم لا يكون من جملة إلا أن ينصرف عن الدعوة و عما هو أزكى بالنبوة ، وأشبهه بفضائل القرآن ، لأنه تعالى يعلم من غيب المصلحة لعباده أنه ﷺ لو أقام وزن بيت ، لمال به عمود الدين ثم لتصدع له الأساس الاجتماعي العظيم الذي جاء به القرآن .

وكلام الأستاذ الرافعي — رحمه الله — هو لباب مايقوله رفقاؤه ممن يذهبون إلى عدم استقامة الإنشاد على لسان الرسول ، وقد حرصنا أن نقل عنه دون غيره لأنه أفصح بيانا من سواه ، ونحن نعجب كل العجب لقوله إن إلقاء بيت صحيح أدعى إلى نظم مثله لأننا نرى من كبار أساتذة الأدب في أرقى كلياته ومعاهده من ينشدون آلاف الآيات الصحيحة فضلا عن حفظها ثم لا يستطيعون أن ينظموا بيتا واحدا من الشعر ، فكيف يكون إنشاد البيت الصحيح مدعاة للنظم الصحيح ، وكيف يقول الكاتب البليغ أن الرسول لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين ، إذ ينصرف إلى الشعر تاركاً ماعده ، هذا أبو بكر كان راوية شعر ، وهذا عمر كان ناقدا يوازن بين الشعراء فما شغلهم ذلك عن إقامة دولة إسلامية في بلاد الفرس والروم ذات أمجاد وفتوح . ألا تعجب لرسول الله أن تحضر مجلسه وفود العرب من شتى القبائل ونازح الأصقاع فيحدثها أفصح حديث وأشهاه ، ثم يستشهد بيت شهير لطرفة مثلا فيخرج على لسانه مختل الأجزاء مضطرب الألفاظ ، وهل سيصدق هؤلاء — وفيهم أعداؤه — أنه يكسر البيت كيلا يقدر على نظم مثله فيصير شاعرا ، وهم يرون خطباءهم يرمون بالخطب الطوال ، ويستشهدون بأبيات تؤكد معانيها وأغراضها ، فلا يلحقهم هذا الاستشهاد الصحيح بطوائف الشعراء ، إن مدرس المرحلة الابتدائية يستمع إلى طفل صغير يلقي قطعة من المحفوظات فيتقزز ويتضايق حين يجده يبذل لفظا مكان لفظ ، وهو بعد طفل ، فماذا يكون شعور القادمين من وفود القبائل ، إذ يرون أفصح البلغاء لا يقيم بيتا في إنشاده . لو صح ماتقوله هذه الروايات .

على أن عبد القاهر قد لجأ في هذا المأزق إلى تعليل غير تعليل الرافعي فقال: ^(١)

« ويبقى أن يعلم أن ليس المنع في ذلك منع تنزيه وكرهة بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب في أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت في الخط ، بل لأن تكون الحجة أبهى ، وأقهر والدلالة أقوى وأظهر ولتكون أعكم للجاحد ، وأقمع للمعانَد » ونحن نفهم أن تكون الحجة أبهى وأقهر والدلالة أقوى وأظهر إذا كان الرسول غير شاعر ، وجاء بما أعجز الشعراء ، ولكن أية حجة في أن يكسر البيت فيلحقه من سامعيه ما يشين . لا عيب عند العرب إطلاقاً — ولا عند غيرهم — ألا تكون شاعراً . فالشعراء قلة بين من سواهم في كل زمان ولكن العيب كل العيب أن تنطق بيتاً من الشعر فلا تقيمه وأنت رجل كسائر الرجال فكيف إذا كنت أفصح البلغاء . أمثال الذين يحرصون على نسبة ذلك إلى الرسول يتعبدون بالروايات المنقولة دون تمحيص .

لقد رأينا كتب السيرة تجمع على أن رسول الله قد أنشد أبيات صحيحة من الرجز لعبد الله بن رواحة يوم الخندق ، فماذا يصنع المنكرون في هذا الإجماع لنسمع الأستاذ الرافعي يقول في كتابه السالف: ^(٢)

« إن الرجز في أصله ليس بشعر ، وإنما هو وزن السجع ، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب يتراجزون به في أعمالهم ، وفي لعبهم ، وفي سوقهم ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء » .

ونحن نعلم أن الرأي الغالب بين العلماء أن الرجز بحر من بحور الشعر فإذا

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٢ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٤ .

مال الأستاذ الرافعى إلى عده من غير الشعر فلنأخذ من قوله حجة عليه ولنقل له : لقد أنشد رسول الله رجزا بن رواحة إنشادا صحيحا أكثر من مرة فلماذا لم يكن إنشاد الرجز سبيلا إلى نظمه حتى يتخوف من إنشاد الشعر الصحيح ، ولماذا لم يقل أعداؤه من كفار العرب أنه عليه السلام صار رجازا لأنه أنشد أبياتا صحيحة من الرجز دون كسر واعوجاج لقد روى البخارى ومسلم أبيات ابن رواحة ، ونقلها ابن كثير فى البداية والنهاية^(١) ، فهل نجد بعد ذلك مبررا للفرق بين الرجز والشعر عند المانعين .

لقد وقع هؤلاء المنكرون فى مأزق حرج حين وجدوا الرسول يقول أصدق كلمة قالها ليبيد :

« ألا كل شيء ما خلا الله باطل » فهبوا ينتحلون المبررات ويزعمون أن ذلك ليس شعرا ، لماذا ؟ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكمل البيت . وإذن فقد تحول الشطر المظلوم من الشعر إلى النثر دون إمهال ، مع أن من يسمعه منفصلا عن عجزه يعلم أنه شطر تام من بيت شعري شهير ، فهو شعر لامحالة ، ونحن نستشهد فى مقالاتنا وخطبنا بأشطار من الأبيات تجرى مجرى الأمثال بل نستشهد أحيانا ببعض الشطر لأكله ، فلا يمنع ذلك أحدا أن يقول إنه استشهد بالشعر وهبنى قلت فى كلمة ما « وإما الأمم الأخلاق » فقط أفلا يطير ذهن القارئ إلى شوقى مدركا أنى استشهدت بشعره . إنما يكون الشطر الواحد غير شعر إذا أنشأه المتكلم إنشاء فى حديثه عن غير قصد فجرى على لسانه موزونا كما جاء الوزن عفوا فى بعض آيات القرآن ، هنا نقول بحق : هذا ليس بشعر ، أما أن نقول ذلك عن شطر طائر الصيت تتناقله الألسن عن ليبيد فذلك ما لا يستقيم .

إن الحديث عن سلامة الشعر المنشد على لسان رسول الله حديث عن تمام فصاحته وكمال بلاغته وهما فى غير حاجة إلى تدليل .

(١) ج ٤ ص ٩٦ .

The first thing I noticed when I stepped out of the car was the cold. It wasn't just the temperature, but the way the air felt like a heavy blanket. I had heard that the weather in the mountains was unpredictable, but this was something else. The sun was shining brightly, yet the ground felt like it was made of ice. I took a deep breath, trying to get used to the altitude. The air was thin, and I could feel my lungs working harder than ever before. I had never been to a place like this before, and it was both exciting and terrifying.

As I walked towards the lodge, I noticed the other guests. They were all looking at each other with a mix of curiosity and concern. Some were talking in hushed tones, while others were just staring. I felt a bit out of place, but I tried to ignore their reactions. I was here for a reason, and I was going to make the most of it.

The lodge was a beautiful building, built with local stone and wood. It had a warm, rustic feel that I appreciated. The staff was friendly and helpful, and they showed me to my room. The room was simple but comfortable, with a view of the mountains. I had heard that the views were amazing, and I was not disappointed. The mountains were majestic and beautiful, with snow-capped peaks and dense forests. I had never seen anything like this before, and it was truly breathtaking. I had come here to escape the city, and I was finally getting what I needed. The air was clean, the views were stunning, and the people were nice. It was exactly what I needed to recharge my batteries and get back to work.

I had heard that the weather was unpredictable, and I was not wrong. The sun was shining, but the clouds were gathering. I had to get ready to leave the lodge. I packed my things quickly and headed back to the car. The weather was still beautiful, but I knew I had to be prepared for anything.

My name is

رسائل محمد ونصوص معاهداته

(١)

تروى كتب السيرة والحديث والتاريخ أكثر من أربعين وثيقة نبوية ما بين رسالة إلى ملك أو أمير أو قائد وما بين معاهدة صلح أو أمان أو اتفاق على مسائل ينحسم بها النزاع ، وورود هذه الرسائل والمعاهدات مما أيده مواقف حياته صلى الله عليه وسلم وتطلبت ظروف دعوته . ولكن آفة الشك التي تمكنت من بعض النفوس ، دفعت قليلا من الكتاب إلى الارتباب في بعضها . والشك مبدأ مقرر في أصول البحث العلمى إن ظهرت دواعيه . وبه يهتدى إلى اليقين لا محالة ، ولكن تعمد الشك لوجه الشك دون مبرر قوى مما يحدث بلبلة خطيرة تكاد تعصف ببعض حقائق التاريخ ، ولعلنا نستطيع أن نجتث في هذا العجالة بعض الأشواك التي نجمت حول رسائل محمد ونصوص معاهداته إذا استعرضنا ملابسات العصر النبوى ومناحيه . لنرى فى ضوء ذلك إذا كان مابقى لدينا من الرسائل النبوية ، والمعاهدات التاريخية مما توجهه طبيعة العصر أو أنه مما تزعزع هبات الشكوك بين الحين والحين .

ولقد كانت الرسائل الكتابية معروفة عند العرب قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم لوجود دواعيها من التجارة والرحلة والزراعة وعقود التحالف فإن جميع العرب لم يكونوا كما وقر فى كثير من الأذهان نزحا متقاطعين لا يتواصلون ولا يتعاهدون ، ولم يكونوا جميعا بدوا رحلا لا يميلون إلى الاستقرار الهادى ، ولم تكن جميع بلادهم صحراء جرداء لانبات فيها ولا ماء . فإذا تركنا إمارتى الحيرة وغسان لاشتهار حضارتيهما فإننا نعلن أن بعض قرى الحجاز غلبت عليها الزراعة ، وانتقلت إليها آلاتها الحديثة مما جاورها من الأقطار . وإن كثيرا من القبائل قد توطن فى أماكن خاصة لا يتعدها ، ولا يسمح لغيره من القبائل باحتلالها إلا إذا كان ذلك عنوة عن طريق الحرب كما تتعدى الآن دولة على

دولة دون حق مشروع ، وأن القبيلة في موطنها الخاص تعرف أماكن الخصب والجذب في مدار العام فتنتقل في حدودها المعلومة إلى مايفىء عليها الخير مبتغية مساقط الغيث ، ومنابت العشب مربعا ومصيفا في موطن واضح المعالم والرسوم . ولها مع غيرها من القبائل المجاورات معاهدات مكتوبة واجبة التنفيذ وقد تلح السنون بالجذب فتضطر القبيلة إلى الرحيل مكرهة غير راضية ثم لاتلبث أن تعود أدراجها إلى مكانها الأول ، ومن هنا كان مانعلمه من عدم الاستقرار المكاني في البداية ليس أمرا عاما تخضع له الكثرة الكاثرة ، وإنما هو نصيب القلة ممن لم تساعدهم حظوظهم على الاستقرار ، لذلك نجد مؤرخي القبائل يحددون أماكنها المتعارفة ، فطىء مثلا تسكن ما بين جبلى أجا وسلمى ، وبنو أسد باليمامة والأزد بعمان ، وعاملة وكلب وحدام ببادية الشام ، وقضاة في شمال الحجاز ، وجهينة وعذرة بوادى أحم بالحجاز ، وتميم ببادية البصرة ، وهذيل خلف جبال مكة ، وكنانة في جنوب الحجاز ، وقيس عيلان بالجزء الغربي من نجد ومنها فروع غطفان وعيس وذبيان ، وكندة في حضرموت ، وهكذا نجد لأكثر القبائل أمكنة محددة تساعدها على الاستقرار وتتيح لها أن تنتج وأن تبيع وأن تشتري وأن تتعاقد شقويا وكتايا ، ولها بعد ذلك مراعها وخيامها وآبارها وحيواناتها لا ينازعها منازع إلا إذا أراد الحرب فتهب الجماعة فادية حماها أن يستباح . أما التجارة فقد كانت الجزيرة العربية إحدى طرقها الدائمة ، وقد فتحت على العرب أبواب الرزق فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من اعتداء الآخرين نظير جعل يأخذونه وكان الحجازيون بالذات يشترون السلع من اليمن والحبشة ثم يبيعونها في أسواق مصر والشام وفارس وقد اتخذوا مكة قاعدة لتجارتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شئونهم لأنها تقع في منتصف الطريق ولأنها تضم الكعبة التي يدين بها العرب ويقدمونها وكان المكيون آمنين في رحلاتهم لأنهم أهل حرم الله ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾^(١)

(١) معجم الإسلام ص ١٧

لهذا كله نشأت الكتابة قبل الإسلام في الحجاز لأنها من ألزم الأمور للتجارة إذ كان التاجر يجمع من أفراد القبيلة الواحدة ما يمكن أن تسير به قافلة كبيرة . ولا بد أن يعرف نصيب كل فرد ، وأن يلم بحظه من الربح أو الخسارة . فإذا تركنا التجارة إلى الأمور السياسية فإننا نجد المعاهدات والمحالقات تسجل في المهارق ، وإذا حام بعض الشك لدى المتزمتين عن معاهدات مثل حلف الفضول ، وحلف ذى المجاز فإن أشدهم إنكارا لن يحوم شكه حول صحيفة المقاطعة بين قريش وبنى هاشم حين كتبت وعلقت بالكعبة . ومن أوضح الدلائل على شيوع الكتابة بمكة أن أسرى بدر قد فدوا أنفسهم بأن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار كيف يكتبون ، وأن الله عز وجل حين قال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ۗ ﴾ إنما أمر بذلك لأن الكتابة من الذبوع واليسر بحيث تكون مجالا ميسرا للتعاقد فدعا إليها الإسلام .. وإذا كان مؤرخو السيرة النبوية قد أحصوا كتاب الرسول فبلغوا بهم خمسة وأربعين كاتباً في كثير من الروايات ، منهم من اختص بكتابة الوحي مثل عثمان بن عفان ، وعلى بن أبي طالب فإن غابا فأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومنهم من كان يكتب الحوائج كخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومنهم من كان يكتب للملوك كعبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت مع إشراكه في كتابة الوحي ، ومن كان يكتب المغانم كعميقب بن أبي فاطمة ، ومن كان يكتب أموال الصدقات مثل الزبير بن العوام وجهم بن الصلت^(١) . وقد وجد هؤلاء جميعاً ووجدت بعد ذلك نصوص رسائلهم المكتوبة فما وجه الشك فيها ؟ لقد شاءت الأقدار أن يسلم على مدى العصور ثلاثة أصول خطية مما أرسله محمد ، منها كتابه إلى المقوقس ، وقد وجدته المستشرق الفرنسي بارتلمي في كنيسة قرب أخميم ، وكتابه إلى المنذر بن ساوى وقد نشره

(١) الوزراء والكتاب ص ١٢ .

المستشرق بلايشير ، وكتابه إلى النجاشي وقد نشره المستشرق دنلوب^(١) ،
وبمقارنة الأصول على ما روته كتب السيرة والحديث لم نر فارقا جلا يلتفت
إليه ، فنصوص الوثائق النبوية إذن جبهة ذائعة تعصف بما يخفت حولها من
الشكوك ولنا أن نتعرض إلى الحديث عن طابعها الأدبي مطمئنين .

إذا نظرنا لما بقى بين أيدينا من رسائله ﷺ ومعاهداته نجد أنه يتفق كل
الاتفاق مع ماشاع من تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع
فصاحته ، فجل هذا النصوص بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل في أمر يجب
الاتفاق عليه ، فليس مجالها مجال أدب ترفده العاطفة ويوشيه الخيال ولكنها
شروط محددة تلتزم الدقة البالغة في التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه
الحقيقي إلى صورة خيالية تكون فيما بعد ماثرا للخلاف ، والذين يوازنون بين
خطب الرسول وأحاديثه ، وبين رسائله فيرون الثانية من حيث البهاء الجمالي في
موضع أقل من سابقتها فيأخذون ذلك عليها ، يخطئون تقدير الأمر ومقتضيات
الأحوال لأن محمدا في خطبه وأحاديثه يعمد إلى الإقناع بالفكرة الصائبة ،
والصورة الأدبية المطبوعة ، فالمجال مجال أدب يرضى الوجدان والعقل معا ،
ومن هنا ظهرت بدائع البيان الفني في الخطب والأحاديث ، أما الرسائل
والمعاهدات فجلها شروط سياسية رسمية تلتزم نصوصها وتكون حجة لدى
النزاع ، فكل توشية خيالية فيها تنافي التحديد الواجب ، وتجيد عن مقتضى
الحال إلى غير مقتضى الحال ، وبهذا الوضع الدقيق المجرد تقوم برسالتها
المنشودة على نحو لا يقوم به سواها في شيء ، فنحن نرى الآن أساطين البلغاء
من رجال القانون أو السياسة يجتمعون اليوم الطويل حول دائرة مستديرة ليكتبوا
نصا واحدا في معاهدة أو مادة في قانون ، وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون عن
كل لفظ يشم منه غير المقصود ، ويتوهمون كل دلالة قريية أو بعيدة
لا يقصدونها ، ويمكن أن تستتبط من بعض الألفاظ فيسارعون إلى استبدال

(١) مجموعة الوثائق السياسية في عهد النبوة للدكتور الحيدرا بادي ص ٢٢ مع نشأة الكتابة الفنية في
الأدب العربي للدكتور حسين نصار ص ٣٥ .

غيرها بها ، ليأتي الكلام دقيقا لاتساهل معه ، صريحا لاشيء وراءه ، فإذا كتبوا المادة القانونية أو النص السياسي في معاهدة فلن يقال عنه أنه حقائق مجردة لاتترقق في أعطافها صور البيان . ولن يخرجهم أسلوبهم الدقيق عن دائرة الأدب الرسمي ، وإن برزوا بعد ذلك بما يكتبون خارج النطاق القانوني والسياسي من أدب فني .. وما مثل معاهدات رسول الله ورسائله إلى الملوك وشيوخ القبائل إلا مثل هذه المواد التي يسطرها القانونيون والنصوص التي يملئها الدبلوماسيون ؟ فهل يجوز في منطق العقل أن تكون نصوص أدب فني حتى تقاس بالخطب والأحاديث . إن الحرص الشديد ، لدى أبلغ البلغاء على مراعاة مقتضى الحال ، جعل رسائله نوعا من الإبلاغ الرسمي يسد الحاجة في دقة وإحكام ، وهو بعد لا يغفل عقلية المرسل إليه ولا اتجاهه الديني ، ولا واقعه السياسي ، وذلك ما لا بد منه لدى الكاتب الحصيف ، الذي يتعمد إصابة الهدف في يقظة وإتقان .

لقد أرسل محمد صلى الله عليه وسلم بعض كتبه إلى النجاشي النصراني ، وإلى كسرى المجوسى ، وإلى ابني الجلندى الوثنيين . فخاطب كلا بما يجب أن يخاطب به ، عرف أن النجاشي كتابى يؤمن بالمسيح ومريم العذراء ، ولديه ثقافة دينية عن آدم وبدء الخليقة مما يقره الإسلام فكتب إليه في لباقة حصيفة ^(١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيفة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاتة على طاعته ، وأن تتبعنى بالذى جاءنى ، وقد بعثت معك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من

(١) أسد الغابة ج ١ ص ٦٢ .

المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجير ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى » وكان النجاشي في صميم ذاته مؤمنا ورعا قرأ الإنجيل الصحيح وترقب ظهور نبي بشر به المسيح ، فلما جاء كتاب الرسول شفى منه غليلا ففكر وقدر ثم أشرق نور الإسلام في قلبه فكتب إلى محمد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام ، أما بعد فقد بلغتني كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثغروفا إنه لكما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك بابني أرها بن أبجر فإني لأملك إلا نفسي وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله » .

وقد مات النجاشي مسلما وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب .

أما رسالته إلى كسرى ، فقد كان رسول الله يعلم تكبيره وصلفه ، ويعلم أن أقوى البراهين إقناعا لا يقابل منه بغير الغضب والاستعلاء . ولكنه ملزم بتبليغه ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ فلا بد أن تصل إليه رسالته فليجاهر إليه بدعوته ، وليسمعه شيئا من القرآن ، وليحمله وزر المجوس إن أبي ، كل ذلك في أسطر قليلة تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم

تسلم ، فإن آيت فعليك إثم المجوس ^(١) .

وقد تعالى الطاغية وتجبر فغضب ومزق الكتاب . وصاح في غيظ : يكتب إلى هذا وهو عبدى ، وأما ابنا الجلندى ملكا عمان ، فقد عرف الرسول وثنيتيها المظلمة ، وأن إنقاذهما بالسلم إن أمكن أو الحرب إن استدعى الأمر واجب لا محالة فأرسل إليهما يقول :

« من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلماتسلما ، فإني رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقرتما بالإسلام ولتيتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ^(٢) » .

فأجابا إلى الإسلام طائعين .

تلك ثلاث من رسائله وما بنا أن نسطر جميع ما لدينا من رسائله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل والمقوقس وأهل البحرين وصاحب اليمامة وغيرها مما جمعه الأستاذ أحمد زكى صفوت مشفوعا بمصادره فى الجزء الأول من جمهرة رسائل العرب ما بين صفحات ٢٥ ، ٩١ فإن الإشارة إلى مصادره تغنى عن ذكره ، ولكننا نجعل هذه الرسائل الثلاث أنموذجا للكتابة الديوانية النبوية كما يحلو لمؤرخى الأدب أن يقولوا فى حديث الرسائل . وتتجلى فيها الدقة وإصابة الهدف مع الإيجاز والوضوح واتحاد المطالع ، وقد يرى بعض الناقدىن أنها من الإيجاز بحيث لا تشرح قواعد الإسلام لقوم يجهلون . ونحن نرد على ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يختار حامل الرسالة من صفوة أصحابه ليستطيع أن يفصح عن دينه بما عرف من نبيه ، وفى قصة إسلام النجاشى ما يشير إلى نقاش طويل بين

(١) السيرة الحلية ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) السيرة الحلية ج ٣ ص ٣٧٤ .

النجاشي وجعفر بن أبي طالب من ناحية وبين جعفر ووفد الوثنية من قريش من ناحية ثانية حين بعثوا إلى الحبشة من يتعقب المسلمين هناك فردوا بغيظهم لم ينالوا شيئاً ، فلو أن الرسالة النبوية حملت بالبريد — على الرواحل حينذاك — دون مفسر شارح لأمكن أن تؤخذ الرسالة بالاختصار ، ولكن حاملها صحابي مختار يعتنق الإسلام عن حمية وإيمان وحسبه أن كان موضع ثقة الرسول في هذا المهم الخطير .

ولست أتخرج في شيء حين أستشف من هذه الرسائل حصافة الدبلوماسية المتزنة التي تجعل لكل حرف معناه . وأعني بالدبلوماسية السلوك السياسي الصحيح الذي يؤتمن على الكلمة ائماناً لا يتطرق إليه التزيد ، وليس ما أعنيه ماشاء عن بعض أساليب الدبلوماسية من الاحتيال والدهاء والتربص ، فذلك شيء تجحده الدبلوماسية النزهة في لبها الصميم ، ومن المعروف أن رسل محمد قد عادوا سالمين دون أن يقتل منهم أحد ، وأن هرقل والنجاشي والمقوقس قد ردوا جميلاً ، حتى توهم بعض المؤرخين أن هرقل قد أسلم وحسن إسلامه . أما الذي شد وتكبر فكسرى إذ كان يعاني هزيمة أليمة بعد حرب طاحنة مع هرقل رجع منها بالخذلان فمزق الخطاب وكلف عامله على اليمن بمعاينة محمد . وإن أكثر المستشرقين في دهشة من جرأة نبي الإسلام على مكاتبة رؤساء العالم دون تهيب ، ويعتدون ذلك مجازفة خطيرة كان من الممكن أن تتمخض عن أحداث جسام . ولو علموا أن محمداً لا ينطق عن الهوى بل يسير بوحي من السماء لعرفوا مقدار ثقته في ربه وفي نفسه وإذا كانت رسائل محمد قد آتت أكلها حين أحسنت الأداء عن صاحبها فإنها بإيجازها الدقيق تعد لا محالة ذات سداد مكين ولنا أن تنتقل منها إلى نماذج من المعاهدات النبوية فتحدث عن طابعها الأدبي كما نراه .



(٢)

لندكر الآن ماقلناه آنفا عن الدقة القانونية فى معاهدات لاتخرج عن شروط دقيقة تتبع بين فريقين يتباعدان أو يتقاربان . ولعل معاهدة صلح الحديبية تصلح مثلا لأسلوب محمد القانونى ، لأنها بتواترها الذائع تمحو كل شك يهم باعتراضها ، وقد كان ممثل قريش فيها سهيل بن عمرو وهو فوق رزائنه الهادئة ، وتشدده الحازم خطيب فصيح كان موضع تقدير سامعيه . وقد هم عمر ابن الخطاب بكسر ثنتيه حين وقع أسيرا فى بدر لاشتهاره بخطبه المناوئة للدعوة الإسلامية فقال محمد صلى الله عليه وسلم دعه يا عمر فلعله يقوم مقاما تحمده ، هذا الخطيب القرشى الفصيح كان ممثل قريش فى معاهدة الصلح ، وقد أبدى اعتراضات تمثل وجهة نظره من ناحية الصياغة ، حتى رفض كلمة محمد رسول الله وقال لو كنت أعلم أنك رسول الله ما نازعتك ، فحسم الرسول الأمر ومحا كلمة رسول الله بعد أن رفض محوها على بن أبى طالب ، وكان ما أملاه محمد بعد الجدل والاعتراض ومناقشة المسلمين الغاضبين كعمر بن الخطاب تارة وفريق سهيل من المشركين تارة ثانية ، كان ما أملاه بعد الصراع المتأزم ينحصر فى قوله :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لأسلاب ولا أغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ^(١) .

(١) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٣٢ .

فهذه معاهدة ذات مواد صريحة ، وذات ألفاظ محددة ملتزمة وليس بها من الخيال التصويرى غير قوله صلى الله عليه وسلم « إن بيننا عيبة مكفوفة » والعبية فى الأصل زنبيل من آدم يجعل فيه الثياب ومكفوفة مشرحة مشدودة على مافيهما ، والعرب تشبه الصدور التى تضم القلوب بالعياب التى تشرح على حر الثياب وفاخر المتاع فجعل عليه السلام العياب المشرحة على مافيهما مثلا للقلوب تطوى على ما تعوهد عليه مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث وهذا رأى فى الصورة البلاغية ، وهناك رأى آخر يقول إن المراد أن الشريكين مكفوفاً بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على مافيهما من المتاع ، وكذلك الذحول التى كانت بينهم كما تكف العياب إذا اصطلحوا على ألا ينشروها بل عليهم أن يتناسوها كأنهم جعلوها فى وعاء وأشرحوا عليها . هذه صورة بلاغية واحدة اختلف البلاغيون فى مؤداها إلى رأيين ، وكلاهما صحيح فى بابه ومتفق مع الظروف والملابسات المصاحبة للمعاهدة ، وقد تعمدت تفصيل ذلك ليكون شاهدا قائما على ما قررته أن أساليب البيان مما يفترق معه الرأى إذا حشدت فى المعاهدات الوثائق وأن مجافاتها ما أمكن سبيل الاتفاق واللقاء من طريق قريب . والصورة البلاغية على لسان بليغ عظيم كمحمد ، لا تؤدى إلى خلاف ما كما نرى ، ولكنها على يد غيره موضع المزلة . لذلك كان اجتنابها أحزم .

ونختار نصا آخر من معاهداته . وهو ما عاهد عليه السلام به أهل نجران حيث أرادوا مصالحته على الجزية . وهى معاهدة مثقلة بالشروط ، متعددة الأزمنة دقيقة الحساب ، تضم فى السطور الموجزة ماتتسع له صفحات كثيرة وإيرادها بنصها التاريخى يكشف عن السداد البصير فى التحديد الملزم ، والتفصيل الشارح ، والتنويع الكاشف بحيث تجب كل اختلاف يمكن أن يتاح ، وهذا نصها :

(٢) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٣١

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتب النبي ﷺ لأهل نجران ، إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة ، وفى كل صفراء ، وبيضاء ، وسوداء ، ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفى حلة من حلال الأوقى ، فى كل رجب ألف حلة ، وفى كل صفر ألف حلة ، كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأوقى فبالحساب ، وما قضا من دروع أو خيل أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مئوى رسلى شهرا فدونه ، ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين بعيرا ، وإذا كان كيد باليمن ومعرفة ، وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض ، فهم ضمن حتى يردوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرته وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعثرون ولا يطاء أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فينبهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل منهم ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منفلتين بظلم^(١) .

هذا هو نص المعاهدة ، وهو نص بليغ إذ يطابق مقتضى الحال .
لقد تعرض الدكتور حسين نصار إلى رسائل محمد ﷺ ومعاهداته فقال ما نصه^(٢) :

(١) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٧٧ .

(٢) نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ص ٤٧ .

« هذه هي حال الكتابة في عهد النبي ﷺ ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم الكتابة الفنية ، أعتقد أن من الواضح الذي لا شك فيه بعد كلامنا الطويل أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتبا مرتجلة محللة بلغة سهلة هي لغة الحديث لا يوشىها شيء من عمل أو جمال غير فصاحة لغة الحديث عند العرب بل تهبط لغتها كثيرا عن لغة الخطابة التي كان لها تقاليد المرعية ، وقواعدها الأدبية منذ العصر الجاهلي ، ولم تكن تسمو إليها إلا في بعض الرسائل » .

وموضع النقد في كلام الدكتور أنه أغفل مقتضى الحال المتعارف عليه في كتابة الرسائل السياسية ، والمعاهدات القانونية قديما وحديثا حتى يومنا هذا ، فإذا كانت كتب الرسول سريعة مملأة بلغة سهلة لا يوشىها شيء من عمل أو جمال غير فصاحة الحديث عند العرب فذلك مما يجب أن يحسب لها لا عليها في مثل موقفها الدقيق ، ولا يمكن أن تخرج عن الكتابة الفنية لأن الفن في صميمه التزام بما تقتضيه الظروف والملابسات . هذا مانعرفه . ولكن الدكتور في مقدمة كتابه^(١) يقول « إنه يعنى بالكتابة الفنية ما لا تصدر عن سليقة تقصد إلى الإفهام إنما يريد الكتابة التي تروى صاحبها في تجريد المعنى ، وتأتى في اختيار اللفظ قبل إبرازها لتخرج محبرة مجودة لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ ، والإحساس بالجمال . ولذلك نعت كتابات العرب الجاهلين ، وكتابات الرسول والصحابة بأنها غير فنية على الرغم من فصاحتها وجمالها فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده إنما أقصد الجمال الذي استحدثه صانع فنان يعرف ما يعمل ويريده ويبحث عنه » .

والذي يقرأ الرسائل النبوية لا يشك أن صاحبها قد تروى في تجويد المعنى وتأتى في اختيار اللفظ ، وليس ملزما بأن يثير اللذة عند القارئ السطحي ولكن

(١) المصدر السابق ص ٣

القارىء الناضج المدرك لملاسات الوثائق والمعاهدات يعلم أن الإتيان بما يناسب المقام مصدر متعة وجمال ، ونحن مع ذلك كله لا نعتبر المعاهدات من النثر الأدبي ، ولكن من الذى ينكر أن النثر العلمى بإقناعه وعمقه مصدر لذة وجمال لدى المفكر الأصيل حتى يقول الدكتور إنها لا تثير عند القارىء إحساسا بالجمال ، ولماذا يطلق الدكتور الحكم على جميع ما لدينا من آثار العرب الجاهلين والرسول والصحابة . أليس ذلك مصدر شطط بعيد . لقد رجع إلى جمهرة رسائل العرب أكثر من عشرين مرة أفلم ترقه رسالة النعمان إلى كسرى فى شأن عدى بن زيد ص ١٣ ألم يرقه كتاب النعمان بن قبيصة إلى أكثم بن صيفى ص ٢١ ألم يرقه كتاب أبى بكر إلى أهل الردة ص ١١٤ ألم ترقه كتب أبى عبيدة إلى عمر فى أكثر من موضع ، ألم ترقه مراسلات على بن أبى طالب إلى معارضيه ومؤيديه معا ، وما أبرعها فصاحة ونصاعة وبهاء . كذلك يعم الحكم جميع رسائل الجاهلية ومحمد ﷺ وأئمة الصحابة دون احتراس !! .. لقد كان الرسول مشتغلا بأحداث الدعوة عن أن يكون صانعا فنانا كما يشترط الدكتور ! وهنا موضع العجب من الذى لا يهش لأدب السليقة المطبوعة ! ويدعو إلى الصنعة المتكلفة ! إن عشرات الرسائل التى يكتبها صانعو الفن لاتسمو إلى رسالته واحده أرسلها فصيح مطبوع هو محمد بن عبد الله معزيا بها معاذ بن جبل فى وفاة نجله فأى تعزية ؟ وأى تأثير ؟ وأى لذة مقنعة راضية صابرة يجدها القارىء فى قول محمد .

« من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل

سلام عليك فإنى أحمد إليه الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر ، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ، نمتع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى . والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يامعاذ خصلتين ، أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك فلو قدمت

على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده ، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتا ، ولا يدفع حزنا ، فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد «^(١)

لا يستطيع ناقد منصف أن يجحد مواضع الإبداع في قوة الإقناع وصدق العاطفة وجميل العزاء ، واطراد التعبير ! وكل ذلك مصدر جمال وإمتاع ، ولن ينتظر من رسائل قائد أعظم كتبى الإسلام أن يكتبها في غير ما يمت إلى ذلك النمط العاقل البديع ؟ أفينتظر من رسول الله أن يكتب رسالة في الهجاء كابن زيدون ، أو في التهكم كالجاحظ أو في المدح كالبديع ، أو في الغزل كابن العميد ؟ ليصبح بذلك صانعا فنانا تحوز كتابته ثناء الناقدين ! هيهات هيهات لقد كتب الرسول البليغ ما يعقل أن يصدر عن نفسه الذكية العاقلة وطابق بين الحال ومقتضاه ، وبين القول ، وصاحبه فجاء ما كتبه آية في بابه على غير مباهاة بالقول أو تزيد بالحديث !!

على أن نماذج محمد في الرسائل والمعاهدات كانت فاتحة لما جد بعدها من مئات الرسائل التي كتبها خلفاء محمد ، وقادة الحروب ، وأمراء البلاد في الإسلام . إذ أن حركة الفتح الإسلامي التي شملت ثلاث قارات عظيمة قد تطلبت طوفانا من الرسائل الديوانية والوصايا السياسية والمعاهدات الحربية ، ابتداءً ذلك من عهدى أبي بكر وعمر وكلاهما حريص على محاكاة الرسول في نهجه الكتابي ، حتى أصبحت كتاباته نماذج محتذاه في بدئها رختامها ووضوحها وترك اللغو والفضول ، وإن الذي يرجع إلى عشرات من هذه الوثائق في عهد الخلافة الراشدة يجد النمط المحمدي بارز المعالم واضح الاتجاه ، وقد أخطأ الدكتور حسين نضار تعليله حين قال ^(١) عن رسائل النبي :

« أما ما اتبعه — محمد — من نظم في أوائل الرسائل وخواتيمها فإن هي إلا

(١) جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٦٥ .

أمور اقتضتها الدعوة التي يبشر بها ، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأي نظرة سهلة غير متشددة إذ أن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعا دينيا لا أدبيا ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول ، ولذلك نرى رسائل على التي يرسلها إلى معاوية يدعوها فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شيئا كبيرا ، وإذن فهذه تقاليد دينية لا أدبية يمكن أن نعتبرها فنية ، ولم تتطور لغة الرسائل كثيرا في هذه الفترة إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام .

والذي حدا بالدكتور أن ينص على أن محاكاة أسلوب الرسول كانت محاكاة دينية لا أدبية ، ما رآه من بدء الرسالة بالبسملة وحمد الله والصلاة على نبيه وختمها بالسلام ، فاعتبر ذلك من خصائص الدين لا الأدب ناسيا أن الأدب في كل عصر ترجمة عن شعور صادق ، وقد كان إحساس أصحاب الرسائل وبخاصة في عهد الخلافة الراشدة إحساسا دينيا عميقا ، فجاءت رسائلهم مضمخة بعبير الدين ، وهم يصدقون بذلك التعبير عن خوالجهم الخالصة ومشاعرهم الصريحة ، فأسلوبهم الديني إذ ذاك من صميم الأدب الصادق ولبابه ، وليس مجرد تقليد ديني ، وقد يمكننا أن نعتد بعض كتب سلاطين آل عثمان في العهود الأخيرة ذات تقليد ديني لبعده كاتبيها عن روح الإسلام الأصيل ، أما أن تعتبر كتب الخلفاء الراشدين ومن نهج نهجهم مجرد تقليد ديني لا ينبىء عن شعور صادق فهذا موضع النقد ! لذلك كانت رسائل محمد أنموذجا أدبيا ودينيا معا لصحابته ، وقد ظهر احتداؤها في القرن الأول ، حتى جاء عبد الحميد الكاتب فطغت عليه ثقافته الفارسية وجعلته يتتبع نمطا جديدا من الرسائل الديوانية يميل إلى الأسلوب المطيل والترادف المطنّب ، متخذا وسائل التعظيم والإكبار للخلفاء والرؤساء بعد أن عرف ما كان عليه كتاب البلاط الفارسي من إكبار بالغ للأكاسرة وتمجيد مسرف للأمرء ، فتأثر بذلك كله وأحال الرسائل السياسية من لون إلى لون ، ومنذ عهده رأينا كتابة الرسائل

تميل إلى لون جديد من التعبير انتهجه الكاتبون من بعده ، تشقيق قول ، وتوليد معنى ، وترادف لفظ ، وتفخيم رئاسة مع مبالغة مفرطة في الوعيد والترهيب ومباهات بالحوول والطول ! ولعلنا بذلك نستريح إلى ما قررناه من أستاذية النهج المحمدي لجميع من صدرت عنه الرسائل حتى جاء عبد الحميد فاستبدل نهجا بنهج

وإنصافا للدكتور حسين نصار نقرر أنه انتهى من بحثه عن نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي إلى نتيجة نراها صحيحة قوية إذ أعلن في خاتمة كتابه أن الكتابة الفنية العربية كانت وليدة الثورة التي قام بها محمد عليه السلام فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، « وإن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت في عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التي تحرك الجماعة العربية في عصرها ذلك ، فهي ثمرة الثورة التي قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها وأمدهم بأسسها التي يقيمون عليها حياتهم الجديدة ، وإذن فكتابة الرسائل الفنية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة التي ذهبت بنظمهم السياسية الجاهلية أدراج الرياح »^(١)

هذا مجال القول في رسائل محمد ومعاهداته فنا وتأثيرا ، وقد أرجأنا الحديث عما تضمنته بعض الرسائل النبوية من الغريب العويص مما لم يوجد في لغة قريش ، مراعاة لألفاظ القبائل الأخرى إذ يخاطبهم بما يفهمون ، أرجأنا ذلك إلى فصل يتحدث عن خصائص الأسلوب النبوي ، وما هو ببعيد .



(١) نشأة الكتابة الفنية ص ٥٤٠ .

الأقصوصة في أدب الرسول

(١)

في الإنسان — أى إنسان — ميل شديد إلى القصة ، فهو إذا شاهد حادثة في الطريق رفه عن نفسه بروايتها ووصفها والتعليق عليها ، وإذا وجد من يقص ويروى تابعه متطلعا على شوق ، واستوعب قصته ليرويها للناس . وكان للعرب أسماهم وسهراتهم تروى فيها القصص وتتعدد فيها الروايات ، وإذا كانت البيئة الجاهلية مسرحا للغارات والحروب ، وهبات الرمل وعويل الريح وتخايل الأشباح فى ظلماء الليل ، فإن قصصهم السامرة تدور حول ما يحسون ويتخيلون ، وقد سجلت لنا الكتب الأدبية كثيرا من أساطير الأولين ، ولكن الأستاذ أرنتس رينان منذ قال « إن العقل السامى عقل جزئى لايميل إلى الشمول والسعة ، والعقل الآرى عقل كلى ينظر إلى الأشياء نظرة عامة واسعة » منذ قال ذلك والهجوم على العقلية العربية ظلما دون تحقيق يفيض ويتسع ، ومما قيل فى ذلك أن العقل العربى لايجيد القصص ، إذ أن القصص ذات أبعاد وأطوال ولاينهض بملئها عقل جزئى محدود ! وقد أثر كلام رينان فى أخلص الخلصاء للعرب ، فأصبحنا نجد مؤرخى الأدب من رجالنا أنفسهم يشتطون فى أحكامهم ، فهم يرددون دائما مثل قول الأستاذ أحمد أمين فى فجر الإسلام عن العربى^(١) .

« إن خياله محدود وغير متنوع وقلما يرسم خياله عيشة خيرا من عيشته و حياة خيرا من حياته التى يسعى وراءها » وبالحكم على العربى بضيق الخيال حكم عليه ظلما بمعادة القصة ، وهى شىء يكاد يكون غريزيا فى كل إنسان لأنها قائمة على حب الاستطلاع وترقب النهايات واستعظام المفاجآت ، ولقد

(١) فجر الإسلام ص ٤٦ ط ثلاثة .

كان للعرب قصاص يرددون الحديث عن الآباء والأجداد والرحلات والقوافل والغارات مما امتلأت به كتب الأدب ، وإذا لم نجد في الأدب القديم قصة كاملة النهج مستوفاة شرائط الفن الحديث ، فذلك شيء طبيعي يتفق والبيئة الساذجة التي تتطلع إلى آفاق لم تلبث أن امتدت على يد الإسلام ، ولكنها لا تخرج عن كونها قصة ، وإذا كان من مميزات الأدب اليوناني عند خصوم العرب قيامه على الأساطير ، والخرافات فإن الخرافات لم تكن بعيدة عن الذهن الجاهلي في بعض تفكيره ! وكلمة خرافة في أصلها العربي تدل على رجل تاه في الأرض واختلط عقله ردها ما حتى قيل إن الجن قد استهوته ثم رجع إلى قبيلته يحدثها عما شاهد من الغرائب ، فضرب به المثل القائل « حديث خرافة » وحين لمس القرآن حاجة النفس إلى القصص جاء بأخبار الأولين من فرعون وعاد وشمود ، وشرح قصص مريم وامرأة العزيز وبلقيس وأهل الكهف ! وقصص القرآن قصص واقعي تاريخي لاخيال فيه ، ولكنه ضرب من ضروب القصص يرضى حاجة النفس ويمد الرسالة النبوية بأمثلة من القوة والصبر والعزاء ! ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ! وتفصيل كل شيء ﴾ .

فالقصة إحدى أسلحة القرآن في الهداية والإرشاد وهي أيضا إحدى أسلحة محمد ﷺ في الهداية ، وقد كان مبلغ تأثير القصة عظيما غاية العظم في نفوس العرب ، إذ سحروا بما سمعوا من غرائب الأولين واضطر المناوئون للدعوة الإسلامية أن يختاروا قصصا منهم يصد عن سبيل الله بما يعلم من عجائب الفرس ليمنع شيء شيئا ، قال تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ ، وجاء في الكشاف عن هذه الآية : نزلت في النظر بن الحارث ، وكان يتجر إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وشمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم

وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن»^(١)

وفي كتاب أسباب النزول للنيسابورى نرى تعليقا مستفيضا على قصة أهل الكهف يفصل كلام الزمخشري ويزيد عليه أن بعثة من قريش تألفت من النضر ابن الحارث وعقبة بن أبى معيط وغيرهما قد ذهبت إلى أحبار اليهود بالمدينة تعلم عنهم أنباء الأولين لتسأل عنها محمد! فمكانة القصص إذن من الدعوة الإسلامية مشتهرة ذائعة إذ كانت إحدى الأسلحة الناصرة لامحالة! إذ أن القصة الهادفة تقنع العقل وتمتع الوجدان، وهى إذا اتضح مغزاها النبيل أعمق المسارب الإنسانية إلى الهداية والتوجيه!

أجل كانت القصة الهادفة إحدى وسائل محمد فى الإقناع والتأثير! وقد نقلت كتب الحديث قصصا كثيرة مما حكى الرسول، وإذا أردنا الدقة الفنية فلنقل أقصوصة لاقصة لأن علماء هذا الفن يطلقون الأقصوصة على القصة القصيرة، التى يعالج فيها الكاتب جانبا من حياة لا كل الجوانب فهو يقتصر على حادثه لاحداث، أما القصة فهى التى تتسع إلى جوانب أرحب وأفسح فلا بأس أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ويتوالى تطورها فى شىء من التشابك والتمازج^(٢).

وقد تتضاءل الأقصوصة حتى تصير خيرا قصصيا محدودا، وما إلى هذا النوع نقصد وإن وجد كثيرا فى كلام النبوة من مثل قوله «صلى الله عليه».

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب

(١) الكشف ج ٢ ص ١٩٣ .

(٢) دراسات فى القصة والمسرح للأستاذ محمود تيمور .

من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملاً خفه ماء فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ^(١)» رواه البخارى ومسلم .

ومثل قوله « بينما امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب باين إحداهما فقالت لصاحبتها ! إنما ذهب بابنك أنت وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فاحتكما إلى داود « عليه السلام » فقضى به للكبرى ، فخرجنا على سليمان بن داود « عليهما السلام » فاخترتا ، فقال اتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : لا . يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى » رواه الشيخان والنسائي ^(٢) .

فهاتان أقصوصتان تضاءلتا حتى كادتا تبلغان مبلغ الخبر ، ومع إيجازهما المفرط فقد تضمنت كلتاهما لباب ما تتضمنه الأقصوصة المتسعة ! ففيهما السويق ، والإثارة ، وفيهما التصوير النفسى للعواطف ، وفيهما بعد ذلك العظة الهادفة من الرحمة الواجبة للحيوان فى الأولى والحنان المستقر بنفس الأم فى الثانية ! مع ما تشير إليه من بعد نظر سليمان بن داود وقدرته على اجتلاء الصواب بحيلة تصل إلى مقطع الرأى فى قضية دامسة غاب شاهدها المنير ! ومع ما بهاتين الأقصوصتين القصيرتين من لوازم وضیعة ومثلهما كثير فى أدب النبوة ، فإننا نتجاوزهما إلى الأقصوصة المبسطة نوعاً ما لنرى كيف عالجهما الرسول بسداد وتوفيق ! ونحن لم نتعد الأفاصيص المتفق عليها فى الكتب الصحاح تاركين ما عزى إلى الرسول فى كتب الترغيب والترهيب مما لم يشف سياقه عن طابع محمد الأصيل !

نعلم أنه لا بد لكل أقصوصة من وحدة فنية تكون هدفاً للكاتب ، يحققها بما يعرض من صور ويرسم من شخصيات ، ويعالج من أحداث بحيث يكون ذلك

(١) التاج ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) التاج ج ٣ ص ٦٩ .

كله خيوطا متلاحمة تؤدي إلى نسيج قوى متماسك يبرز هذه الوحدة الفنية ! فالوحدة الفنية في القصة والأقصوصة معا هي الفكرة الأصلية التي يحاول القصاص إبرازها وراء ما يقدم من نتاج ، ولا بد أن تكون من الوضوح في نفسه بحيث يستطيع التعبير عنها بصوره وأحداثه تعبيرا يبرزها للقارئ برونز لا يتستر بإبهام وغموض ، وقد تضم الأقصوصة عدة أفكار هامة ، ولكنها تتلاحق وتتساند لإبراز الفكرة الأصلية فلا يكون هناك من التعارض والتناقض ما يجعل الأقصوصة عرضة للانهايار ! وتطبيقا لذلك نعرض — من أقاصيص الرسول — قصة الصخرة المطبقة على غار يأوى ثلاثة أفراد ، فإن فكرتها الأولى هي تقرير أهمية العمل الصالح في الحياة إذ ينقذ من الضيق ، ويفرج من الكرب ! هذه الفكرة الأساسية لاتمنع أفكارا خلقية ودينية أخرى تساندها في القصة ، فحب الوالدين والقيام بخدمتهما عند المتحدث الأول من رجال الأقصوصة ، والرجوع عن المعصية بعد الإقدام عليها عند المتحدث الثاني وأداء حق الأجير عند المتحدث الثالث ، كل هذه الثلاثة أفكار قوية تؤدي إلى الفكرة الأساسية ، وهي تقرير أهمية العمل الصالح ، بل إنها تدل عليها بأحداثها الواضحة ، وهنا نجد التلاؤم في الأفكار والخواطر يسير بالعمل الفني سيرا مطردا إلى الكمال ، وإذا كانت بعض القصص تعتمد في بنائها الأدبي على الأحداث كعنصر بارز وبعضها الآخر يعتمد على الحوار ، وبعضها يعتمد على الأشخاص ، وبعضها يعتمد على المناجاة ، فإن عنصر المناجاة في قصة الغار والصخرة قد كان أقوى العناصر البارزة فيها ، حيث رفع كل سجين يده ليناجي ربه بما أسلف من الخير في حياته ، فهو يستعرض ماضيه في مناجاته استعراضا يأتي بالأحداث السالفة زلفى للنجاة ! أما تعبیر القصة فقد كان مع إيجازه موحيا ترسم ألفاظه أضواء مختلفة حتى لكأن كل لفظ في حده صورة لمشهد ! ولنا أن نتابع القصة ببعض التحليل كما جاءت في كتب الحديث .

« عن ابن عمر عن النبي ﷺ » قال بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم^(١).

هنا توالى الأحداث بسرعة ، أشخاص ، وأمطار وفرار إلى الجبل ، وانطباق
صخرة ! إن المفاجأة لتشد سمع المستمع مشوقا إلى تنمة ما كان ! وقد أغنت
هذه الكلمات القليلة عن وصف مسهب يتقدم به ثرثار ليرسم الأحداث الأولى
في نحو ثلاث صفحات ! ثم ما عسى أن يقوله غير مأوحت به كلمات القصة ،
إن كل لفظ منها يحمل مدلولاً يفتح أبواب الخيال لدى السامع فتريه من وراء
الغيب ، مآدرك الثلاثة من العجلة حين رأوا المطر ومن الحيلة حين اهتموا إلى
الجبل ومن الضيق المتأزم حين سقطت عليهم الصخرة مؤذنة بالهلاك !

قال الحديث بعد ذلك « فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة
لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم ، قال أحدهم : اللهم كان لى والدان
شيخان كبيران ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم ، فإذا رحى عليهم حلبت ،
فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى وإنى استأجرت ذات يوم فلم آت حتى
أمسيت ، فوجدتهما نائمين فحلبت كما كنت أحلب ، فقامت عند رؤوسهما
أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أسقى الصبية ، والصبية يتضاغون عند رجلى حتى
طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها
السماء ففرج الله فرأوا السماء »

هنا تكفّلت المناجاة بإيضاح ما كان ، وجاء التعبير دقيقا بإيحائه النفسى ،
فالوالدان يغطان فى النوم ، والابن قائم على رأسيهما ، والصبية يتضاغون ! أى
مقابلة نفسية كبيرة بين بكاء الأطفال وتصبر الوالد وتماسكه حتى يستيقظ

(١) التاج ج ١ ص ٤٦ .

الوالدان ! وهنا أيضا فهم الهدف الخلقى من مراعاة حقوق الوالدين فهما تأثيريا لم ينبع من الوعظ ولكن من رسم المشهد فى أدق صورته ! وهنا ثالثا جاءت النتيجة السارة المرتقبة إذ تزحزحت الصخرة فرأوا لون السماء وعرفوا كيف يتنفسون !

وقال الحديث متابعا :

« قال الآخر : اللهم إنها كانت لى بنت عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت منها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار ، فبقيت حتى جمعتها ، فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقلت ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فأفرج عنا فرجة ففرج . » .

مناجاة ثانية تصور الأحداث بجوامع الكلم ، وتوجز لتترك إطنابا نفسيا يفيض ويمتد ، أرأيت إلى الاقتصاد على قوله « فطلبت منها » دون أن يبين المطلوب ! وعلى قوله « فقلت » متحرجا أن يقول مستحيا من نفسى مستجيبا إلى هاتف الضمير ثم أرأيت إلى هذا الكناية البديعة اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ! كل ذلك دعوة خالصة مقنعة إلى العفة وصيانة المحارم تجذب بتأثيرها الرائع نفس السامع فتقوم مقام عشرات من الخطب المنبرية فى التصون ، والعفاف ! ثم تتفرج الغمة إلى حد يبشر بالفرج ، فيشير الحديث إلى ذلك بقوله عقب المناجاة الحارة الصادقة : ففرج !

ويتابع النص النبوى قوله : وقال الثالث : اللهم إنى أستأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال ، أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرغب عنه فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرا ورعاتها ، فجاءنى فقال : اتق الله ، فقلت اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فقال اتق الله ولا تستهزىء بى ، فقلت إنى لا أستهزىء بك فخذ فأخذه فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج ففرج الله ،

وفى رواية فخرجوا يمشون رواه الشيخان .

مناجاة ثالثة ترسم مفاجأة غريبة ! أجيبر كان يطمع فى قدح من الأرز فقط ، يسارع إلى طلبه فيقول له صاحبه اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فلا يصدق إطلاقا ، ويصيح أتستهزىء بى ؟ ثم يجد الجد دون الهزل ، فيصبح صاحب البقرة والرعاة ، أى دعوة إلى المحافظة على حق الأجيبر أقوى مما رسمته القصة فى فصلها الأخير ! وأخيرا جاءت النتيجة النهائية سارة مطمئنة إذ كشف الله الصخرة فخرجوا يمشون !

لقد التقت خيوط القصة لتؤدى إلى نسيج قوى متماسك يقبض عليه القارىء بيده معجبا ! فالطاعات تفرج الكربات ، والعمل الصالح ينفع صاحبه فى المآزق الحرج ! والقصة بصياغتها القوية نمط رائع من الأدب يؤكد أن الفن فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين حين يشيد بمبادئ الرحمة والعفة والحق والإنصاف ! وإن محمدا ﷺ حين جعل الأقصوصة من عدده التى يغزو بها المشاعر ، ويعبىء النفوس إنما اعتمد على سلاح قوى نفاذ ، وقد أجاد استعماله بما أبدع فى قصصه من تصوير وتلوين !!

وإذا كانت المناجاة فى أقصوصة الصخرة هى الأداة التى تنطق بالحوادث ! فإن الحوار فى أقصوصة أخرى يكون اللون المختار لتأدية ما يهدف إليه الرسول من معان ، وإذا كان الحوار مصدر متعة وطرافة فى بعض الآثار الفنية ، فإنه يكون فى بعضها الآخر مثار فضول وعبث إذ يندفع الكاتب إلى ما يشبه اللجاج وقد ترك اثنين يتصارعان فى تحد متعسف وكل يحاول أن يتشبث برأيه ، والحوار فى قصة نبوية لن يأخذ غير سمته الرفيع إذ يدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة فى إيجاز لمّاح ، هذا إذا كان الحوار بين إنسانين عاديين فكيف به إذا كان بين الله وملائكته المقربين .

لقد جاءت أحاديث مختلفة تشير إلى ألوان مختلفة من الحوار بين الله وملائكته ، كما جاء فى القرآن ما يشير إلى هذا اللون أيضا من مثل قول الله

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

وما جاء في الحديث النبوي من الحوار بين الله وملائكته مع قوة هدفه وعمق مغزاه واضح شفاف ليستميل إليه القارئ بمجرد النظرة الأولى ، وهنا يظهر فضل الأقصوة في جذب الأنظار بما تتضمن من التشويق وبما تدفع إلى الاستزادة والاستكثار في تلذذ واستمتاع لقرب موقعها ولطافة مأخذها وحسن تأتيها إلى مكامن النفس ! ويمكننا أن نقدم طرفة نبوية من هذا اللون الجميل .

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل نادوا هلموا إلى حاجتكم ، قال في تفونهم بأجنتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم .

— مايقول عبادى ؟

— قالوا يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .

— فيقول : عز وجل هل رأوني ؟

— فيقولون : لا والله مارأوك .

— فيقول تعالى : كيف لو رأوني ؟

— فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيذا وأكثر تسبيحا .

— فيقول : ومايسألوننى ؟

— فيقولون : يسألونك الجنة !

— فيقول : وهل رأوها ؟

— فيقولون : لا والله يارب مارأوها !

- فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟
 — فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة !
 — قال — فَمِمَّ يتعودون؟ — فيقولون : من النار .
 — قال : وهل رأوها ؟
 — فيقولون : لا والله مارأوها !
 — فيقول : فكيف لو رأوها ؟
 — فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة !
 — فيقول : فأشهدكم أنى غفرت لهم !
 فيقول ملك من الملائكة ، فيهم فلان وليس منهم إنما جاء لحاجة !
 قال الله : هم الجلساء لايشقى بهم جلسهم^(١) .

فماذا يرى القارىء فى تسلسل الحوار واطراده وكيف انتقل من شجن لشجن ليعلن فضل الذاكرين ، وخير المسبحين ! ويشمل هؤلاء بنعيم الله ورضوانه ثم لا يقتصر عليهم بل يلحق بهم من جالسهم داعيا بذلك إلى مصاحبة الذاكرين العابدين ! لقد أدى الحوار دوره الأدبى إذ تمشى بالسؤال والجواب تمشية مستقيمة لاعوج فيها ولا أمت ثم أدى دوره الدينى حين بين الرسول فضل الالتجاء إلى السماء وتذكر الله فى مجالس العبادة ومطرح التسييح ؟



(١) التاج ج ٥ ص ٩٠ .

وإذا اعتمدت قصة الصخرة على المناجاة ، واعتمدت قصة الذكر على الحوار ، فقد اعتمدت قصة الأعمى والأبرص والأقرع على تصوير الأشخاص ! إذ رسمت لكل شخصية من هؤلاء الثلاثة صورتين متقابلتين بينهما من الفروق ما بين السماء والأرض من أبعاد ، وبتأمل الصورتين المختلفتين يتجلى فضل النعمة وهول النقمة ! وإذا كنا نجعل المناجاة سمة لأقصوصة والحوار سمة لثانية ، وتصوير الأشخاص سمة لثالثة ، فإنما نقصد السمة الغالبة ولانعنى أنها انفردت بشيء واحد ، إذ أن كل قصة لاتخلو من أحداث وحوار وغيرهما ! .

وسنعرض الآن القصة الأخيرة كما جاء بها الحديث :

« عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قدرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا ؟ فقال : فأى المال أحب إليك قال : الإبل أو قال البقر شك إسحاق فى الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر ، قال فأعطى ناقة عشراء فقال بارك الله لك فيها ! قال : فأتى الأقرع فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قدرنى الناس قال فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال البقر ؟ فأعطى بقرة حاملا فقال بارك الله لك فيها ، قال فأتى الأعمى . فقال أى شىء أحب إليك ، قال أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر به الناس قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك قال : الغنم فأعطى شاه والدا فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ،

والجلد الحسن والمال بغيرا أتبلغ عليه في سفرى ، فقال :الحقوق كثيرة فقال له : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيرا فأعطاك الله ، فقال إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت ! قال : وأتى الأقرع فى صورته فقال له مثل ماقال لهذا ، ورد عليه مثل ماورد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت ، قال وأتى الأعمى فى صورته وهيبته فقال : رجل مسكين وابن سليل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ماشئت ودع ماشئت فوالله لأجهدك اليوم شيئا أخذته لله ، فقال أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك وسخط على صاحبك رواه الشيخان^(١) .

أقصوة جيدة مبينه ، تدعو إلى المعروف بالمحسوس المشاهد ، وتأخذ مناظرها من أحوال الناس ، وملابساتهم فبنو آدم منهم الفقير والغنى والأعمى والبصير والأقرع وذو الشعر الجميل والأبرص والصحيح ! وكل مؤوف ينشد السلامة والعافية فإذا حققها الله للنوى الضر ثم منحهم المال والخير كان الأجدر بهم وقد ذاقوا مرارة الفقر ومضاضة الألم أن يعطفوا على من لايزال رهين أوصابه وبأسائه ! وأنى ذلك ؟ وكثير من النفوس تعيث فى الأرض بالفساد إذا وجدت بسطة من الرزق وقليل من عباد الله الشكور ، إلى ذلك الكثير من الناس رمز الأقرع والأبرص فى القصة ، وإلى هذا القليل منهم رمز الأعمى الحبيى العطوف ! ولن تترك هذه القصة قارئها المتأمل دون أن يسبح سبحا طويلا فى عوالم البشر ، ودون أن يذهب بخياله إلى أناس يعرفهم فى مدى حياته رزقوا الصحة بعد المرض ،والغنى بعد الفقر ، والجاه بعد المذلة فكفروا بأنعم الله ، وانطبق عليهم قوله الكريم ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ ، وقوله

(١) التاج ج ٥ ص ٢٣٩ .

عز وجل ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ﴾ وماننا نبعد وأماننا قول القرآن فى بعض البخلاء ﴿ فلما ءاتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ إن أقصوصة قصيرة تثير هذه الأحاسيس وأشباهاها لذات نفع جزيل ولا أدرى لماذا تلح على إحياءات الألفاظ فى القصة أن أخصها ببعض الإيضاح ! لقد أحسن الرسول التعبير عن الصرخات النفسية الكظيمة لدى الثلاثة حين قال بلسان الأول راجيا متمنيا لون حسن وجلد حسن و يذهب عنى الذى قدرنى الناس ! كلمات هادئة بسيطة ولكنها تحمل زفرات تكاد تتأجج بها الحروف ! وتكشف عن دنيا من السخط يمور بها صدر هذا المريض !

وإذا كان الإحساس البشرى واحدا لدى كوارث النفس والجسم ، فإن المريض الثانى يجيىء متفقا مع أخيه إذ يقول فى توجع : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قدرنى الناس ! ويأتى الثالث فلا يتحدث عن القذارة بل يقول فى بساطة : يرد الله إلى بصرى ! وقد دل سلوكه بعد نعيمة على أنه من معدن غير معدن صاحبيه ! ويحسن الرسول تصوير الموقف حين يقف المتنازعان ليقول أحدهما فى تحد هازىء كأنى أعرفك ! ألم تكن أبرص يقدرك الناس ، فيرد عليه صاحبه متشامخا إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر ! فيصفعه الرد المفحم مجابها إن كنت كذابا فصيرك الله إلى ماكنت ! أما الأعمى فيحس بمأساته القديمة وتكاد تتجسم بهولها الفادح لعينه فيقول فى عطف مشفق أجل كنت أعمى فرد الله بصرى ، فخذ ماشئت ودع ماشئت فوالله لأجهدك اليوم شيئا أخذته لله ، كلمات هادئة معبرة يقرأها القارىء لاليلم بمعناها الإجمالى كما يطالع كثيرا من الآثار ، ولكنه يقرؤها لترتسم أمام عينيه فكأنه يستعرض شريطا سينمائيا يمثل له الأبرص والأقرع والأعمى فى الخفض ، والشدة والهناء والشفاء حتى إذا انتهت مشاهد الشريط لم ينقطع تيارها الدافق عن النفس بل تفسح مجال التأمل للمعتبر ! وهى بذلك تدفع الأيدى الشحيحة إلى البسط بعد أن زعزعت بها معاقل الشح والإمساك ! وإذا فعل البيان ذلك فما أسماه ، لقد حكى الرسول هذه الأقصوصة عن بنى إسرائيل ، كما يظهر من النص النبوى

الكريم ، أفتكون هذه الأحداث قد وقعت فعلا وألهمها الله نبيه ؟ إن اختيار القوم من بنى إسرائيل لامن أى قوم آخرين قد يدل على ذلك ، ولكن قصصا أخرى تنسب لرجال من بنى إسرائيل فى كتب الحديث ، ويدل سياقها على أنها سبقت مساق التمثيل ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ « أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال ائتنى بالشهداء أشهدهم فقال كفى بالله شهيدا قال صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها . فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر فقال اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بك وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج به إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء لماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فما بشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار ، فقال والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه ! قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشدا^(١) . فماذا نرى فى هذه الأقصوصة النبوية بعد التدقيق والإمعان أتكون الخشبة الملقاة فى البحر حاملة الألف دينار حقيقة واقعة ! أيوجد من العقلاء من يضحى بهذا المبلغ الضخم وهو يعلم أن احتمال وصوله

(١) جواهر البخارى ص ٢٥٣ .

فى حكم المستحيل ! أوجد من تسوقه الظروف ليقف على سيف البحر منتظرا صندوقا ماليا يصل إليه فى عهد لم يعرف البريد كل ذلك مما يبعد بالقصة عن واقعيتها إلى مساقها مساق التمثيل فتكون بهذا الوضع ذات دلالة خلقية ترجع إلى الوفاء الحتم بعهود القروض والمعاملات ، فإذا أراد رسول الله أن يعظم واجب أداء الدين ضربها مثلا على ذلك ، والقرآن نفسه يسوق القصص مساق التمثيل خلوصا منها إلى العبرة المستفادة من مغزاها ، وقد جاء فى تفسير المنار تعليقا على حوار الملائكة فى خلق آدم مانصه^(١)

« وقد علم مما تقدم أن هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات ، يفوض السلف الأمر إلى الله تعالى فى معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها ، أما الخلف فيلجأون إلى التأويل ، وأمثل طريقة فى معرفة حقيقتها ، التمثيل ، وقد مضت سنة الله فى كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية فى قوالب العبارة اللفظية ، ويجلى لنا المعارف المعقولة بالصورة المحسوسة تقريبا للأفهام ، وتسهيلات للإعلام ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا مما نمتاز به على غيرنا من المخلوقات ، فعلى أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فىنا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون » .

وقريب من أقصوصة سداد الدين فى خشبة البحر ما روته هذه الأقصوصة عن رسول الله :

« عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : كان فىمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ! فقال لا فقتله

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢٦٤ الطبعة الرابعة .

فكامل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال نعم ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا ، وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاوسه فوجوده أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة .

فهذه الأقصوصة تمثل فضل الله وسعة عفوه وعظيم صفحه عن المذنبين فهي تأكيد بالغ لقول الله عز وجل ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . وليس الأمر اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولا قياس مساحة الأرض ليعلموا إلى أي الناحيتين كان الميت أقرب !! إنما كان ذلك كله تجسيما لفداحة الجرم وهول الذنب ! وأى ذنب أكبر من أن يقتل مذنب مائة إنسان !! ثم يأتي بعد ذلك التوبة الخالصة يتبعها عفو الله ونحن في مجال الحكم الأدبي عليها نجدها قد صيغت بالفاظ واضحة معبرة ، فأحسننا الأداء عما يريد الرسول من معنى ، ثم صورت التوبة المقبولة بعد الجرم الفادح أتم تصوير !!

على أن كثيرا من هذه القصص النبوية الحكيمة ، الهادية كان نواة لقصص ديني يعتمد على التمثيل الحكيم ، فقارىء كتب التصوف والأخلاق والتربية لكبار علماء الإسلام يجد من هذا الضرب أفانين ممتازة وضعها كبار الوعاظ وعلماء التربية والأدب والأخلاق في الإسلام ! وهي جديرة بعناية الباحثين لتأخذ نصيبها من التاريخ الأدبي العادل ، وإلا فكيف تزدهم كتب السلف الصالح

(١) التاج ج ٥ ص ٩٠ .

بأقاصيص الثورى وطلاووس ، وعطاء ، وابن السماك ، والأوزاعى ، والحسن
البصرى ، والرقاشى ، والمحاسبى ، ثم لايهتم ناقد بتحليلها والحكم الناقد لها
أو عليها ! فى حين نقرأ أجزاء الأغانى الكثيرة لنهتتم بعث أبى دلامة ، ووالبة ،
ومطيع بن إياس ، والأقيشر الأسدى ، وبشار ، وحماد ، وأبى نواس
وأضرابهم ممن لاتذكر لهم غير المساخروالأضحيك ، لسنا ننكر على مؤرخى
الأدب تسجيل مايعرفونه عن الشعراء والأدباء ، ولكننا ننكر أن يكون التاريخ
غير عابىء بأقاصيص ذوى المثل والأهداف ! وكأنهم وحدهم يستحقون
الإهمال !

وبعد فماذا يشترط ناقدو العصر الحديث فى الأقصوصة الناجحة !؟ ألا
يشترطون أن تكون ذات مقدرة على الإيحاء الملهم إذ تتيح للقارىء أن يستنتج
ويحلل بحيث لاتشرح له كل شىء بل تتركه يشق بمخيلته آفاقا من التصوير
والتفكير ، وإذ ذاك يقاسم المؤلف بعض إبداعه ، دون أن يدفعه الإيجاز إلى
بعض الغموض والإبهام .

كما يشترطون ألا تكون الأشخاص بوقا يردد آراء الكاتب بل يحتفظ لها
بكيانها المستقل ، فتأتى أقوالها وأفعالها صادرة عن طبيعة حية فعالة ، بحيث
لايستغرب من أقوالها وأعمالها ما يكون موضع المبالغة ؟

ثم ألا يشترطون أن يكون للقصة معنى خاص يلح على المؤلف ويحاول
إبرازه فى صورة جيدة بما يرسم من الانفعالات ، ويصور من مشاهد
وأشخاص .

ويشترطون ألا تأتى الحكمة والموعظة فى القصة تقريرية جافة وكأنها قاعدة
علمية بل توحى بها القصة إيحاء ، وكأنها نتيجة تستلهم من السياق ! وإلا
استحالت القصة مقالة علمية !

أما شروطهم في اختيار اللفظ الكاشف والمغزى الهادف فأوضح من أن يدل عليه ، فإذا جئنا بهذه الشروط لتطبق على المأثور من الأقايص النبوية أفنجدها أدخلت بأحد هذه الشروط ، لنترك الأقصوصة التمثيلية التي تجسم بعض المعاني دون أن يتأكد وقوعها مثل أقصوصتي القاتل التائب ، والصندوق الملقى في البحر ، ثم فلننظر إلى بقية ما قدمنا من الأقايص المروية عن صاحب الرسالة ، وقد قدمنا أنموذجين مختارين منها : هما قصة الغار والصخرة ، وقصة المرضى الثلاثة ، فهل تشد إحداهما عما اشترط المشترطون ! إن ما سقناه من التحليل الكاشف لهما ينطق بسبقهما الفنى ؟ وربما زاد من قيمتهما الفنية — غير ما اشترطه الناقدون — أنهما لم تتملقا الغرائز بالحديث عن موضوع رخيص ، بل ارتفعت بالنفوس إلى عوالم الحق والخير والجمال ! وفي ذلك إقناع العقل وإمتاع الوجدان .



صور القيامة في أدب محمد

(١)

لأحاديث الرسول عن اليوم الآخر وما أعقبه من جنة ونار أهمية بالغة في الدراسات الأدبية المقارنة ، لأن العزبية لم تعرف قبل القرآن وصفا كاشفا لليوم الآخر ، ومايتخلله من حساب وميزان ، وصراط ، ثم مايترتب على ذلك من نعيم وعذاب ! وجاء الحديث النبوي ليوضح ماأجمل القرآن ، وليسهب في ذكر اليوم الآخرإسهابا يقربه من العقول ، ويجعله حقيقة واقعة لدى قوم ينكرون البعث ويقولون فيما حكى عنهم القرآن ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

كان على رسول الله مع هذا الإنكار الجاحد أن يجعل من قضية البعث مجالا للتأكيد والتثبيت ، ومن وسائل ذلك أن يستعرض مواقف القيامة موقفا موقفا يبدأ من النفخ في الصور وينتهي بوصف مقاعد الجنة ومهاوى النار ! ولا بد أن يكون لهذا الاستعراض أدواته البيانية من وضوح الفكرة ، وإبرازها في صورة رائعة مؤثرة ، وإجادة تصوير الموقف المنتظر وتوشيته بأزهى الألوان والأصباغ مما ألهمه نبي الإسلام بإعداد الله وتوجيهه ، لذلك جاءت الثروة النبوية من حديث القيامة قيمة جزيلة النفع !! وقد تأثر بها الأدب العالمي في أوروبا تأثرا أصبح موضع الاعتراف دون إنكار ، فدانتى حين تحدث فى الكوميديا الإلهية عن الجحيم قد أتى بصور إسلامية لاتعرفها المسيحية ، وإنما تلوح مصادرها فى آيات القرآن وأحاديث محمد كما سنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصل القادم ، وملتون حين وصف نعيم الجنة فى الفردوس المفقود إنما استلهم القرآن والحديث فى بعض مانظم ! وعجيب جدا أن تحدث مشاهد القيامة فى القرآن

والحديث هذا الأثر العالمي ، ثم نجد أحاديث الرسول عنها في المكتبة العربية
تقع في حيز ضيق لا يجد المجال من الكتاب للتشريح والتحليل ، وهي من قوة
التصوير وعمق الإدراك ، وإثارة العاطفة بحيث استطاعت أن تترك الأدب العربي
وتطير إلى أبعد الآفاق !

أجل ، لقد وجد لدينا من الأدباء من استغل أحاديث القيامة في إنتاجه الفني
كأبي العلاء المعري حين أبدع رسالة الغفران فتحدث عن جبال الذهب في
الجنة ، وحياض العسل في الفردوس ، وعن الحور العين في هيئة الأوز ثم عن
شجرة الزقوم وخزنة جهنم بما سنشير إليه قريبا ! وكان الشاعر الفيلسوف أول
أديب عربي استلهم الآثار الدينية في إبداع رحلة خيالية تحلق في آفاق اليوم
الآخر ، ثم كتب لرسائله الخلود فترجمت إلى اللغات المختلفة وصارت مصدرا
حيا من مصادر الأدب والفن ، ولا يهمننا الآن أن نثبت تأثير رسالة الغفران في
بعض أدباء الغرب ! إنما يهمننا أن نذكر أن المصدر الأول لرسالة الغفران كان
الآثار الدينية الإسلامية من قرآن وحديث ! ولقد أفردت كتب خاصة لأحاديث
القيامة في القرآن فلا بد أن نعقد فصلا كاشفا هنا لتوضيح حديث القيامة في
آثار الرسول العظيم !!

على أننا حين نقرر أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أول إنسان أضاف للأدب العربي
صورا مؤثرة نافذة عن عالم غيبي لم يكن الجاهليون على دراية شيء منه إنما
نقرر أنه بما أضاف للأدب من هذه الصور الجديدة قد أعطى الدليل على نبوته
الصادقة ! وإلا فكيف استطاع هذا الأمل الناشئ في الجزيرة العربية أن يصف
أشهى منازل الترف في الجنة من قصور عالية ، وحياض مترعة ، وحور ناعمة
وحقائق نضيرة ، وسندس وحرير ، وإستبرق وولدان مخلدين ، وأنهار من عسل
مصفى ومن نحر لذة للشاربين ، كيف استطاع أن يصور ذلك كإنسان لأول
مرة في الأدب العربي ، ونقول كإنسان لأننا نعلم فضل القرآن في الحديث عن
مشاهد القيامة ! فلا بد أن نذكر أنه كان أول أثر في العربية فتح العيون على آفاق

واسعة من عالم الغيب ، وإنها لآفاق تظل على تكرار آياتها وسورها ذات بهجة ونشوة وإمتاع !

لم يكتف القرآن برسم المناظر المحسوسة ، ولكنه أضاف إليها مشاهد الحوار والجدل والنقاش فى الجنة والنار ، فساعد على إكمال صور حية تجيش بالحركة ، والخصام والجدل ، وتقف بالقارىء على صورة حقيقية لما سيكون ، إذ يرى المشهد المؤثر ، ويسمع الرد المحتدم ، والجواب الثاقب ، ثم يصل إلى العاقبة الهائلة حين يرى المتخاصمين قد كبكبوا فى نار جهنم ! ويطول بنا المقام إذ نعرض بعض مشاهد القرآن فى فصل يتحدث عن مشاهد الحديث ، ولكننا نستشهد بمنظر قرآنى واحد لأهل النار نعهده تمهيدا كاشفا لما سيجىء من مشاهد القيامة فى أدب الرسول .

إن الكافرين ليحشرون فى جهنم أفواجا خلف أفواج ، وإن القادمين لينظرون إلى المقيمين فى تلدد وغيظ إذ كانوا مصدر نكبتهم حين أغروهم بالكفر وصدوهم عن الإيمان ! وإن النظرات لتبادل فى غيظ محقق ، وإن النقاش ليحتدم فى كراهية ، ولدد ، وإن القرآن ليبعد فى تصوير ذلك حين يقول :

﴿ هذا فوج مقتحم معكم لامرحبا بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار . وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخرىا أم زاغت عنهم الأبصار إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾^(١)

هذا النمط المعجز من الوحي الإلهى قد سار البيان المبدع من القول المحمدى على هديه ، فجاء بكثير من الصور الزاهية ، والمشاهد الرائعة ليوم الآجلة ! وقد يستكثر بعض الناس وفرة ماروته كتب السنة عن الرسول فى ذلك ، وهو استكثر فى غير موضعه ! لأن قضية البعث قضية أساسية فى الدعوة الإسلامية ، ولن تقتنع بها العقول المغلقة فى سهولة ويسر ، فلا بد من إكثار الحديث عنها بإفاضة واستيفاء ! وقد قامت الشريعة الإسلامية على أساس الجزاء

(١) ص الآيات ٥٨ : ٦٤ .

من ثواب وعقاب في الدار الآخرة ! وإنها في معتقد الجاهلين ممن لا يؤمنون بالبعث خيال منكر ، فلا مناص إذن من أن يكثر نبي الإسلام من حديث القيامة ما استطاع ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ! وقد نلاحظ تكرارا لبعض المشاهد في الحديث بحيث يأتي المشهد الواحد بعبارات مختلفة ، وهذا شيء توجه حقيقة الدعوة وتحتمه رسالتها الخطيرة ، لأن الرسول قد يتحدث عن المشهد المثير لقوم ، ويجيء آخرون فيحدثهم بما سبق أن قاله آنفا ليستوى المسلمون في الإبلاغ ! فتكرار الحديث عن المشهد الواحد مما تحتمه طبيعة الدعوة لامراء ! وإذا كان المتحدث بشرا له إداركه المحدود مهما كان قويا بالغ القوة بالنسبة إلى الرسول ، فإنه لا يستطيع أن يعيد المشهد بحروفه والفاظه كما سبق أن حكاها ، فلا بد من اختلاف في التعبير مع المحافظة على اللبأب ! وسنعرض الآن صورا من مشاهد القيامة في الحديث محاولين أن تكون متساوقة مطردة السياق ، جارية مع الزمن تقديما وتأخيرا ، لأن كثيرا من رواة السنة في الكتب الصحاح قد بعثوا أحاديث القيامة في مئات الصفحات خضوعا لأمر لا تتصل بالترتيب الفني للأحداث ، فربما ذكر في أبواب العبادات — مثلا — ما يدل على الميزان والصراط ، لأن المؤلف قد راعى الموضوع الفقهي في كلمة من الحديث دون غيره ! ولا عليه في ذلك ، ولكننا الآن نستعرض صورا أدبية لمشاهد حية مؤثرة فنلتزم التسلسل الزمني ما أمكن !

يبدأ اليوم الآخر بالنفخ في الصور وقد أكثر محمد ﷺ من الحديث عنه ، ونحن نكتفي هنا بمثل قوله عن أبي سعيد الخدري « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الآن متى يؤمر بالنفخ فينفخ »^(١) رأيت إلى هذا القول الموجز وما يحمل من صور مثيرة ، إن المعنى الأصلي الذي يقصد إليه الرسول هو أن موعد الساعة قريب ، فهو تأكيد لقوله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلى سبأتيه ، ولكن هذا المعنى الأصلي البسيط قد رسم أجمل رسم أدبي

(١) التاج ج ٥ ص ٣٨٣ .

في موقف إسرائيل وقد التقم البوق قابضا عليه بفمه كأنه يريد أن يأكله ثم أخذ يلقي بأذنه إلى السماء منتظرا الأمر بالنفخ كأنه سيصدر وشيكا بين آونة وأخرى وهو على أتم أهبة واستعداد للتنفيذ ، فأى تصوير لقرب الساعة ودنو موعدها يبلغ مبلغ هذا القول .

فإذا وقع النفخ فهناك مشهد جديد صوره نبي الإسلام حين قال عن عبد الله بن عمر :

« ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها ، وأول من يسمعه رجل يلوط إبله ، فيصعق الناس ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال يأيتها الناس هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم ؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فذلك يوم يجعل الولدان شيبا »^(١) .

أسطر ضئيلة تشير إلى عدة مشاهد ، رجل يفجأ بالصوت فيصغى ليتها ويرفع ليتها أى أنه يدهش مضطربا وجلا ثم يصعق . ورجل يشغل بحوض يعده لإبله فيفاجأ بما يأخذ عليه حياته فيخر صعقا ، ومطر يتساقط رذاذا كالطل تنبت به الأجساد لتنهض عنه النفخة الأخرى . ثم يأتى بعد النار من كل ألف لانجد غير واحد غير خائف . أما الموقف نفسه فيجعل الولدان شيبا .

فإذا تركنا النفخ متابعين الأحداث المترتبة فى تسلسلها المعقول ، فإننا ننتقل إلى الحشر ، وما أكثر ماتحدث الرسول عن حشر الناس حفاة عراة كما بدأ الله أول خلق يعيده ؟ وقد تساءلت عائشة عن العراء فى الحشر نساء ورجالا فقال محمد فى رواية البخارى يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض وإذ ذاك

(١) التاج ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٣٨٤ .

تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر^(١)، ثم يطوى الله السموات ويأخذهن بيده اليمنى والأرضين ويأخذهن بشماله ، يقول الرسول ذلك وهو يحرك يديه خائفا وجللا حتى ظن ابن عمر أن المنير يتحرك برسول الله^(٢) أما الموقف نفسه فقد قال فيه رسول الله عن ابن عمر :

« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إجماما ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه »^(٣) .

أرأيت بحرا يعوم فيه الناس وقد اختلف ارتفاع موجه صعودا وهبوطا وفق ماقدمه السابحون ، فمن واقف في الماء إلى كعبيه ، ومن غائص إلى ركبتيه أوخصره ، ومن ملجم لايجد من العرق متنفسا . إذ يلجمه الماء إجماما . وحرارة الشمس اللاهبة فوق الرؤوس دانية بشواظها اللفاح . أى موقف هذا الذى صورته البيان فى أقرب لفظ وأيسره دون افتعال .

أما أحاديث الشفاعة فما أروعها وما أشد تأثيرها ، كل حديث يمثل قصة شائقة ذات عرض وحوار وأحداث ، وقد تكررت فى كتب الأحاديث كما تكررت قصص الأنبياء فى القرآن لكل قصة مساق خاص ومغزى خاص ، وهدف خاص وإن ظن الغافل أنه حديث معاد .. وإذا كان المسرح لأحاديث الشفاعة هو ساحة العرض فما أهوله مسرحا تزيف به الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر فهو فى حاجة إلى متحدث بليغ ينقله بألوان معبرة من الحروف

(١) التاج ج ٥ ص ٣٨٨ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٣٨٩ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٣٩٠ .

والكلمات لاتتاح لغير مبين قدير ، وإن مشاهده لتتراءى فى مخيلتك حين تقرأ أن الناس جزعون زائغون تائهون يبحثون عن آدم ، فيقولون أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ونفخ من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول آدم لست هناكم . ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ثم يشير عليهم أن يأتوا نوحا .

فتفر الجموع إلى نوح هلعة متوسلة فيقول ما قال آدم لست هناكم ويذكر دعوته التى قال فيها رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ، ثم يشير عليهم أن يذهبوا إلى إبراهيم .

فيتكرر المنظر ويسرعون إلى خليل الرحمن إبراهيم ، فيقول لست هناكم : عليكم بموسى :

ويتوالى الذهاب إلى موسى فيعتذر ويشير إلى عيسى ، فيقصدونه فيقول عليكم بمحمد فيأتون خاتم المرسلين باكين صارخين ، قال محمد حديثه « فاستأذن على ربي فيؤذن لى فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ، فيقال يا محمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى ارفع يامحمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال فأقول يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود »^(١).

ولقد اقتضينا الحديث السابق باقتطاف نماذج من حوار الحائر بين الخلق والأنبياء . ولن تكمل البراعة الفنية لأثر أدبى إلا إذا سجل دون اقتضاب ، وأخالنا لانعد كثيرا على باحث يشخص أدب الرسول تشخيصا أدبيا أن يذكر نصا كاملا من نصوصه فى رسالة طويلة تتعمد بيانه النبوى بالتشريح والتحليل ، مهما طال الحديث . إن الذى يتحدث عن شاعر كعمرو بن كلثوم يذكر معلقته الطويلة دون

(١) التاج ج ٥ ص ٤٢٢ .

حرج أفتكون معلقة عمرو بن كلثوم أو سواه أثقل في ميزان الأدب من حديث نبوي يرسم مشاهد الحشر الأخرى حتى تتحيفه بالاقتضاب . لننقل هنا النص النبوي على طوله النسبي ، ففي ترتيبه المسلسل ، وصورة المتلاحقة وألفاظه المعبرة ما يقدم لنا وثيقة صحيحة من وثائق الوصف النبوي حين يتسع المجال فيتدفق ينبوع .

عن أبي سعيد الخدري رض الله عنه أن ناسا قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال نعم ؟ ثم قال : هل تضارون من رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب ؟ وهل تضارون رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب ؟ قالوا لا يارسول الله ، قال ماتضارون من رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد ، كان يعبد غير الله تعالى من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب ، فتدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا عطشنا ياربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار ، ثم يدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح بن الله فيقال لهم كذبتهم ما اتخذ الله من صاحبة ولولد ، فيقال لهم ماذا تبتغون فيقولون عطشنا ياربنا فاسقنا ، قال فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فيتساقطون في النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه في أدنى صورة من التي رأوه فيها ، قال فماذا تنظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا ياربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله لانشرک بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجده إلا جعل ظهره طبقة واحدة . كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول في صورته التي رأوها في أول مرة ، فقال أنا ربكم فيقولون ، أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون ، اللهم سلم سلم ، قيل يارسول الله وما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلايب

وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين
وكالبق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فجاج مسلم ، ومخدوش مرسل ،
ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمن من النار فو الذي نفس بيده مامنكم
من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم
الذين في النار ، يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم أخرجوا
من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى
نصف ساقية وإلى ركبته ثم يقولون : ربنا مابقى فيها أحد ممن أمرتنا ، فيقول ارجعوا
فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون
ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف
دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا —
وكان أبو سعيد الخدري يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم ﴿ إن الله
لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ — فيقول
الله عز وجل شفعت الملائكة ، وشفعت النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم
الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط ، عادوا حمما
فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل
السييل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفر
أو أخضر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى
بالبادية ، قال فيخرجون كلؤلؤة في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء
الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولاخير قدموه ، ثم يقول ادخلوا الجنة فما
رأيتموه فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول لكم
عندي أفضل من هذا ، فيقولون ياربنا أى شئ أفضل من هذا فيقول رضى فلا
أسخط عليكم بعده أبدا » رواه الشيخان ^(١) .

(١) التاج ج ٥ ص ٤٢٠

مالذى نراه فى هذا السرد الأدى الشائق يتدىء بالسؤال الواضح ، هل تضارون فى رؤىة الشمس بالظهيرة صحوا لىس معها سحاب ؟ هل تضارون فى رؤىة القمر لىلة البدر صحوا لىس فىها سحاب ؟ ماتضارون فى رؤىة الله تعالى إلا كما تضارون فى رؤىة أحدهما ؟ ألىس التصوىر التمثلى هنا أدل على المراد وأهدى إلى قرب إمكانه وتحقق وقوعه دون اعتراض ، وهذا أحد ماىهم به البىانىون !

ثم ماهذا الحوار المفحم بىن عبدة غیر الله ؟ وکىف عبر عن معانى کثىرة بألفاظ معدودات ، ثم انتهى بهؤلاء إلى جهنم وكأنها سراب یحطم بعضها بعضا ؟ ألىست هذه صورة جمىلة تذكرونا بقول الله تعالى عنها ﴿ تکاد تمیز من الغیظ ﴾ وکلتا الصورتین تنطق باحتدام اللهب !

والجسر ماصفته ؟ وماذا یعترضه من الأهوال ، وماحال العابرىن على اختلاف منازلهم على الصراط ؟ ألم یتکفل الحدیث بتصوىر ذلك أبداع تصوىر حین قال عنه دحض مزلة فىه خطاطیف وکلالیب وحسک فىمر المؤمنون کطرف العین ، وکالبرق ، وکالریح ، وکالطیر ، وکأجاوید الخیل ، والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم ، أهنالك وصف للصراط أبلغ مما قال محمد ؟ وقد تحدث عنه فى أقل من ثلاثة أسطر حدیثا یرج النفس بأهواله الثقال !



أما رحمة الله فقد تجلت في هذا الحوار البديع بين الله وعباده بشأن المعذنين حين أخرجوا من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف مثقال أو مثقال ذرة من خير ، وحين أخرجوا بعض من لم يعملوا خيرا بالمرة وقد صاروا حمما فحين قذفوا في نهر الحياة خرجوا كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ثم أصبحوا كاللؤلؤة في رقابهم الخواتيم وهم عتقاء الله من النار ، أما وصف محمد لحبة السيل من خضراء وصفراء وبيضاء فكان موضع العجب من السامعين حتى سألوه في دهشة : كأنك كنت ترعى بالبادية ! أليس الحديث على طول النسبي صورة فنية رائعة تحدر بها لسان أديب مطبوع ! ثم أليس هؤلاء الذين نقلوا بعض صور الخالدة إلى قصصهم الفني في الشرق والغرب معذورين حين وردوا أعذب مورد من البيان الرفيع ؟

فإذا انتهى الموقف ، وأزلت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين . قدم لنا الأدب النبوي في وصف الجنة والنار مالا يسبقه في دنيا البيان غير وصف القرآن الكريم ! وقد تحدث الرسول عن كليهما بإسهاب شاف واف ، وحديث الرسول عن دار الثواب ودار العقاب مما يجب أن يتكرر في عظاته دون ملال ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في صدر هذا البحث ، ولكن البراعة أن يضطر الرسول إلى إعادة مقال فما يسأم كما يسأم المعيدون . بل يحاول أن يظهر حديثه المعاد في ثوب بياني جديد ، ليضيف بعض الطريف منه إلى تليد مقال ، والإنسان منا يتضايق عادة حين يضطر إلى إعادة خطبة قالها أو صياغة مقال سبق أن نشره إذ يشعر في أعماقه أن السامع في موقف الخطبة ، والقارئ في مجال المقالة سيتفقد الجديد دون أن يعثر عليه ، ولكن الداعية المبين يجد من أدوات البيان لديه ما يذهب عنه التضايق ، فيعرض الحديث في ثوب أقشِب وأبهج ، هكذا جاء المتكرر من أحاديث الجنة والنار في بيان خاتم الأنبياء .

نسمع أن بالجنة « مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »^(١) هذه العبارة الذائعة الشائعة أثر من آثار الرسول ﷺ في وصف الجنة وقد سارت مسير المثل شهرة واستفاضة ، وهي على قلة ألفاظها لاتدع في النفس بعدها للمؤمن من مأمل ، فكل مأمكن أن يتخيله التصور الإنساني من نعيم ومتعة يندرج تحتها لامحالة ، وذلك بعض مايعطيه الأدب البليغ إذ يشبع النفس امتلاء وارتواء بألفاظ معدودات ، وللرسول في ذلك مشابه كثيرة ومنها في وصف الجنة أيضا هذا الحديث المعبر ! « لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت »^(٢) إن الشمس لتطلع وتغرب على الدنيا جميعا بما تحوى من فنون البهجة والإمتاع ، وكل مايتطلب .

وإن كل مستمع من الناس لامحالة مأخوذ ببعض مارآه وشاهده في الحياة ! فإذا كان قاب قوس فقط في الجنة خيرا مما طلعت عليه الشمس أو غربت ! فأى دهشة تستولى عليه وهو يعد من طيبات الحياة أفانين وأفانين !!

أما بناؤها وحصباؤها وترابها فقد سأل أبو هريرة رسول الله عن ذلك كله فقال من حديث وصفي رائع :

« بناؤها لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران . ثم أعقب ذلك بقوله « من دخلها ينعم ولايؤس ، ويخلد ولايموت ، لايتلى ثيابهم ولايفنى شبابهم »^(٣) أما درجاتهم فكما قال الرسول في حديث آخر « في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس »^(٤) .. أما متعة العين والشم

(١) التاج ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٤٢٦ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٤) التاج ج ٥ ص ٤٢٧ .

والإحساس فكما قال عنها الحديث النبوي « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى العابر فى الأفق من المشرق أو المغرب^(١) » وإن فى الجنة لسوقا يتأتونها كل جمعة فتهب ربح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم حسنا وجمالا ، فيقولون وأنتم والله قد ازددتم حسنا وجمالا^(٢) كما أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ، ويبرز لهم على عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم ومافيهم من دنىء على كئبان المسك والكافور ومايرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا^(٣) ، أما غيد الجنة فإن فيها « لمجتمعاً من الحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها تُقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلانبيؤس ، ونحن الراضيات فلانسخط ، وإن الغادة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة ، حتى يرى مخهاً وذلك بأن الله يقول « كأنهن الياقوت والمرجان » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لرأيته من ورائه ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا^(٤) .

(١) التاج ج ٥ ص ٤٣٣ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٤٣٣ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٤٣٣ .

(٤) التاج ج ٥ ص ٤٤٠ .

إننا نسوق هذه الأوصاف النبوية لنقرر أنها جديدة في الأدب العربي لم يهتف بها لسان قبل محمد ! وإذا كنا نعد من معجزات الإسلام إتيانه بشريعة محكمة التنزيل صالحة لكل زمان ومكان على وجه لم يسبق ، فلماذا لانعد من معجزات البيان العربي أن يفد القرآن والحديث عليه بصورة أدبية كانت عنه بمنأى بعيد ! إننا نذكر امرأ القيس فنعد من فضله على البيان العربي أنه أول من بكى واستبكى ، ووصف المرأة بأنها بيضة خدر ! فأى شيء أوصاف المرأة في شعر امرئ القيس إذا قيست بأوصاف المرأة في الحديث عن الحور العين ! لقد رحل الأعشى والنابعة إلى بعض الملوك ووصفا مطارف النعيم لديهم فهل قال النابعة في الخورنق وأبهائه وغرفة وجداوله ما يوازي ذرة مما جاء في الأثر النبوي عن قصور الجنان ؟ إن المنابر من نور والكشبان من مسك ، وشفافية الحجرات بحيث يتراءى أهل الجنة مساكن رفقاءهم ، وإن الريح والنور يطبقان ما بين الأرض والسماء كل ذلك صورة جديدة في الأدب ! أفنغض الطرف عنها لنتتبع أمثال وبيضة خدر ، وصدر مثل حق العاج واهمين أن ذلك أبلغ ما قيل في أدبنا القديم !

هذا كثير من قليل مما نضح به أدب محمد بن عبد الله من مطارف زاهية على البيان !

والنار ! هل نملك أعصابنا حين نسمع مأسطره الحديث النبوي عنها من الأهوال ؟

إنها في وضعها الطبيعي كما تحدث عنها الرسول قد « أوقدت ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى

اسودت فهي سواداء مظلمة،^(١) وإن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاما وما تفضى إلى قرارها،^(٢) وإن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخ يتواطؤه الناس وإن شفته العليا لتقلص حتى تبلغ وسط رأسه وتستتر شفته السفلى حتى تضرب سرته ! — أى هول هذا يارباه ! وإن أهل النار يلقي عليهم الجوع فيعدل ما هو فيهم من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لايسمن ولايغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت مافى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم فيقولون ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال ، فيجىء مالك فيقولون له ﴿ ليقض علينا ربك ﴾ فيجيبهم : ﴿ إنكم ماكنون ﴾ فيقولون لأنفسهم ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فيجيبهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾^(٤).

هذه بعض أحاديث النار وما بنا أن نستطرد فنذكر شهادة أعضاء الجسم من يد ورجل وجوارح على الإنسان فذلك ما اشتهر بين الواعظين ! إنما نسرد ذلك عمدا لنذكر أن المتحدثين عن الجحيم من أئمة الأدب العالمى قد استغلوه فراج لديهم ، وأصبح فنا عالميا ! بينما سكت مؤرخو الأدب العربى عن تقديره الصحيح . بل إن كثيرا منهم قد احتفل بمشاهد القيامة فى رسالة الغفران أكثر مما احتفل بها فى حديث رسول الله ، وهو مع كتاب الله مصدرا أبى العلاء دون نزاع !

(١) التاج ج ٥ ص ٤٥١ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٤٥٢ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٤٥٣ .

(٤) التاج ج ٥ ص ٤٥٦ .

على أن أبدع ما في مشاهد الجنة والنار حوار الله لعباده ، فقد عبر رسول الله عن أعمق المعاني النفسية بين البشر عن طريق الحوار تعبيرا لم يدع مزيدا لمستزيد ، والحوار فن أدبي له أساتذته وأعلامه ، وهو في مشاهد القيامة لقطات تصويرية بارعة تكتفى باللمح والرمز والكناية عن الكشف الواضح بالتصريح . وذلك ما يكسب الموقف متعة وعمقا لأن الحوار إذا تحدث عن كل شيء ولم يترك للقارئ أن يستشف ويستنتج فقد أوثق أمامه عالم التصور ، وقيد أساسه بالمنظور الملموس أما إذا مال إلى الإيماء والرمز فقد أعطى للقارئ الناضج مفتاحا يلج منه عشرات الأبهاء ومئات الحجر ليري في كل زاوية ما يصوره خياله من لوازم وإيماض ! والأدب العالي في أرفع أنماطه يعتمد كثيرا على هذا الإيحاء الواصل ليقدم في السطور القليلة عشرات الخواطر والمشاهد والأحاسيس ، وفق تصور القارئ ودرجته من النضوج الذهني والإشعاع التصويري ! ولك أن تنظر إلى هذا المشهد الأخرى كما رسمه الرسول .

« عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتلسه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك ، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه للأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول أي رب أدنى من هذه الشجرة فلا أستظل بظلها وأشرب من مائها ، فيقول الله عز وجل يا ابن آدم . لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها ، فيقول لا يارب ، ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول أي رب أدنى من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لأسألك غيرها ، فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها ، لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها ، فيعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه ، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين ، فيقول أي رب أدنى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لأسألك غيرها ، وربه يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه

منها ، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول أى رب أدخلنيها فيقول يا ابن آدم ما يضيرني منك ، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ، قال : يارب أتستهزىء منى وأنت رب العالمين : فيقول : إني لأستهزىء منك ولكنى على كل شيء قادر « رواه مسلم ^(١) .

فهذا المشهد الرائع له أكثر من دلالات ، فمع دلالاته على سعة عفو الله ورحمته فإنه بحواره الجذاب يرمز إلى تجدد الآمال فى النفس البشرية ويعالج واقعا محسوسا لدى الإنسان فى كل عصر وفى كل مكان ، ألا يتمنى الإنسان شيئا فإذا حققه صبا إلى ما فوقه فإذا حققه تجددت الصبوة إلى شيء آخر ، وهكذا نظل فى سباق مع الأمنى حتى تنفذ الحياة . هذه الحقيقة الإنسانية الخالدة المتكررة قد أفصح عنها الحديث فكانت إحدى دلالاته الرمزية الكبيرة بمغزاها العريق ، أما اختيار الألفاظ لرسم المعانى فلا أبدع منها ولا أروع ، هذا الرجل الذى خرج من النار مستغيثا صارخا رأياه يمشى مرة ويكبو مرة و تسفعه النار مرة فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذى نجاني منك ! لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه للأولين والآخرين ، ألا يذكرنا هذا بما نشاهد فى دوامة هذه الحياة إذ يخرج الإنسان من أحد مآزقه ، كمعركة حرية أو سجن حكومى أو استجواب فى محكمة فلا يكاد يصدق أنه خرج . فهو يلتفت ويكبو ويتعثر حتى إذا شم ريح الحرية فى الحياة الفسيحة عد نفسه ذا شأن كبير جدا بحريته التى ردت إليه فيقول لقد أعطانى الله شيئا ما أعطاه للأولين والآخرين ، أما تدرج الآمال من صغير إلى كبير إلى أكبر حتى تصل بصاحبها إلى منتهى الآمال فى الجنة ، فذلك ما أجاد الحديث النبوى تصويره ، فمن مبلغ عشاق الأدب الرفيع فى كل أمة وفى كل لغة أن لدينا من فرائد المشاهد الأدبية فى آثار محمد بن عبد الله مانعجز أن نراه لدى المتنطسين من مشاهير الكتاب لعلهم يقرءون !

(١) التاج ج ٥ ص ٤٦٣ .

أما قصة جبريل مع الجنة والنار حين خلقها الله فمن أحسن ما تركه البيان النبوي من قصص ، حيث استطاع محمدآن يومية إيماء قويا إلى ما يكتنف الجنة من مصاعب ثقيلة على النفس حين تفتطم عن الشهوات وتفتنع بالحلال اليسير ثم إلى ما يكتنف النار من مغريات جاذبة شهية لدى النفس حين تقبل على الملذات الوبيئة مستمررة مستمتعة ! تلك معان دقيقة غاية الدقة ولكنها برزت لامعة واضحة في قول نبي الإسلام :

« عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ، فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع أحد بها إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فرجع إليها ، فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد ، قال اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فإذا هي يركب بعضها بعضا ! فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال ارجع إليها ، فرجع إليها فنظرها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها^(١) .

إن بلاغة الإيماء في هذا الأثر مع إيجازه الموحى لتتسع إلى صفحات كثيرة إن سيقت مساق الشرح والتفسير ! ولن تأتي الأقصوة الهادفة في سياق أحسن منها في هذا السياق !

على أن لكل من أهل الجنة وأهل النار نهاية محتومة لا شيء بعدها فلا بد أن يطمئنوا إلى مصيرهم الخالد نعيما أو جحيما ، فيعلموا أن كل إنسان قد أخذ مكانه ، وأنهم خالدون خالدون وأن الموت قد مات بعد الجنة والنار ! فلا خوف منه لفريق الجنة ولا راحة فيه لفريق السعير !! لم يتحدث الرسول عن

(١) الفاج ج ٥ ص ٤٦٦ .

ذلك حديثا تقريريا فيما نعرض ولكن تحدث عنه حديثا تصويريا فقال :

« عن ابن عمر عن رسول الله إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار أتى بالموت فيوقف على السور الذى بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة وأهل النار ، هل تعرفون هذا ، فيقولون قد عرفناه ، وهو الموت الذى وكل بنا ، فيضجع فيذبح على السور الذى بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود لاموت ويا أهل النار خلود لاموت ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾^(١) .



(١) التاج ج ٥ ص ٤٥٩ .

تأثير حديث المعراج في الأدب العالمي

يتابع علماء الأدب المقارن الصلات القريبة والبعيدة بين الآثار الأدبية في لغات العالم ، فيعقدون موازنات دقيقة بين مايلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الأفكار والأخيلة ناقدين محللين وكثيرا ماينتهدون إلى الحكم بالتأثير القريب أو البعيد في أثر من الآثار الدائعة حين يحللون عناصره الأدبية فيجدون بينها أصولا تمت إلى أثر أجنبي آخر ! وهذا شيء طبيعي في دنيا القول ، لأن الأفكار الأدبية والعلمية تتناقل وترحل في كل مكان ، والأديب أو العالم قارئ مثقف يلتقط مايعثر عليه إن قريبا وإن بعيدا ، وهو لا محالة متأثر بروائع مايقراء ، ولا يستطيع أن يمنع عن تفكيره وخياله مايرفدهما بالقوة والنماء ، وقد كان حديث المعراج الذي حكاه نبي الإسلام أحد هذه الآثار الأدبية الخالدة التي امتد تأثيرها إلى آداب أمم مختلفة ! والتي أحدثت دويا عاصفا بين علماء النقد المقارن حين لمسوا خيوطها البارزة في أكثر من نسيج فني ، ولعلنا نوميء إلى ذلك ببعض التفصيل !

إن كتب الأحاديث النبوية تروى عدة آثار خاصة بليلة المعراج فهناك روايات سنية عن أنس بن مالك تلقى بعضها عن أبي ذر ، وبعضها الآخر عن أبي هريرة ، وعن مالك بن صعصعة الأنصاري ! وهناك آثار شيعية عن الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب تلقاها عن أبيه عن جده عن علي عن رسول الله ! وهناك روايات لاتصل إلى درجة ماروى عن أنس وزيد رضي الله عنهما ! بل تظهر عليها آيات الوضع وعلائم الاضطراب ، ومن كل ذلك امتد حديث المعراج امتدادا كبيرا ، وأحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ! بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتابا ضخما برأسه ! ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الأحاديث المختلفة في رواية واحدة وجعلوا منها نسقا متصلا متلاحقا ، بل إنهم تعدوا أحاديث المعراج إلى مدار حولها من الشروح

ثم انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة ، فقرأه العلماء والأدباء ، وترجم إلى اللغات الأجنبية فأحدث دويه الرنان !

ونحن الآن في مجال إبراز التأثير القوي لحديث المعراج في الأدب العربي ، والآداب المختلفة نضع فاصلا بين ما صحت روايته عن الرسول أو رجحت ، وبين ما ضعفت نسبتة إليه لأسباب ذكرها المحدثون ! نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبتة إلى الرسول كان الأساس الأول لهذه الصورة الجميلة عن السماء والأرض والجنة والنار إذ أن محمدا ﷺ حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت أمام الأدباء مجال التصور الفسيح ! ومن هنا كان تأثيره المباشر في كل رحلة خيالية إلى السماء وإلى الجنة والنار ! أما ما ضعفت نسبتة إليه فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج ناسجين على منواله ، فلولا أنهم رأوا الكوى المضيئة بأشعة من حديث محمد ما استطاعوا أن يقولوا شيئا ! وهنا يكون الحديث الموضوع وليد تأثير من الحديث الصحيح ، فإذا استلهمه بعض الروائيين فإنما يردون موردا اشتق إبداعه وإلهامه من حديث صحيح ويمكننا إذ ذاك أن نسمى ماساق الوضاعون من حديث المعراج أدبا مصنوعا استلهم البيان النبوي ثم نقل تأثيره إلى أدباء العالم ، وهم بإنتاجهم المتشابه يعلنون بلسان النقد أن صاحب الإبداع الأول هو نبي الاسلام لامحالة ! وغيره قد احتذاه ...

وإذا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعراج بما هو معروف من مجيء جبريل إلى النبي ، وتقديمه البراق ، وارتقائه إلى السموات السبع ، فرؤية آدم ويحيى ، وعيسى ويوسف وإدريس ، وهرون وموسى وإبراهيم ، بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ثم مشاهدة أنوار رب العزة وفرض الصلاة خمسا بعد خمسين عقب مراجعة تنشيد التخفيف .. إذا كانت رواية أنس بن مالك تقف عند ذلك فإن رواية الإمام زيد بن علي وهو الفقيه المجاهد الشهيد العلم الثقة تفصل الأمر بوضوح مستوعب ! وهي بعد رواية محترمة عزيزة إلى إمام ورع متحرز ، وذلك نصها :

قال علي بن أبي طالب صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر يوما بغلس ،
فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : أفیکم من رأى الليلة شيئا ؟ قلنا لا يارسول
الله قال : ولكنى رأيت كأن ملكين أتيا نى فأخذا بضبعى فانطلقا بى إلى السماء
فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى وييد الملك صخرة يضرب بها هامة
الآدمى ، فيقع دماغه جانبا وتقع الصخرة جانبا ، قلت ما هذا ؟ قالا امضه ،
فمضيت فإذا أنا بملك وبين يديه آدمى وييد الملك كلوب من حديد فيضعه فى
شدقة الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فليشم الأيمن قلت
ما هذا قالا لى امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المراجل وعلى
حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها ، فيقع فيه فيشتعل
إلى أسفل ذلك النهر ، قال قلت ما هذا ؟ قالا امضه ، فمضيت فإذا بيت أسفله
أضيق من أعلاه ، وفيه قوم عراة تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفى من
نتن مأجد من ريحهم ، قلت ما هذا ؟ قالا امضه ، فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه
قوم محنيون تنفخ النار فى أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم
وعيونهم ، قلت ما هذا ؟ قالا امضه فمضيت فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك
لا يخرج منها شىء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلت ما هذا قالا لى امضه ،
فمضيت فإذا أنا بروضة خضراء وإذا فيها رجل شيخ جميل لا أجد أجمل منه ،
حوله الولدان ، وإذا أنا بشجرة ورقها كآذان الفيلة ، قلت ما هذا قالا امضه ،
فصعدت إلى ماشاء الله من تلك الشجرة فإذا أنا بمنازل لامنازل أحسن منها درة
جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء قلت ما هذا ؟ قالا لى امضه ، فمضيت
فإذا أنا بنهر عليه جسر من ذهب وفضة وعلى حافة النهر منازل لامنازل أحسن
منها من درة وزبرجدة وياقوتة وفيه أقداح وأباريق ، قلت ما هذا قالا لى انزل
فنزلت فضربت بيدي إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هو أحلى من العسل
وأشد بياضا من اللبن وألين من الزبد ، فقلا لى : أما صاحب الصخرة التى رأيت
الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانبا وتقع الصخرة جانبا فأولئك الذين كانوا
ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ويصلون الصلوات لغير وقتها ، فهم يعذبون بها
حتى يصيروا إلى النار ، وأما صاحب الكلوب الذى رأيت به ملكا موكلا بيده

كلوب من حديد يشق به شدقه الأيمن حتى ينتهي إلى أذنه ثم يأخذ في الأيسر فليلتشم الأيمن ، فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما البيت الذي رأيت أسفله أضيق من أعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار فأمسكت على أنفك من نتن ماتجد من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما التل الأسود الذي رأيت عليه قوما محنين تنفخ النار في أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا إلى النار ، وأما النار المطبقة التي رأيت ملكا موكلا بها كلما خرج منها شيء أتبعه حتى يعيده فيها فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار ، وأما الروضة الخضراء التي رأيت فتلك جنة العامة ، وأما الشيخ الذي رأيت لا أجد أجمل منه حوله الولدان فذاك أبوك إبراهيم ، وأما الشجرة التي رأيت وطلعت إليها فيها منازل لامنازل أحسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، وأما هذا النهر الذي رأيت فنهرك الذي أعطاكه الله وهذه منازلك ومنازل أمتك ، ثم نوديت من فوقى يامحمد سل تعط ، فارتعدت فرائصي ورجف فؤادي واضطرب كل عضو مني ولم أستطع أن أجيب شيئا ، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها بين ثديي وأخذ الآخر فوضع يده بين كتفي فسكن ذلك مني ، ثم نوديت من فوقى ، يامحمد سل تعط ، سل تعط ، قال ، قلت اللهم أسألك أن تثبت شفاعتي وأن تلحق بي أهل بيتي وأن ألقاك لا ذنب لى ^(١) «

هذه بعض المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكان من المنتظر أن ننقل حديث ابن عباس بدل حديث زيد بن علي . حيث يتضمن كثيرا من مشاهدته ولكن المحدثين قد ردوه مع واردوا من روايات ضعيفة

(١) المعراج للقشيري تحقيق الدكتور عنى حسن عبد القادر من ص ٣٩ - ٤٢ .

ذكرها الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٨ من كتاب المعراج ، كما ذكر الدكتور بعض مصادر الروايات الصحيحة ص ١٣٧ ، فحديث المعراج إذن كما روته الروايات الراجحة ، ولخصه حديثاً أنس وزيد ، يعتبر فتحاً مبتكراً في عالم البيان التصويرى ، تمخض عن الجديد الطريف ، وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب حديثاً آخر ينحو نحو حديث زيد في لبابه ، فيتحدث عن رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله في شذقه ، وعن رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر ، وعن رجال ونساء عراة في تنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد ناراً عليهم ، وعن نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل يحمل أحجاراً فكلما اقترب سابح النهر رجمه فيرجع ، وعن روضة خضراء ذات شجر مزهر وبها دار وشباب وشيوخ .. ثم فسّر جبريل في حديث البخارى جميع مايرمز إلى ذلك بما لا يخرج عن الإجابة في حديث زيد ، وإنما ألمعنا إلى ذلك لتزليل الشك من صدور لاتزال تقابل بعض روايات الشيعة بالصدود . وهى فى ذلك واهمة مغرقة ، لأن أئمة الشيعة المخلصين من أمثال زيد بن على وجعفر الصادق لا يمكن أن يرتقى الشك إلى أقوالهم ، وإذا وجد فى الشيعة مغالون مغرضون ، فلن يذهبوا بفضائل الأئمة المخلصين . وقد جرت سنة الله أن يوجد الباطل مع الحق فى كل شىء ، وفى رجال الدين من شيعة وسنيين .. وقد آن لنا فى مجال البحث العلمى أن ننصف إخواننا فى الإسلام دون أن نأخذ اليرىء بإثم الظالم ؟ ولعل الأزهر الشريف قد فطن إلى ذلك حين قرر دراسة فقه الشيعة بكلية الشريعة كى يلتقى المسلمون على نهج سواء !

لاجرم أن مشاهد القيامة فى القرآن قد صورت اليوم الآخر تصويراً لاينفذ سحره ، ولكن القيام برحلة فى عالم الغيب مما أبرزه حديث المعراج لأول مرة فى الأدب العربى ، وقد استغله الخطباء والواعظون فى مواقف الترغيب ، والترهيب ، وليس هنا مجال القول فى ذلك ، ولكننا نبحت عن التأثير الفنى الخالص فى الأدب العربى أولاً ثم فى غيره من الآداب !

أما الأدب العربي فقد كان أبو العلاء أبا عذرة الرحلة الخيالية به إلى الجنة والنار في رسالة الغفران حيث استهلها بزيارة للفردوس تصف شجره وانهاره ، ولبنه وخمره وأوانيه التي شكلت على هيئة الطير السابحة من كراكي ومكاكي وطواويس ، فبعض في الجارية ، وبعض على الشط ينبع من أفواسها شراب كأنه من الرقة سراب . فإذا قذفوا الأواني في الأنهار سمع لها أصوات بمثلها تبعث الأموات ، ثم أخذ يتحدث عن تخيلهم بالفردوس من الشعراء كزهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص ، والهدلي ، والنابعين مناقشا إياهم فيما ينقده من أدبهم المأثور ، ويضر به رف من أوز الجنة ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم ويناقش ويغنى ليسمعه لبيد والجمعي والأعشى ، ثم يقابل حسانا فينقد بعض ماقاله ويتطرق فجأة بصاحبه إلى يوم الموقف في يوم مقداره خمسون ألف سنة وبه يطول الأمد ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلأأ هو حمزة بن عبد المطلب فيرسل معه رسولا إلى علي بن أبي طالب ليخاطب النبي في شأنه ، فيمر بأبي علي الفارسي في حلقة من الأدباء يناقشونه تخريجاته النحوية والصرفية إلى أن يصل إلى علي فيسأله عن التوبة ، ثم يرد الحوض ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتسترحم أباها ، فيشفع له ، ويعبر الصراط إلى الجنة فيحاور رضوان قبل دخوله ، ثم يلج إلى نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ، وليبدأ ، ويقوم لهما ولزملائهما من الشعراء مأدبة حافلة بما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، فيجتمع خلق كثير فتوضع الخون من الذهب والفواثير من اللجين فإذا قضا الأرب من الطعام دار الشراب والغناء وتحدث الأدباء ! ويعبر طاووس من طواويس الجنة يرون مرآة حسنا فيشتهيه

أبو عبيدة مصوصا فيتكون كذلك في صفحة من الذهب فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه إلى بعض ثم يعود طاوسا كما بدأ ، ويمر ملك كريم فيعطيه ثمرة من شجر الحور رمانة أو تفاحة أو ماشاء الله من الثمار ، فيكسرها فتخرج منها حورية عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان وتقول له : إنني أتمنى لقاءك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة ، ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ، فيرى في الطريق جنة العفاريت المؤمنين بمحمد

والمذكورين فى سورة الأحقاف ، فىسمع أشعار الجن وىشهد صرع فتاة تصور لها الجن فى صورة فأر ، ثم فى صورة صل ، ثم فى صورة رىح وىتساءل عن لغة الجن وحديث الرجم . وىرى بعض آساد الجنة وىحدث الحطیئة وقد جلس فى أهون منازل الجنة . فإذا وصل إلى أقصى مكان بها وجد الخنساء تجلس هكذا لترى أباها صخرا یعذب فى جهنم ، فإذا أطاف بالنار رأى إبليس یضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أیدی الزبانية ، ثم یصطنع على لسانه فكاهة سمجة ماكان أخرى أبا العلاء باجتناها فى مثل هذا الموقف ، وىرى بشار بن برد فى أصناف العذاب یغمض عینیه حتى لا ینظر إلى منازل به من النقم فتفتحتها الزبانية بكلالیب من نار ، فىحدثه مع زملائه المعذبین من أمثال امرىء القیس ، وعنترة ، وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفه ، وأبى كبیر ، والأخطل وإبليس یسمع ذلك الخطاب كله فىقول للزبانية : « مارأیت أعجز منكم إخوان مالك ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا یعنیه فلو أن فىكم صاحب نحیزة قوية لوثب وثبة حتى یلحق به فىجذبه إلى سقر ، فىقولون لیس لنا على أهل الجنة من سبیل . ثم یقابل المهلهل ، والشنقرى ، وتأبط شرا ، وبعد الرحلة الجهنمية یقفل إلى فردوس یحلور آدم وذات الصفا ، ثم یضرب فى غیطان الجنة لیقابل حوریهة التى انشقت عنها الثمرة ویتكىء على مفرش من السندس وىأمر الحور العین أن یحملنه فىضعنه على سریر ذهبى فى الجنة فىحمل إلى محله وكلما مر بشجرة نضحته اغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور ! » .

رحلة رائعة التصوير محلقة فى القمة من عالم الفن ولو رسمنا مشاهدنا فى لوحات فنية كما رسمت مشاهد الكومیدیا الإلهية لأمكن أن تقارن بها . وأذكر أن فریقا من أساتذة الأدب المقارن قد تلاحوا بصدد تأثير أبى العلاء فى دانتى ، فمن مثبت هذا التأثير متعلل بما عرف من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصلیبية وبعدها عن طریق مصر والشام وصقلية والأندلس ! فلا بد أن تكون رائعة أبى العلاء مما ترجم وقدم إلى دانتى فهضمه . وتلك قضية یتعذر فیها وجه

لحق ، وبخاصة إذا علم أن دانتى لايمكن أن يصبر على قراءة قصة عسيرة الفهم لدى غير متخصص فى علوم العربية إذ أن رسالة الغفران تضم من النقاش النحوى والصرفى واللغوى ما يخفف كثيراً من رونقها .

بل ما يجعل تقديمه فى ترجمة أجنبية نوعاً من الألباز الغامضة . والذين قد تلاخوا بصدد تأثر دانتى بأبى العلاء كان عليهم أن يتجهوا إلى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدر الأول لأبى العلاء باتفاق ، أما كونه المصدر الأول أو أحد المصادر الهامة لدانتى فهذا ماسيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ دانتى جحيمة ذاكرة أنه كان يضرب على غير هدى فى تيه لا أول له ولا آخر إذ يضل فى غاية مظلمة تعج بالأفاعى والوحوش ، وقد أنقذه فرجيل من أحد الكواسر بعد أن كاد يمزقه . وقد دلفا معاً إلى الجحيم فسمع دانتى أنين المعديين فسأل عنهم فرجيل فأجابه أنهم الذين قضوا حياتهم فى لهو لا يعبأون بأوامر الله ! ثم رأى الجبار (خارون) منتصباً كالوحش فى زورق ينقل أرواح الأشقياء من عدوة إلى عدوة فدارت الأرض برأس الشاعر من هول مشهده ثم دوى رعد قاصف أنقذه من غيبوبته ، فانطلق مع صاحبه إلى دركات الجحيم . دركا وراء درك ليرى بعض القوم تعصف به ريح السموم ، وتثره كما ينثر الريش فى يوم عاصف ، ويرى أصحاب المطاعم المنكرة تنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ، ويمزق أجسادهم الكلب سيرسيروس بأنيابه الحداد ، ثم يعبر دركا آخر ليرى نهراً من الدم تسبح فيه أرواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات ، ثم يرى فى درك آخر عصابة من المزورين المختلسين يسبحون فى حديد يغلى بالقار وحراسهم زبانية قباح الوجوه . أما المنافقون فيرتدون عباءات من نار وطراطير من جمر . وقد فجر دانتى فجوراً خسيساً سافلاً حين أعماه التعصب فجعل نبي الاسلام — أكرم خلق الله وأشرفهم على الإطلاق — بين أهل النفاق من المعديين ! وذلك ما ينتظر من كاثوليكي متعصب ظل يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دون أن تستأصل المسلمين .. ثم يشهد زمهرياً من ثلج وبرد وماء يلف الآثمين فى قرار الدرك التاسع ، وحيثئذ ينتهى الجحيم ويصل إلى

المطهر فيهب عليه أول أنفاس الفجر المرطب بالندى ويرى النجوم تتألق في
بنفسج السماء ولجة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ينهض فوقها جبل شامخ رفيع
الذرى^(١) ، ثم ينظر دانتى فلا يرى إلا خياله حين تشرق الشمس منبسطا على
السفح من ورائه ، فينزعج ويحسب أن فرجيل غادره ورحل ولكن فرجيل
يطمئنه ويخبره أن أرواح الموتى أضواء شفافة لا ظلال لها كما يكون لأهل الدار
الفانية ، ثم ينطلقان ليقابلا عشرات الناس من أعلام الأدب والسياسة ، والحب
والدين في أوروبا ، وحولهما ضجيج الأرواح الهائمة تلغظ جميعا بهراء من
الحسد والأحقاد القديمة ، إلى أن يصلا إلى شجرة باسقة ذات طلع نضيد ،
وفاكهة حلوة يفوح عبيرها ، وفي أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده
وتشكر له مارزقها من عفة . والناقدون يرون سدرة المنتهى في المعراج هي
التي ألهمت دانتى صورة هذه الشجرة وترى الأرواح الهائمة في النار ظل دانتى
على اللهب فتدهش لوجود حَيٍّ من الدار الفانية في هذا المكان . ثم يلتقى
الشاعر بحبيته بياتريس فتكشف له عن شؤون غيبية كثيرة ويظلان يتحدثان عند
نهر يونو ، فإذا انتهى من المطهر سما إلى الفردوس فاحتسى جرعة نزعته مافي
نفسه من أدران الدنيا ، وجعلت جسمه هلاما شفافا وهيولى نقية ، كى يرقى في
السماء دون عائق ، ومضى في رحلة سماوية إلى كواكب عطارد والزهر
والمريخ والمشتري ليحدث من أدخلهم الجنة من ذوى محبته مثل : جوستنبان
امبراطور روما ، وشارل مارتل قائد النصرانية في معركة بلاط الشهداء ، وطائفة
من أرواح شهداء النصرانية في الحروب الصليبية يمرحون في أفياء الجنات
الوارفة التي يهتز عنها المريخ ، ومثل بندكت ، وداميانو ، وبطرس ، ويوحنا من
كبار القديسين . ثم يرى السيد المسيح وفي أثره مريم البتول ثم يدخلان سماء
المنتهى — بهذا التعبير القرآنى — ذات الضوء الوهاج فيقف قليلا ثم يفيق من
رؤياه وتنتهى الرواية .

(١) من ترجمة الأستاذ د . خ من مجلة الرسالة أعداد يوليو ، وأغسطس سنة ٣٦ .

تلك هي الخطوط الواضحة في كوميديا الشاعر ، وأثر حديث المعراج بها أوضح من أن يدل عليه ، فهو يتجلى في تكوين الهيكل العام للكوميديا من رؤية المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن أدوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحار الدم والصديد . ومن سرد طائفة من المقابح ومأعد لها من العقاب . ومن غير ذلك مما يستشفه القارىء من خلاصتنا المركزة التي أوجزنا بها خطوط الكوميديا الإلهية ، وقد قامت معركة حامية بين المستشرقين ما بين منكرين لتأثير حديث المعراج ، ومثبتين له حتى عشر على مخططات قديمة لحديث المعراج ترجمت قديما إلى اللاتينية قبل زمان الشاعر مما يثبت إلمامه بها في لغته ووطنه ، ولهذا الكشف الأدبي الجليل قصة طريفة لامناص من الإشارة إليها بإيجاز .

لقد عاش دانتى فيما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ورحل عن الحياة متمتعا بصيت أدبي رنان إذ اعتبرت ملحمة الإلهية أنضج ثمار الأدب الإيطالي في جميع عصوره وظلت موضع المباهاة لدى قومه ، فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهمك أحيانا — من يسعى لإيجاد مقارنة بينها وبين النصوص العربية أو اليونانية ، ويرون ذلك محاولة للنيل من شاعر مبتدع جل أن يقرب إلى نظير ، ولكن عشاق المعرفة فى كل مكان لا يزالون بإشباع الغرور القومى لدى بعض الطليان ، فهبوا فى القرن الماضى يعقدون الدراسات المختلفة بين المتشابهات من أمثال ملحمة ، فرجيل وحديث المعراج ، ورسالة أبى العلاء . وتتوالى الردود عليهم من المعارضين دون أن يتقدم البحث خطوة إلى الأمام ، حتى جاء المستشرق الأسباني العظيم الأستاذ آسين بلاثيوس ، سليل أبناء الأندلس الذين أشرقت بحضارتهم الإسلامية أوروبا فى عصور الظلمات ، فأخذ على عاتقه أن يترهب رهبة متصوفة فى البحث عن تأثير أجداده العرب من الأندلسيين فى آداب العالم وثقافته ، ووصل فى بحثه إلى نتائج مذهشة تثبت تأثير بثولوجية ابن رشد فى سان اكوينتس ، وابن عربى فى ريموندلال ، وإخوان الصفا فى فرانس انسلموا ، وجاءت خاتمة أبحاثه تعلن تأثير القصيدة الإسلامية فى كوميديا

دانتى . إذ ساعدته دراساته العربية العريقة أن يتبع أكثر خواطر الشاعر معقبا عليها بنظائرها فى القرآن والحديث وقصة المعراج ، وبعض آثار ابن عربى المتصوف الأندلسى وكان ماقدمه بلاثيوس من النصوص الإسلامية مذهلا للكثيرين ممن كانوا يؤمنون بأفكار دانتى وطرافة خلقه الفنى . ولكن مجال الأفكار بعد ذلك لايزال متسعا إذ أن هناك سؤالا لايجد الجواب الشافى وهو كيف تطرقت المعارف الإسلامية إلى الشاعر الإيطالى الكبير . ولو كان الجدل المقارن وحده مجال الترجيح لانحسم النزاع لأن تحليلات آسين بلاثيوس كانت من القوة بحيث لايتطرق إليها اللبس ، ولكن المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت إمام دانتى بالثقافة الإسلامية يرفضون كل جدل منطقى مقنع ويودون مايلمس باليد لا مايدرك بالعقل ، ولم يستطع البحاثة الكبير بلاثيوس أن يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها كما مات القراء وفى نفسه شىء من حتى ..

ولكن الحق لم يعدم أنصاره إذ اجتهد بعده المستشرق الإيطالى الأستاذ مونيرى دى فيبار فى تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غريبتين مخطوطتين لقصة المعراج كما رواها أهل الحديث النبوى كتبت أولاهما بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد وكتبت الأخرى باللغة اللاتينية وحفظت بالمكتبة الأهلية بباريس ، وجاء بعده الأستاذ الإيطالى تشيرولى ودرس المخطوطتين فأكد وجهة نظر الأستاذ مونيرى ، ومن قبله بلاثيوس وسارع بنشرهما مضيفا إليهما ماتتطلبان من الحواشى والتفسيرات لتوضيح مسألة التأثير وتوالى البحث ظهر أن كلتا المخطوطتين ترجمت عن القشتالية من العربية إذ قام بترجمة القصة إلى القشتالية طيب يهودى كان ببلاط الملك الفونسو بأشبيلية سنة ١٢٦٤ م يدعى إبراهيم الفقيم ثم نقلها فى أثره إلى اللاتينية والفرنسية معا الكاتب الإيطالى بونافنتورا الذى كان سكرتير الفونسو (١٢٢١ — ١٢٧٤ م) .

لقد وقعت في أيدينا الوثيقة المطلوبة إذن ، ولو عثر عليها بلاثيوس لعد نفسه أسعد باحث خدم قضية غامضة ، فسلط عليها من الأشعة مايجلو الغموض ، ولكن الذين تم على أيديهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على إروائها وتنميتها بعد أن مهد الأرض وقواها بالحرثة والتسميد .. وبهذا أصبح مؤكدا لدى العلماء أن دانتى وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتأثر به في نظمه وتفكيره وخياله أوضح تأثير .

يقول المستشرق الإيطالى الكبير الأستاذ امبرتو ريزتيانو الأستاذ بجامعة القاهرة من بحث نشرته مجلة الرسالة بافتتاحية العدد (٩٤٠) مانصه :

« هذا وقد يتساءل الباحث عما إذا كانت ترجمة من هذه التراجم الثلاث كانت معروفة في إيطاليا أثناء القرون الوسطى ، والإجابة في هذه المرة لا بد أن تكون بالإيجاب إذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج في كتابين من مؤلفات كاتبين إيطاليين عاش أحدهما في منتصف القرن الرابع عشر ، وعاش الآخر في أواخر القرن الخامس عشر ، وليس هذا إلا دليلا على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب في بلاد أوروبا ولاسيما إيطاليا في القرون الوسطى ، وهذا ولم يقتصر المستشرق تشيرولى على نشر الترجمتين الفرنسية واللاتينية وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب ، بل أضاف قسما ثالثا جمع فيه كل الشواهد التى تثبت هذا الانتشار وعلى رأسها حوار جرى بين محمد صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن سلام ، ترجمه إلى اللاتينية أرمانوالد عاطى سنة ١١٤١ نقلا عن الكتاب المعروف « رد الكلام فى مسائل عبد الله بن سلام » ، وقد يتساءل الإنسان كذلك عن قيمة البحث الذى قام به تشيرولى ، والإجابة عن ذلك أنه نجح كل النجاح فى إيضاح المسألة التى أثارها بلاثيوس كما نجح فى وضع هذه المسألة على أساس أمتن من الأساس الذى وضعها عليه المستشرق الأسباني . »

وأظن المتتبع لأدوار هذه القضية بإنصاف وحيدة لايسعه إلا القول بتأثير حديث المعراج فى أروع تحفة يفتخر بها الإيطاليون ، ويقيمون لدانتى كل عام مهرجانا تذكاريا لإبداعها ، ويرصدون الجوائز الأدبية باسمه من أجلها وكأنه بها فى رأيهم أعظم أديب عرفه التاريخ .

أما أثر المعراج فى الأدب الفارسى فما أوضحه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس . وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألما بحياة نبيهم ، ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية ، ومن أشهرهم فى ذلك شيخهم الشاعر الأكبر سنائى صاحب كتاب الحديقة ، ومثنويات كنوز الرموز ، وحديقة الحدائق ، وسير العباد إلى المعاد وغيرها ، وقد اتصل فى صدر حياته بملوك غزنه إلا أنه تزهد وتصوف وحج على قدم التجريد . وهنا تدفق الطوفان الإبداعى على لسانه شعرا تردد على ألسنة معاصريه ، وتعلمذ عليه من سلك سبيله من بعده ، أما معراج سنائى فقد نشره فى كتابه (سير العباد إلى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطت فيه إلى أصلها الإلهى ومقرها الأخير . فى رحلة تصور مقامات المتصوفة وأحوالهم تصويرا ، يدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خفايا رموزهم ودقائق ألفتهم ، وإذا كان سنائى قد سبق دانتى فى الزمن فإن المستشرق الأستاذ نيكلسون قد عقد بينهما مقارنات تدل على استقاء الشاعر الإيطالى^(١) من معين الفكر الإسلامى ، وإذا كان اطلاع دانتى على روائع سنائى لا يزال افتراضا ، فإن اطلاعه على حديث المعراج النبوى قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل إلى ضياء اليقين الجازم ، وقد تأتى الأيام المقبلة بالجديد من تأثير سنائى إذا طرد البحث على وجهه النزيه ..

أما متصوفة الأدب العربى فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية ، وأنوارها السماوية دون شك ، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما محيى

(١) كتاب المعراج ص ١٣ .

الدين بن عربي الأندلسي ، وأبو يزيد البسطامي ، فالأول في الفتوحات المكية قد ذكر عن العرش والسدرة وأنوار ذى الجلالة مايجد أصله في الصحيح من حديث المعراج والموضوع معا ، والطريف أن الأستاذ نيكلسون يجعل دانتي متأثرا أيضا بابن عربي في ذلك ، ويفيض في مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها ، وقد أشار إليها الدكتور مبارك في الجزء الأول من التصوف الإسلامي ص ٢٠٧ نقلا عن غيره ، أما أبو يزيد البسطامي ، فقد نشر الدكتور علي حسن عبد القادر نص معراجه ملحقا بكتاب القشيري ص ١٢٩ ، وهي رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات في صور حية تنطق بالبراعة والإبداع . ويقول في مطلعه :

« إني رأيت في المنام كأنى عرجت إلى السموات قاصدا إلى الله ، على أن أقيم معه إلى الأبد ، فامتحننت بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومن فيهما إذ بسط لي بساط العطايا نوعا بعد نوع وعرض علي ملك كل سماء ، ففي ذلك كنت أغضى بصرى عنها ، لما علمت أنه بها يجربني فكنت لألتفت إليها إجلالا لحرمة ربي ، وكنت أقول في كل ذلك ، ياعزيزي ، مرادى غير ماتعرض على » .

ثم مضى أبو يزيد يذكر مارآه في السماء الدنيا من طير أخضر نشر جناحا من أجنحته فحملته إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد إلى مقر الأملاك فألهم كلمات قالها ثم صعد إلى السماء الثانية فرأى فوجا من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأميرها وتقدم إلى روضة خضرة تحوى نهرا وحوله ملائكة يطفرون إلى الأرض كل يوم مائة ألف مرة ، وعلى حافتيه أشجار من نور ولها أغصان كثيرة متدلية في الهواء وفي كل غصن وكر طير وفي كل وكر ملك ساجد . فترك ذلك إلى سماوات أخرى فإذا جميع الملائكة يسلمون عليه ، وإذا ملك منهم له أربعة أوجه وجه يلي السماء ووجه يلي الأرض ووجه يلي الملائكة ووجه يبعث بجنوده يسبحون الله في كل مكان ، ثم نشر جناحا من أجنحته فإذا على كل ريشه من ريشة قنديل يظلم ضياء الشمس في ضوءه وقد أغواه الملك بأشياء ترفع عنها إذ أن مراده الأسمى يجعل عن الإغراء ،

ثم ارتقى فجلس على كرسى فوق شاطيء بحر عجاج لا أول له ولا نهاية فآلهم
التسييح مشغولا بذكر الله عن كل شيء . فإذا ملائكة قيام فى السماء رءوسهم
فى أجواها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة فرد
عليهم بلغاتهم جميعا . وما زال يرتقى ويطير ويجول مملكة بعد مملكة ، وبحرا
بعد بحر ، حتى انتهى إلى الكرسى فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم
السموات يبرق من كل عين نور تلمع منه فتصير تلك الأنوار قناديل حيث يسمع
من جوف كل قنديل تسييح وتهليل ، ثم لم يزل يطير حتى انتهى إلى بحر من
نور يظلم ضياء الشمس فى أشعته ، وعلى البحر سفن نورانية أخذ يعبر عليها
سفينة سفينته حتى رأى حملة العرش من الكرويين قال أبو يزيد « فلما علم
سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد نادانى إليه ثم سقانى شربة من عين
اللطيف بكأس الأنس ... ثم قابل روح محمد فسلم عليه وأوصاه .. » .

تلك خيوط من معراج البسطامى وقد قيل عنه إن أبا يزيد يذكر ما يذكر على
لسان الحال لا الوقوع ليقرب إلى الوجدان بعض أحاسيسه . ولانملك الحكم هنا
على أحوال القوم إنما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى الصوفى
الكبير .

إن حديثا نبويا — كحديث المعراج — يترك دويه فى الآداب العربية
والفارسية والأوربية وغيرها لجدير أن نفسح له أطياب مكان ، فى رسالة تتحدث
عن أدب محمد بن عبد الله !



محمد رائد الدعوة والدعاة !

تستمع إلى من يتحدث في موضوع جلل ، فتعجبك كثرة مادته ، وانطلاق لسانه ، وتشقيقه للقول في شتى مناحيه ، ثم ينتهي الحديث ، وترجع إلى بيتك فلا تتذكر عن الرجل إلا أنه قال كثيرا ، ودل على تمكن وسعة اطلاع ، ثم تستمع إلى إنسان آخر في موضوع جلل ، فلا يريد أن يغمرك بالمادة الغزيرة ، ولا يتباهى بتوليد الكلام وتشقيقه ، ولكن تلمس في قوله حرارة وإيمانا يشدانك إليه ، فأنت معلق به لا يحدد طرفك لحظة عنه ، وإن حديثه ليسرى إلى قلبك فيفتح نوافذه ، ويضيء أماكن الظلمة في أعماقه . فإذا انتهى من حديثه شغلك بنفسك ، وعدت إلى منزلك وخياله نصب عينيك ، ولكلماته في خاطرك وقع الأجراس .

ماالفرق بين المتكلم الأول والمتكلم الثاني .

الأول رجل محترف قد يكون محاميا ، وقديكون محاضرا ، وقد يكون خطيبا كلف من غيره أن يتحدث في موضوع يحتمه الموقف ، فاستعان بذكائه على تديج كلمة كثيرة الحجج متشقة الفروع ، دلت على علم وذكاء ، فإذا فرغ من مهمته أحس أنه مثل دوره وانتهى .. وربما التمس الأجر عند من وكلوه وأقاموه .

أما الثاني فمؤمن عظيم الإيمان بقضيته ، غيور أعظم الغيرة على موضوعه ، وقد تشبعت به نفسه ، وتشربه وجدانه وجال في أعماقه وسرى في عروقه ، فإذا تكلم نقل عن ذات نفسه ، وظهر انفعال الصدق في وجهه ونبراته وإشاراته فإذا كان يلزم جانب الحق فيما يقول أمدته ذلك بقوة لا تكتسح ، وذخيرة لا تنفد ، ففي كل غرض من أغراض الحياة دليل على صدقه ، وفي كل هاجس من هواجس النفس برهان على يقينه . ذلك الذي يشد أعصابك إليه . فإذا رجعت

إلى بيتك ظل موقفه بهيئته وإشاراته ، وكلماته ونظراته نصب عينيك . وكأنه لا يزال فى مكانه يتحدث ويفيض .

الرجل الثانى داعية يجاهد فى قضية قد اعتقد صدقها ودعا الناس إلى اعتناقها ، وجعلها شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، فهو يتحدث عنها على المنبر ، وفى حلقات الاجتماع ، وفى الطريق بين أصحابه إذا سار ، ثم هو يستغل كل سانحة وخاطرة ليتخذها تكأة لموضوعه ، وينتهز كل حادثة ليلقى عليها بما يحقق هدفه . مستعينا بشتى المؤثرات من قصة أو مثل أو تاريخ .

قد يكون الخطيب داعية . ولكن ليس كل خطيب داعية . لأن الخطيب قد يكون محترفا يؤدي دوره كما يراد لا كما يريد . وقد يكون المحاضر داعية ، ولكن ليس كل محاضر داعية فقد يهزك المحاضر بترتيب أفكاره وسعة اطلاعه وكثرة مصادره ، ثم هو بعد ذلك يدرس منهجا فرض عليه دون أن يلمس شغاف نفسه ، أما الداعية الناجح فلا بد أن يكون مؤمنا عظيم الإيمان بما يقول غيورا أعنف الغيرة على ما يعتقد فإذا وجد من الدعاة من يحترف الدعوة على غير حمية وإيمان . فهو دخيل زنيم ، لن يصيب تأثيرا حاسما فى قومه ، أو نجاحا إيجابيا فى هدفه . وستمضى الأيام عليه فإذا هو أمام الناس منكشف غير مستور .

الداعية قدوة فى كل شئ ، قدوة فى قوله فلا ينطق بغير ما يعتقد ، قدوة فى عمله فلا يفعل ما يستهجن ، قدوة فى خلقه فلا يهبط إلى ما يشين . وهو حين يلزم نفسه بالدعوة قد احتل منابر الصدارة وأصبح موضع النقد والمحاسبة . وإذا كان الحديث عن محمد الداعية يوجب على المؤرخ أن يوضح كيف كانت قدوته للناس فى القول والعمل والخلق فإن الذى يقصر موضوعه على بيان محمد وحده لن يتعرض لغير جانب القول من جوانب الداعية لأنه ذو الصلة الأكيدة بموضوعه الأدبى . وهل يكون الأدب — لعمرى — غير حديث يكتب أو يقال .

لقد اهتم العصر الحديث بالدعوة ، وأطلق عليها كلمة الإعلام ، ومنذ قريب كنا نجد الكتب العالمية تبنى وتعيد في أساليب « البروباجندا » مفصلة قواعدها وأصولها ، ومبينة ما تركز عليه من علوم النفس والاجتماع والسياسة . وكلها ترسم الطرق لنجاح الدعوات التي ينهض بها الزعماء والمفكرون . بل إن أول معهد للبروباجندا أنشئ في العالم كان لبحث الوسائل المغرية بنشر المسيحية والدعوة إلى تعاليمها . وقد أنشأه البابا غريغوريوس الخامس عشر بروما منذ ثلاثة قرون ، ولا يزال قائما إلى اليوم . وقد أنشئت على غراره معاهد أخرى للدعوة من سياسية ، واجتماعية ، ودينية في شتى بقاع العالم ، ووضعت لها المناهج التي تكفل للداعية طريق النجاح . ومحمد ﷺ أكبر داعية ديني في العالم لم يتقن أساليب الدعوة في معهد . ولكنه حقق بدعوته المثلى أحسن طريق للداعية الشريف المجاهد ، فكانت أقواله وتعاليمه بريئة من الخداع والتمويه وهما بعض ماتقره الأساليب الأوروبية إلى يومنا هذا . إذ أن الغاية تبرر الوسيلة في اعتقاد القوم ، لا يتخافتون بذلك خجلين بل يعلنونها في دساتيرهم المنشورة ، ورائدهم في ذلك السياسي الشهير ميكافيلي ، الذي ذاع مذهبه وراج عن غير جدارة أصيلة . حتى اشتق من اسمه صفات غير كريمة إذ أصبحت الميكافيلية في اللغة مرادفة للوصول والانتهازية والتسابق غير المشروع إذا ضمن الكسب والجاه . على أن ما برعت فيه البروباجندا الغربية من وضع خطوات للإعلام مع تقدم الزمن وازدهار الحضارة لم يكن بعيدا عن خطوات محمد الداعية ، مع إيجاد الفارق الكبير بين المسلكين إذ أن خطوات « البروباجندا » الغربية كانت ولا زالت تقصد النفع الحزبي أو الشخصي أو القومي مهما ترتب عليه من ظلم وعسف للآخرين ، أما خطوات الدعوة النبوية فقد كانت تقصد النفع الإنساني العام بحيث لو أدى إلى ظلم إنسان مافهى حيل منكرة لا يقرها نبي الإسلام إذ أن مهمته ﷺ في طريق الإنسانية أن يمهد السبيل بإزاحة جميع الأشواك والنصخور . لأن يميظ الأذى عن مكان ليدفعه إلى مكان .

تنص دساتير الدعوة الأوربية على أن أعظم وسائل النجاح في الإعلام يرجع أول ما يرجع إلى تكرار الموضوع الذي يراد جذب الأذهان إليه في كل مناسبة ليتمكن من النفوس بالترداد ، ثم إلى تهيئة الموقف بانتهاز الفرض السانحة للدعوة ، ثم إلى لباقة العرض وحسن تهيئته مع الإلمام الكثير بأهواء النفوس ومطارح الرغبات من الناس ، هذه أشياء أربعة يجمع عليها أساتذة الإعلام والتعبئة في العصر الحديث ، فلننظر كيف نهض بها أستاذ المصلحين من الدعاة محمد بن عبد الله .

أولا : التكرار

إذا اتجه قادة أمة من الأمم إلى اعتناق فكرة ما ، هبوا لها وسائل الإذاعة من نشر في الصحف وبسط في الكتب ودعوة في المذياع ، حتى يتكون الرأي العام بما يصب إلى سمعه ويعرض على عينه صباح مساء .

وما قامت النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا وغيرهما من الدعوات في شتى بلاد العالم ، إلا بسبب جارف من التعبئة يعتمد على التكرار والترديد ، والتكرار سلاح ذو حدين فقد يكون ناجحا مثمرا إذا طرق النفوس من أبواب ملونة ، وقد يكون مبعث السأم والضيق إذا فقد التلوين في العرض ، والإبداع في التصوير حتى ليؤدي إلى عكسه بانصراف الناس عن فحواه ، ومحمد الداعية الأكبر لا بد أن يلجأ إلى التكرار في تعاليمه ولكن أي تكرار يرتضيه ؟ أهو التكرار الآلي الذي يردد الأقوال متشابهة في اللفظ دون تلوين ؟ لو فعل ذلك ما كان أفصح البلغاء بحال ، ولكنه تكرار المغزى الواحد في صور مختلفة من القول تتغاير ألفاظها ومعانيها ولكنها تهدف إلى شيء واحد ، وإذ ذلك يتأملها جميعها السامعون ، وقد وجدوا في كل نص عنصر تشويق في العرض والتلوين ، ولنقدم بعض الأمثلة الواضحة لما نقول :

(١) دعا الإسلام إلى خلوص النيات ، واتجاه الأعمال إلى الله لا إلى الناس ، إذ أن خلوص العمل لله وحده يصرف المسلم عما سوى الله ، فلا يشعر بسلطان لكائن بشرى يتحكم فيه فيورثه ذلك عزة وحرية وكرامة لدى نفسه ولدى الناس إذ الناس سواسية كأسنان المشط ، والمسيطر رب واحد يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ويدرك منابع العمل الإنساني وبواعثه أهو في صميمه خالص لوجهه عز وحل أم شابته شائبة أخرى من الغرض الشخصي الحقير . هذه الحقيقة الكبرى في حياة النفس المؤمنة لا بد أن تتكرر وتتردد حتى ترسخ في الأذهان ، فانظروا كيف تكررت في بيان محمد عليه السلام .

روى البخارى عن رسول الله قوله الذائع « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه »^(١) هذا قول هادف حق ، لا يكتفى نبي الإسلام أن يفوه به مرة ثم يتركه يبدد في الهواء بل لا بد أن يواصل به الطرق في إلحاح حتى يتأكد ويثبت أفعيده بلفظه ومعناه ؟ إن سامعيه كثير ، وإن فيهم من يتذكره وقد يتشاءب حين يستمع وما كان لأفصح البلغاء أن يعرض عن سماعه الناس . فليعرضه إذن في صورة أخرى إذ يقول « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : فلان جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيه القرآن قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم

(١) التاج ج ١ ص ٤٤ .

ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : ما عملت فيها قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار « رواه مسلم ^(١) .

كان حديث الأعمال بالنيات قاعدة عامة ضرب عليها المثل بدافع الهجرة من مكة إلى المدينة ، أما حديث القيامة فعدة أمثلة تصويرية لإيضاح البصائر المدخولة والنيات المريضة إذ كشف الله عنها الغطاء فإذا جميع دوافعها ليست ابتغاء مرضاته ، وإنما هى رياء زائف إن خفى عن الناس فلن يخفى عن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والمغزى واحد فى كلا الحديثين فهو تكرار لمعنى خلقى يلح عليه الرسول ، ولكنه تكرار الحصيف الفصيح ، الذى يملك من الصور والأخيلة والمعانى ما يقدم به الطريف الجديد .

ونحن نرى فى حديث القيامة أعمالا من الخير فسدت لفساد النية ، فالاستشهاد ، وتعليم القرآن ، وبذل الخير من صوالح الأعمال التى تهيب لصاحبها مقعد صدق عند الله لو انحدرت من نفس مخلصه ذات إيمان ، وقد نرى نية صالحة لا تؤدى إلى خير كثير ، ولكنها بخلوصها لله ترتفع بصاحبها عنده . لقد أحسن الرسول الداعية تصوير ذلك حين كرر حديثه عن النيات مرة ثالثة فقال فى نسق جذاب :

عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق فقال اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد . لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق على غنى

(١) التاج ج ١ ص ٥٢ .

فقال اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى فأتى فقيل له أما أن صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغنى فله يعتبر فينفق مما أعطاه الله^(١) .

ماذا يقول القارئ في هذه الأقصوصة الرائعة ، أليعبدها نمطا من السحر البليغ و تصويرا فاتنا لعقبى النية الصالحة إذا خلصت لله كما كان حديث القيامة تصويرا بليغا لعقبى النية الفاسدة إذا لوثت بأغراض الحياة ، إن الأحاديث الثلاثة — وغيرها كثير — مثال للتكرار الرائع الذى يتعمده البلغاء الأفذاذ فلا يدركه منهم غير الطائر السباق .

ولنترك تكرر هذا المعنى إلى تكرر معنى آخر .

علم رسول الله أن العباد خطاءون ، وأن المعصية ممهدة ارسيل أمام الغرائز الهابطة والنوازع المسفة ، وأن التوبة نافذة الخلاص مما يرتكب من الآثام وقد جاءت آيات القرآن مبشرة بالتوبة النصوح داعية إلى استئناف صفحات جديدة من الحياة تنسى لديها سوائف المعاصى ، ويرقى سلم الطاعات إلى مرتفع طاهر لا انتكاس به ولا ارتكاس . ومن الضرورى أن تسهب أحاديث الداعية الأعظم فى تحبيذ التوبة وتمجيدها والنفور من المعصية ومجافاتها ، حتى سار فى ذلك المثل السائر بقول رسول الله « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وقوله على لسان ربه « لأنين المذنبين أحب إلى من صراخ العابدين » . وتكرار الدعوة إلى التوبة فى أدب الرسول مما يرضى عشاق الأدب الرفيع حين تتنوع معارض اللفظ رافلة فى أبهى الحلل ، وسائرة فى غاية واحدة هى الغاية الخلقية الداعية إلى الطهور من الآثام ، تأملوا قول رسول الله فى رواية البخارى عن عائشة :

(١) ح ٢ ص ١٣١ من صحيح البخارى ط صبيح .

« لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله . قال أرجع إلى مكاني ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده ^(١) » .

أى عرض لمنزلة التوبة عند الله أبهج من هذا العرض . لقد تحدث رسول الله عنها في أقصوصة موجزة ترسم فجيعه إنسان وحيد يعتسف الصحراء في أعز شيء لديه . في حياته التي توشك أن تفتنى بعد فقد الشراب والطعام والناقة ، وفي أى مكان ؟ في مهلكة ترمى بالرعب والحمام ، وإن العطش ليلهب أحشاءه في الداخل وقد جلده الحر بأقسى سياط في الخارج حتى إذا استئس ، ترقب نهايته المظلمة وأطبق عينيه ليحلم بالخاتمة الحزينة ولكنه يستيقظ ليرى الراحلة بما حملت أمامه ؟ !! يالها من فرحة لاتعادلها فرحة في الحياة إنها فرحة الغريق بطوق النجاة . وهي في الحديث تقل عن فرحة الله بتوبة عبده من الآثام . لنذكر أقصوصة القاتل من بنى إسرائيل وقد تقدمت في فصل سابق . حين قتل تسعة وتسعين ثم أكملها مائة وتنازعته ملائكة الرحمة والعذاب بعد موته ، فاحتوته ملائكة الرحمة فهي الأخرى نموذج ثان لتكرار الحديث عن هدف واحد دون ملل ثم لننتقل إلى النموذج الثالث من قول رسول الله من رواية البخارى عن أبى هريرة :

« إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا فيقول نعم أى رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترها عليك فى الدنيا وأنا أغفر لك اليوم » .

(١) هداية البارى ج ٢ ص ٨٧ .

(هذا هو المؤمن التائب) وأما الكافر والمنافق ﴿ فيقول الأَشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾^(١).

وإلى نموذج رابع عن التوبة من قوله عليه السلام من رواية البخارى عن أبى هريرة^(٢):

« إن عبدا أصاب ذنبا — وربما قال أذنب ذنبا — فقال رب أذنبت ذنبا ، وربما قال أصبت فاغفره فقال ربه « أَعْلِمَ عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ماشاء الله . ثم أصاب ذنبا أو أذنب ذنبا ، فقال رب أذنبت أو أصبت فاغفره . فقال : « أَعْلِمَ عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنبا وربما قال أصاب ذنبا فقال رب أصبت أو قال أذنبت فاغفره لى ، فقال « أَعْلِمَ عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثا ، فليعمل ماشاء » .

هذا هو التكرار البليغ الذى يشرق على لسان الداعية الملهم أدبا طريفا لاسأم فيه ، هات أشد المتحاملين إنكارا لمزية التكرار ، وقرأ عليه نماذج التوبة فى أدب الرسول ودعه يسأل نفسه أوجد سأما أم لذة ! أأنس مللا أم متعة ! ثم ليسأل نفسه بعد ذلك عن مصدر اللذة والإمتاع يجبك أنه تنوع القول فى معارض طريفة من التصوير .

أنريد أمثلة أخرى من التكرار فى غرض آخر ؟ إن المجال ليتسع ويزيد .

لقد دعا الإسلام إلى الشهادة فى سبيل الله . والروح أغلى ما يملك الإنسان فلن يقدمها هينة رخيصة إلا إذا أصبح دين الله أحب إليه من نفسه ، ولا بد لذلك

(١) هداية البارى ج ١ ص ١٠٧

(٢) التاج ج ٥ ص ١٦٢ .

من ثمن خطير هو فرحة الله بالشهيد ثم متعة روحه برضوان الله . إن نبي الإسلام
ليحرص على الدعوة إلى الاستشهاد في سبيل الله . وإنه يرى تكرار القول مما
يطمئن النفوس فلا بد أن يعرض ذلك مرة بأسلوب المرغب المدافع حين يقول
في رواية الترمذى عن أبى الدرداء :

« للشهيد عند الله ست خصال ، يغفر له في أول دفعة ، ويرى مقعده من
الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ويوضع على رأسه
تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من
الحرور^(١) . »

كما يعبر عنه مرة أخرى منتحيا منحنى آخر من البيان إذ يقول عن عائشة في
رواية البخارى : « كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة
كهيتها إذا طعنت تفجر دما ، فاللون لون الدم والعرف عرف المسك^(٢) » كما
يعبر عن ذلك في أسلوب تصويرى يرتفع إلى القمة من الإبداع نجده فيما حكاه
عبد الله بن مسعود أنه سئل عن قول الله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله
أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فقال ﷺ : « إن أرواحهم في طير خضر
تسرح في الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع إليهم ربك
اطلاعة ، فقال : هل تستزيدون شيئا فأزيدكم ، قالوا ربنا وما نستزيد ونحن في
الجنة نسرح حيث شئنا ، ثم اطلع إليهم الثانية فقال : هل تستزيدون شيئا
فأزيدكم ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا قالوا : تعيد أرواحنا في أجسامنا حتى نرجع
إلى الدنيا فنقتل في سبيلك مرة أخرى^(٣) . »

فماذا عسى أن يبلغ البيان من التأثير فوق الذى يبلغه هذا القول البديع ، أخشى
أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية فننقل جل ما روى عن رسول
الله :

(١) التاج ج ٤ ص ٣٤٠ .

(٢) هداية البارى ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) التاج ج ٤ ص ٩٠ .

ثانيا : انتهاز الداعية للفرص الملائمة :

الداعية الصادق إنسان أخذت عليه الدعوة مشاعره ، وملكته أحساسيه فهو ينفرد بنفسه ويجتمع بصحبه ، ويسافر إلى مقصده وقلبه مشغول بما يدعو إليه ، وكأن تياراً جاذباً يدفعه إلى التفكير بإرادة وبدون إرادة فيما ينبغي أن يقول وأن يفعل ، وهو لا بد منتهز كل فرصة لتحقيق رسالته ، ومهتبل كل سانحة لقنص مآربه ، وكذلك كان الرسول مع رسالته العظيمة ؟

إن أهدافها العالية من السعة بحيث تشمل محيط الحياة جميعه .. فما أكثر مايسنح في الحياة من الفرص لتأكيد هذه الأهداف ، وماأذكى الداعية الملهم في اقتناص هذه السانحات قبل أن تبيد .

إن من أهداف الإسلام أن يرتفع بالنفس عن المذلة وهوان الاستجداء والسؤال ذل ولو أين الطريق ، كما قال أرسطو ، فكيف إذا كان استجداء لبعض المال ؟ وإن محمداً ليجد بعض أصحابه يلحون ويسألون ، ويجيئه أحدهم سائلاً فينتهز الفرصة وقد أمكن منها السائل باستجدائه المتكرر ليقول له واسمه حكيم بن خزام : —

« ياحكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه كالذي يأكل ولايشبع واليد العليا خير من اليد السفلى^(١) » .

فتبلغ العظة من نفس حكيم أبلغ المواقع ، ويتأسف على ما فرط منه ثم يقول لرسول الله في ندم :

« والذي بعثك بالحق لأرزاأ أحدا بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا^(٢) »

(١) التاج ج ٢ ص ٤٠ .

(٢) التاج ج ٢ ص ٤٠ .

وقد كان الرجل صادقا في قوله ، حيث أراد أبو بكر ومن بعده عمر أن يعطياه نصيبه من الفىء فأبى معارضا فى شدة تمسكا بما قال لرسول الله ، وهكذا أثمرت الموعدة إذ صادفت فرصتها المواتية .

وأمثلة أخرى : لقد أعلن الإسلام أن رحمة الله واسعة ، وأن الله غافر الذنب قابل التوب ونزل فى ذلك من الآيات وجاء من الأحاديث ما لا يحصى ، ولكن الداعية الحريص يقع فى مجلس من أصحابه على بعض المشاهد العاطفية فيهتبل الفرصة للحديث عن رحمة الله ، إذ نظر المسلمون عقب بعض الغزوات إلى امرأة من السبي أخذت تدور بعينيها ذاهلة وجلة كأنها تبحث عن شيء حتى إذا وقعت عينها على طفل نائم أسرعت إليه فى لهفة وألصقت بأحشائها طويلا ثم ضمته إلى صدرها فى حنان . فتأثر القوم ، وانتهز الداعية العظيم هذه السانحة فسأل أصحابه ؟ أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ فقالوا فى استنكار : لا ! فقال صلى الله عليه وسلم ، الله أرحم بعباده من هذه بولدها ^(١) .

ويجلس الداعية الملهم فى مسجده فيأتيه رجل من الأزدي كان قد استعمله على الصدقة ، فيقدم إليه شيئا ويقول هذا لكم ويمنع شيئا فى يده ويقول هذا أهدى إلى ، فتقبل السانحة بما يهيبه للداعية الغيور مجال القول ليحقق هدفا كبيرا من أهداف الإسلام فى استئصال الرشى ويصعد على المنبر داعيا أصحابه ليقول فيهم بعد حمد الله :

« ما بال عامل أبعثه فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا ! والذى نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء . أو بقرة لها خوار ، أو شاة تعر ، قال الراوى ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه ، ثم قال اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت ^(٢) .

(١) هدية الباروى ج ر ص ١٢ .

(٢) التاج ج ٣ ص ٥٦ .

ويعظ الناس في مجلس علمي بالمسجد فيتحلق حوله الأصحاب . ويقدم ثلاثة نفر فيجد أحدهما فرجة فيجلس ، ويقعد الثاني خلف الحلقة ، أما الثالث فيذهب من حيث أتى ، فلا يدع النبي فرصة سنحت للإرشاد تذهب دون أن تؤتى الثمرة فيلتفت إلى أصحابه قائلا « ألا أخبركم عن نفر الثلاثة ! أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه ^(١) » فمن الذي يسمع بهذا القول ثم يعرض بعد عن حديث الرسول .

أما المثل الرائع حقا في انتهاز الفرصة للتوعية والإرشاد مهما قامت دونها المصاعب واكتنفتها الأعباء ، فموقفه صلى الله عليه وسلم حين كسفت الشمس يوم وفاة نجله الوحيد إبراهيم . لقد دمعت عينا الأب الواله ، وسأله أصحابه عن دمعه فقال قولته المشهورة « إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولأنقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ، ثم نظر فوجد الشمس قد كسفت وسمع الناس يقولون لقد كسفت أسفا على موت إبراهيم ، فلم يشغله جزئه الممض عن أن يغتتم الفرصة ليصحح الأخطاء وينبه الأذهان . فيسرع إلى المنبر ليجمع الناس قائلا في قوة :

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده ، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم ^(٢) .

هذا الموقف وحده ينبيء عن معدن الشرف العريق في نفس الرسول . لو كان زعيما انتهازيا لعد الأمر آية خارقة تشد أزره وتعلو مكانه ، فأثر الصمت لتمضي المقالة في كل مكان . ولكن محمدا أرسل بالإسلام ليضيء العقول ، ويبدد الخرافات ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فكيف يصبر على

(١) هداية الباري ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) هداية الباري ج ١ ص ١١٢ .

جهل ينشر ويذاع؟ لا بد أن يضع الأمر في نصابه ، فهو بإيمانه ليس بحاجة إلى شائعة خرافية تزيد من اعتباره في الناس بل إنه يعد نفسه قد تخلى عن رسالته إذا ارتكزت في بعض أصولها على الخرافات فليصعد إلى المنبر وليرشد الناس . وسيجد الإرشاد موقعه إذا لمس المناسبة الهائلة التي تنقطع دونها المناسبات .

لعل فيما قدمناه من الأمثلة مايدل على بصر الداعية الحصيف بانتهاز المناسبات فلنتقل إلى أصل ثالث من أصول الدعوة كما بينها المفكرون .

ثالثا : لباقة العرض :

لا يكفي أن يكون لدى الداعية مايقول بل يجب أن يعرف كيف يؤدي مايريد أن يقول ، لأن الثوب الذي يظهر المعاني مما يساعد على إبرازها في وضوح واتساق إن حاكته يد صناع حكيم ، ومن هنا استعان موسى عليه السلام بأخيه هارون لينوب عنه في الإفصاح لدى قومه ، حين قال لربه ﴿ وأخى هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾ فأجاب الله طلبته إذ قال مطمئنا خاطره :

﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ ، ونحن نرى كثيرا من الناس تجيش صدورهم بالمعاني ولكنهم يكابدون صعوبات شاقة في إظهارها ، وقد يضطرون إلى وأدها وأدأ دون أن يكشفها للناس لسان مبين ، ومماثلهم إلا كمن قيل فيه : —

تجيش المعاني الداغقات بصدرة ويسكت عنها لايميل إلى الجهر
كشاعر قوم صاغ أجمل حكمة ولكنه قد ضاق بالوزن والبحر^(١)

أما محمد الداعية فما كان أقدره على الإفصاح المشرق والعرض البديع ، إذ

(١) من قصيدة لى ضاعت ولم أجدتها .

أوتى فى ذلك لباقة خارفة كانت مصدر نجاحه فى أكثر ماتم على يديه من إصلاح ، وإنك لتقرأ الأثر الباقي من آثاره ساقه وحى الساعة فنجد به من حسن التأتى ولطف التصوير مايجذبك جذبا إلى استعادته دون ملل ، حيث ضرب على أوتار قلبك بأجمل الألحان قوة وروعة وتأثيرا ، إنه يريد — فى موقف ما — أن يدعو إلى عيادة المريض وإطعام الجائع ورى الظائى فهل يقول عودوا المريض وأطعموا الجائع واسقوا الظائى ثم يسكت .

لابد أن يبرز هذه المطالب الإنسانية فى صورة لاتنسى . ولا بد أن يستعين بالهامه النبوى فيوحى إليه بما يرويه عن ربه إذ يقول فيما رواه مسلم .

« عن أبى هريرة عن رسول الله أنه قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لوعدته لوجدتنى عنده . يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا بن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدى فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندى »^(١) .

فهل يجد القارىء دعوة خلقية إلى الآداب النبيلة سقت أجمل من هذا المساق ومن الذى يقول ربه استطعمتك واستسقيتك واستزرتك ثم لا يخفض رأسه خجلا أن لم يصدع بأمر الله . إن نص الحديث الباهر ليغنى عن كل تعليق .

(١) التاج ج ٣ ص ٢٠٦ .

والذين يكتبون عن أساليب الدعاة اليوم ، يوجبون على الداعية أن يستعين بالحركة اللافتة والإشارة المعبرة والانفعال المؤثر ، لتظهر حرارة إخلاصه في صورته أمام الناس كى يدق من قلوبهم أوتار الإعجاب . وكل ذلك مما يؤثر في نجاح الدعوة إذا كان النبع الذى فى أعماقه يتدفق صفيا نقيا طاهرا ، ولكنه قد يستحيل إلى عكس ما يراد منه لو كان مجرد تمثيل خطابى يؤديه الداعية على

المنبر خضوعا لتعاليم صبت فى أذنه صبا ، فهو كمن يزاول التجارب الأولى على خشبة المسرح دون أن ينفعل بالموضوع . أما رسول الله فكانت إشارات وحرركاته فى مجال الدعوة ذاتية ينبعث بها الانفعال الصادق دون تزييف . إنه فى إحدى جلساته يعلم أن بعض الناس يشهدون الزور دون استحياء فتهديه لباقتة الحصيفة فى العرض الرائع أن يجمع إلى النهى عن شهادة الزور عدة فظائع متفق على إنكارها ، لتقرن بها شهادة الزور فتكون خاتمة الفظائع من المنكرات ، وإنه ليستعين بالحركة الصادقة دون افتعال ليظهر ما يعنيه من تشديد النكير على المزورين . فيمهد أولا للحديث بسؤال لافت للأذهان إذ يقول « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » إن كل سامع مشوق إلى أن يعرف الإجابة لامحالة فيصيح الجميع منتبهين ، بلى يارسول الله فيقول فى تودة ، الإشارك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق — قال الراوى . وكان متكئا فجلس ثم قال ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت^(١) . إن اعتدال الرسول بعد اتكائه لمما يدفع إلى اهتمام مفرط أغنت فيه الحركة عن أفصح التعبيرات . وإن تكرار النهى عن شهادة الزور لمما يجعل المزور يذوب خجلا ، وألفاظ الحديث تنهال كالقذائف على رأسه مهددة متوعدة . وإن الحديث بذلك يدل على أجمل لباقة واعية فى تهيئة الأذهان واستيجاش الأحاسيس .

(١) ج ٨ ص ٤؛ صحيح البخارى ط صحيح .

إن تقديم السؤال في الحديث قبل الدعوة إلى مضمونه التشريعي . ألا أنبئكم
بأكبر الكبائر؟ لقرع للأجراس إلى دعوة هامة تستلزم الانتباه . وإن الداعية
الأعظم ليحرص على ذلك ، فتراه يسأل قبل أن يتكلم في حديث ألمحنا إليه
قريبا أتري هذه طارحة ولدها في النار؟ ويجعل السؤال المفاجيء من بعض
سماته الوعظية لما يلمس من قرعه للأسماع وجذبه للأذهان وماذا يريد الداعية
غير ذلك .

لقد توسط محمد ﷺ أصحابه ذات مرة ، وأراد أن يحذر من اقتراف
المحرمات ويبرز عقابها عند الله فماذا فعل .

« إنه — جريا على خبراته النفسية — بدأ أصحابه بهذا السؤال كما في رواية
مسلم عن أبي هريرة « أتدرون من المفلس من أمتي يوم القيامة؟ فقالوا :
المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : إن المفلس من أمتي من يأتي
يوم القيامة بصلاة وضيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال
هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن
فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح
في النار » .

فهل تجد أبرع من هذا الثوب البياني الرائع لإبراز هذا الوعيد الصارخ سؤالا
وجوابا ، وشرحا وتمثيلا ، وهل أوحى به غير لباقة العرض الجذاب عند الداعية
الحصيف .

ثم ماذا؟

إن الداعية ليحس من بعض النفوس تكاسلا عن صلاة الفجر ، إذ أن سلطان
النوم حينئذ من القهر والغلب بحيث يستلب الإرادة عند الكثيرين فهل يقول
محمد ياقوم اتركوا النوم فوراً وقوموا إلى الفجر ، لو اقتصر على ذلك ماكان
أفصح بليغ تمخضت عنه العريية في عصورها الزاهرات ، ولكن لباقة العرض

عنده تدفعه إلى أن يقول عن أبي هريرة فيما رواه البخارى :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد فإن استقيظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة ، فإذا صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلانا^(١) .

لم يتعد الحديث الخالد تصوير النفس البشرية كما نعهدها بحال ، فنحن نعرف من نفوسنا همودا واسترخاء عند اليقظة فإذا أسرعنا إلى الوضوء والصلاة حل النشاط مكان الهمود وإذا سرنا دون وضوء فقد خبث يوم الكسول .

لقد قلت تعقبا على ما استشهدت به من الأحاديث المصورة للتكرار البليغ أخشى أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية فننقل جل ماروى عن رسول الله ، أفأعيد هذا مرة أخرى فأقول : نخشى أن نفسح المجال لأمثلة من لباقه العرض فننقل كل ماروى عن رسول الله .

رابعا : الخبرة الصحيحة بالنفوس :

إن علم النفس يدرس الآن فى معاهد الإعلام المختلفة بإفاضة قديرة ، ليكون المحاضر أو الكاتب أو الخطيب أو الإذاعى أو الصحافى أو كل من يمت إلى الإفصاح بسبب ما، خبيرا بطوايا النفوس ؟ فهل غابت هذه الخبرة الدقيقة عن رسول الله .

لو لم يكن نبي الإسلام صاحب خبرة صادقة بالنفوس ما استطاع أن ينهض بدعوته بين قوم متنافرين ، فيرأب الصدع ويلم الشمل مع اختلاف المنازع واصطدام الأهواء ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا — وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ ، وتاريخ جهاده ناطق بصدق فراسته

(١) التاج ج ٤ ص ٣٢٦ .

وحسن استشفافه ، وبعد مرماه ، وهذا ما ينطق به أدبه البليغ ألم يقل رسول الله
في بعض ما قال في رواية البخارى : « والله إنى لأعطي الرجل وأدع الرجل ،
والذى أدع أحب إليّ من الذى أعطى ولكنى أعطى أقواما لما أرى فى قلوبهم
من الجزع والهلع وأكل أقواما إلى ما فى قلوبهم من الغنى والخير^(١) .

فما معنى هذا ؟ معناه أن لكل إنسان سعد بلقيا الرسول وضعا خاصا فى
نفسه بناه ﷺ على ماتفرس فيه من الأحوال والمصادفات .

يتحدثون أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع وعليه ثوبه
فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ثم جاء على فقضى
حاجته وخرج ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله ﷺ فقالت له عائشة : لم
تصنع هذا بأحد . فقال ﷺ إن عثمان رجل حى وإنى خشيت إن أذنت له على
تلك الحال أن لا يبلغ إلى فى حاجته^(٢) .

فهل نجد خبرة دقيقة بنفوس الصحابة أبلغ من خبرة رسول الله . لقد ضربنا
المثل من قبل بخطبته ﷺ فى الأنصار حين ساءهم تفضيل بعض المؤلفة قلوبهم
عليهم فى الفء . فلمس محمد ذلك من نفوسهم وأسأل الدمع من عيونهم حين هتف
بقوله : « ألا يرضيكم يامعشر الأنصار أن ترجع قريش بالشاة والبعير وترجعون
برسول الله .

فصاحوا فى صوت واحد . رضينا بالله ورسوله^(٣) .

(١) هداية البارى ج ١ ص ٨٨ .

(٢) العناصر النفسية فى سياسة العرب ص ١٠ .

(٣) يرجع الى فصل (محمد الخطيب من هذه الرسالة) .

فأى حصافة تلك . وأى استشفاف ذلك !؟

وبعد ، فلقد وافقت صفات الدعاة كما قررها العلم الحديث بعض المزايا الكامنة لدى رسول الله ، واختص دونهم بصفات لا يتعلق بغبارها أحد من الناس أفيكون على ظهر البسيطة من هو أجدر منه بلقب « الداعية المثالي » . حين نعرف بالحق لصاحبه منصفين .



الابتهاال فن طريف فى أدب « محمد »

يشعر الإنسان بضعفه فى الحياة إذا حزبه أمر أو كربه ضيق ، فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة ، تنقذه من شدته ، وتنشله من عذابه ، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحبيه . لذلك كان الالتجاء إلى الله فى كل أمر مفزعا طبيعيا يهرع إليه المؤمنون واثقين بعونه وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصه هى مايسمى بالدعاء أو الابتهاال ، والقرآن الكريم يعرف هذه الحقيقة لدى النفوس المحرجه التى تجد فى السماء فرجا من ضيق فيقول عنها فى بعض ماقال ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ماكان يدعو إليه من قبل ﴾ . ويقول فى أسلوب تصويرى ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجبتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبيغون فى الأرض بغير الحق ﴾ .

ولهذه الحقيقة النفسية التى تدفع بالضعيف دائما إلى الالتجاء لقوة مسعفة ، شرع الله دعاءه والابتهاال إليه ، ليكون المؤمن على ذكر دائم من ربه فهو يقول ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ويقول ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ ، ثم عد الدعاء مما يمتدح به من صفات النبيين إذ يقول عن بعضهم ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

ومحمد ﷺ أقرب الأنبياء إلى ربه ، وأشد المؤمنين تعلقا بمولاه فهو لا يفتأ يدعو فى كل ساعة تمر ، حتى ترك من أدعيته الرائعة أدبا عاليا له سماته

الجميلة من حرارة العاطفة ، وقوة الصدق وجمال التعبير . وعجيب أن يسكت عنه النقاد غافلين .

لقد ورد الابتغال الرباني في كتاب الله أول ماورد في لغة العرب ، فتحدث القرآن على لسان الأنبياء بأجمل مايتحدث به من الدعاء حين قال على لسان إبراهيم :-

﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ربنا إنني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا لقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ .

كما عرض نمطا من دعاء عباده المتفكرين في خلق السموات والأرض حين قال على لسانهم :

﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

وأمثال هذه الابتهالات القرآنية على لسان البشر كثير يعرفه التالون . وما إليها نقصد في كتابة هذا الموضوع ، إنما نشير هنا إلى أن الرسول ﷺ كان أول من استجاب إلى نداء ربه حين رفع إلى مقامه الأعلى أحر الأدعية وأحسن الابتهالات في بيان خلاص .

ولئن كان رسول الله المثل الأعلى للمؤمن الحقيقي ، فإنه لا محالة ذاكر ربه
فى كل طرفة عين ، متجها إليه مع كل خفقة قلب ، فهو يسبحه ويدعوه إذا
أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام ، وإذا استيقظ ، وإذا سافر ، وإذا رحل ، وإذا
أكل ، وإذا شرب ، وإذا سمع الرعد ، وإذا نزل المطر ، وإذا هبت الريح ، وإذا
أشرفت الشمس ، وإذا بزغ الهلال ، وإذا مرض ، وإذا عوفى ، وإذا فزع ، وإذا
أمن ، وله فى كل ذلك مآثورات رائعات مشهورات ترددها كتب الصحاح .
وهى من الأدب الصميم لب اللباب . ولا بد أن نستعرض هنا نماذج من مآثوراته
لنستشف طابعها الأصيل .

يدلف المساء إلى الكون برهبتة ووحشته ، فيظلم الأفق بعد ضياء وتتجلى آية
لله مكان آية ، وكل متأمل لابد أن يفكر طويلا فى هذا الاختلاف الكونى بين
الليل والنهار ، وما كان لنبي ذى رسالة واعية كنبى الإسلام أن يغفل الانتباه إلى
هذه الظواهر المدهشة دون أن تأخذ جانبا حيا من تفكيره . إنه يستشف من
ورائها عظمة الخالق المبدع فيرفع يده إلى السماء قائلا :

« أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له
الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، رب أسألك خير ما فى هذه الليلة ،
وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ
بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى
القبر »^(١) .

دعوات بسيطة طاهرة ، يرفعها مؤمن تقى إلى خالقه عند المساء ، فإذا حان
ميعاد النوم ، لم ينس رسول الله خطر الشرود الذهنى حين يتقلب الإنسان فى
مضجعه قبل الرقاد ، ليسبح خاطره وحيدا فى أمور مسفة من المكر أو الطيش أو

(١) التاج ج ٥ ص ١١٢ .

تدبير السوء لبعض الناس ، وهى وساوس نفسية لا بد أن تلج إلى الخاطر ، وقد تترتب عليها مهواة عميقة تزل بها الأقدام : فليحصن الرسول أتباعه منها ، فيشير عليهم بالطهارة والدعاء قبل النوم إذ يقول :

« إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم أسلمت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، لا ملجأ ولا منجاة منك إلا إليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت واجعلن آخر ماتتكم به »^(١) .

أرأيت إلى هذا التحصين النفسى من الوسوس والنزعات . إن المؤمن إذا توضأ قبل النوم ودعا ربه معلنا أنه فوض أمره إليه فلا منجاة منه إلا إليه ، وأنه آمن بالنبي والكتاب ، فلن يسمح لخاطره بعد ذلك التطهير النبوى أن يكون مسرحاً للمؤامرة والاحتيال ، ثم ماذا نرى من البساطة الهادئة فى ألفاظ هذا الدعاء . لقد جاءت هيئة سهلة ليتمكن كل من يريد النوم أن يحفظها دون إجهاد . وله بعد أن يدعو بها ربه أن يتقبل أطيب الرقاد ، أما إذا شد الموقف ، وشردت الخواطر ، واستولى الأرق بعد ذلك ، فإن الرسول لا يترك المؤمن نهب السهاد يقذفه من بيداء إلى بيداء بل يشير عليه أن يلتجئ إلى ربه ليقول فى دعائه :

« اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرض على أحد ، أو أن يبغى على ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله إلا أنت »^(٢) فإذا قام الإنسان فزعاً من النوم فليقل « أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون »^(٣) .

(١) هداية البارى ج ١ ص ٢٣ .

(٢) التاج ج ٥ ص ١٤٥ .

(٣) التاج ج ٥ ص ١٤٤ .

أما إذا أشرق الصباح . فلا بد من التجاء آخر إلى السماء نسألها العون
والعافية ، والحفظ في معترك النزاع بين الناس ، وذلك ما عبر عنه محمد إذ قال
في دعاء الصباح :

« اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو
والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استر عورتى وآمن روعاتي ،
اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ،
وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »^(١) .

إن المؤمن المثالي لا بد أن يكون ربانيا متجها إلى السماء في كل طرفة عين ،
ليستمد من قوتها القديرة مددا لا ينفذ كذلك كانت جميع ساعات النهار لدى
نبي الله مسارح للدعاء والابتهاال ، قال ابن عمر قلما كان رسول الله يقوم من
مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه « اللهم أقسم لنا من خشيتك
ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين
ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا ، وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا
وأجعل الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا
تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا
تسلط علينا من لا يرحمنا »^(٢) .

فماذا نرى في هذه المعاني الحية « أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين
معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات
الحياة .. لو فكر كاتب كبير فيما يدعو به ربه أترأه يقع على أمثال هذه المعاني
وفي يسر هذه الصياغة وقوعا هادئا غير متكلف ! أم أنها من السهل الممتنع
نعجب ببساطتها ونعجز عن محاكاتها .

(١) التاج ج ٥ ص ١١٢ .

(٢) التاج ج ٥ ص ١٢٦ .

فإذا التزم السفر في رحلة يجهل عقباها ، فإنه يلتجئ إلى السماء مستنصرا ، فيكبر الله ثلاثا ثم يقول « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له بمقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوعنا بعده ، اللهم إنك الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة النظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل »^(١) .

أما إذا رجع فإنه يقول « آيئون تائبون عائدون لربنا حامدون »^(٢) ، وإنه ليتجه إلى الأرض يزورها في سفره لأول مرة فيقول لها في روعة « يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ومن شر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب . ومن ساكنى البلد ومن والد وما ولد »^(٣) .

فإذا هبت الريح رفع يديه قائلا « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »^(٤) .

ثم إذا سمع الرعد أعد له من الدعاء ما يناسبه إذ يهتف « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك »^(٥) .

أما إذا أثمر الشجر فما أجمل ما تهدي إليه محمد في قوله حين يراه « اللهم بارك لنا في ثمارنا وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ومدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك ، وإني عبدك و نبيك ، وإنه قد دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل مادعاك به لمكة ومثله معه ، ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر » .

(١) التاج ج ٥ ص ق ١٣ .

(٢) التاج ج ٥ ص ١٣٦ .

(٣) التاج ج ٥ ص ١٣٨ .

(٤) التاج ج ٥ ص ١٤٢ .

(٥) التاج ج ٥ ص ١٤٣ .

حتى الصلاة المفروضة وكلها تكبير وتحميد وتسبيح لا يتركها النبي دون دعاء يفسح له بين التكبير والفاحة وإنه لذر نفحة بيانية مؤرجة تتجلى في قوله عقب التكبير « اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبرد »^(١).

لقد جمع الأستاذ أحمد أمين بأحد الأعداد الممتازة من مجلة الثقافة^(٢) عدة ابتهالات نبوية رآها مما يحسن تقديمه للقراء فكان مما اختار من فرائد الرسول :

« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعبي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها أفتي وتعصمني بها من كل سوء .

اللهم أصلح ذات بيننا ، وألف بين قلوبنا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، اللهم بارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك ، اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفأها ، لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها وإن أمتها فاغفر لها » .

هذا بعض ما اختاره الأستاذ أحمد أمين وأرى أن أضيف إليه دعاء الحفظ فإنه رائع جميل ، يقول رسول الله اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني ، وارحمني

(١) التاج ج ٥ ص ١٨٩ .

(٢) الثقافة العدد ٤١٣ .

أن أتكلف مالا يعينني ، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لاترام أسألك يارحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى ، اللهم أسألك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تغسل به بدنى ، لأنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتبه إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ،^(١) قد يستكثر بعض القراء أن نسهب نوعا ما فى نقل هذه الابتهالات إذ يرى بعضها مما ينوب عن البعض فى رسالة أدبية كهذه الرسالة .. ولكننا تعمدنا الإسهاب تعمداً أن نشير إلى حقيقة أدبية كبيرة ، هى أن الابتهالات النبوية كانت مصدر الأدب الصوفى فى اللغتين العربية والفارسية وهى حقيقة هامة نسيها الناقدون .

إن الأدب الصوفى بمعناه الصحيح فى الآداب الإسلامية — هو الأدب الذى يتجه به قائله إلى ربه نابعا من مشاعره الحية وأحاسيسه الجياشة نحو السماء ، ومصورا فى ابتهالات ضارعة تستمد العون من مقتدر قاهر ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، ودبر المنشأة والمآل . فهل مانعرفه اليوم مما اصطلح عليه الناقدون فى الأدب الصوفى الإسلامى مما يتجه هذا الاتجاه .

إن الأدب الصوفى الإسلامى قد اتجه فى مفهوم كثير من النقدة إلى حيز غريب عن الإسلام ، فهو لديهم أدب يتحدث عن وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، وهى كلها أمور غريبة عن منطق الإسلام . وقد ساعد المستشرقون على تأصل هذا الاتجاه فلم يتحدثوا عن اشتق تعاليمه من القرآن والأحاديث ، من كرام المتصوفين إذ هو فى رأيهم غير متصوف ، أما الصوفى الحقيقى لديهم ، فهو الذى يلهى العقول بالغاز الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ويغرق فى التهاويل والخيالات .

(١) التاج ج ٥ ص ١٥٠ .

وحتى قصائد الغزل النسوية الصريحة تصير أدبا صوفيا في اتجاه هؤلاء ، إذ أن ليلي ، وعزة ، وسلمى رموز إلى الحضرة الإلهية ، وإن ماتتصف به الحسناء من الحسن والسحر والجمال ، ومنه الحسى الصارخ كمنضرة الخد ، وهيف القد ، وعذوبة الثنايا ، وليونة الأعطاف ، واسوداد الشعر ، واحورار الطرف كل ذلك مما يرمز إلى جمال الله . ونحن لا نرفض جملة كل غزل صوفى ، بل نميل إلى أن بعض المقطوعات الغزلية مما جعلت فيه صفات الحسناء رمزا للجمال الإلهى قد تنصرف إلى الذات العلية إذا كانت الحسناء مجرد رمز معنوى يتحدث عن الجمال المطلق ، كما فى بعض أشعار ابن الفارض . أما أن تكون الأوصاف الحسية للعين ، والصدر ، والنهد ، والخصر ، والرذف مما يتجه إلى جمال الخالق فذلك ما يصعب استشفافه لدى الأذكياء فكيف بعامة الناس .

ثم لماذا نقصر الأدب الصوفى على الغزل الرمزي والشطحات الفلسفية ، فلا نتحدث فى مجال الأدب لدى المتصوفين إلا عن ابن عربى ، وابن سبعين ، والبسطامى ، والحلاج لنغرق فى أوهام الحلول ووحدة الوجود والاتحاد . إننا نصارح بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل فى ذلك دخيلا على الأدب الصوفى الحقيقى ، وهو الذى نبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث . ثم تمثل أول ماتمثل فى ابتهالات رسول الله .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن هذه الابتهالات النبوية قد نمت وازدهرت فى الأدب العربى على مد عصوره . بحيث كانت أصلا ضخما امتدت منه فروع لا تحصى . ففى كل عصر داعية مبتهل يرفع إلى ذات الله أجمل الأدعية وأخلص الابتهالات . ومتى جمعت هذه الأدعية فى أسفار خاصة فقد أوجدت من الأدب الرفيع ماتتضاءل دونه دواوين الفخر والمدح والهجاء .

أنغمض العيون عن هذه الثروة الممتازة من البيان وقد ابتدأها الرسول ، ثم نهج نهجه عشرات الصادقين من البررة الأخيار . وهى بعد لم تقبع فى حيز

ضيق وزمن محدود ، بل أدركها التطور فأصبحت — على مر الزمان تتلى في صورة أوراد وأحزاب واستغاثات .

إن مالدينا من ذخائر الأدب الصوفي الصحيح بابتهاالاته ، وأوراده ، وأحزابه ، واستغاثاته أوفى وأعظم وأبهر من أن يغفله التاريخ الأدبي . فكيف أغفله مؤرخو الإسلام وقد بدأه رسول الله ؟

قد التفت الدكتور زكي مبارك إلى هذه الناحية الخطيرة في الجزء الأول من كتابه عن التصوف الإسلامي ، فقال تحت عنوان « ذخائر منسية في الأدب الصوفي » مانصه :

« نتكلم في هذا الفصل عن طرائف من الأخيصة والمعاني والصور لم يهتم بها رجال الأدب ، ولم يحسبوا لها أى حساب ، ولعل السر في إغفال مؤرخي الأدب لهذه الفنون أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية في الميزان ، لأن الصوفية انحازوا جانباً عن صحبة الأدباء ، ولأن الأدباء أنفسهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالا شغلهم عن الأدب الذي يصور أحوال الأرواح والقلوب فظنوا أدب الصوفية بعيداً عن المجال الذي تسابقوا فيه . مجال التشبيب ، والوصف ، والحماسة ، والعتاب ، ولو أن رجال الأدب وعلماء البلاغة نظروا في الأدب الصوفي نظرة جدية لاتخذوا منه شواهد في المجازات والتشبيهات ، ولرأوا فيه كلمات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض ، ولكنهم انصرفوا عنه فلم نر في مؤلفاتهم النقدية غير شواهد من كلام الشعراء والخطباء والكتاب الذين سبقوا في ميادين غير ميادين الأرواح والقلوب . »

ومعنى كلام الدكتور زكي مبارك أن مؤرخي الأدب العربي لم يفهموا أن معنى الأدب في صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، بل فهموا أنه في الشعر مجموعة القصائد ذات الأغراض التقليدية ، وفي النثر رسائل وخطب

(١) التصوف الإسلامي ج ١ ص ١١٣ .

تشغل شئون الناس فى أحوالهم العامة ، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعاظ والنسك لا النقدة والأدباء ، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان ، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالذكر وماشابه ذلك إلى مشارق التردد والاحتفاء . وإلا فكيف جاز أن يبتدع محمد صلى الله عليه وسلم فن الابتغال فى الأدب العربى ، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية فيأتوا بدخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد ..

ما الذى يمنع أن نتدارك مافات من هذا الإغفال ، فينهض ناقد مخلص بتأليف كتاب أدبى تحت عنوان فن الابتغال فى الأدب العربى ، يبدأه بنشأة الابتغال الأولى فى دعوات الرسول ، ثم يتابع ما ولىه من تلاميذ الدعوة الإسلامية ، فيتحدث عن ابتهالات أئمة البيت النبوى ، وأدعية الصحابة والتابعين ، وأوراد المتصوفين ، وأحزاب الذاكرين ، ثم يشخص السمات الفنية للابتغال فى كل عصر ، وسيجد أمامه نبعاً يتدفق وبحراً لا يغيض .

يكفى فى مجال التقدير الأدبى لابتهالات محمد ، أنها ألهمت أئمة البيت النبوى — على سبيل المثال — أعذب مايروى من الأدعية ، فسارت ابتهالاتهم تشق الصدور المؤمنة حتى تسكن فى الشغاف وتحلق فى الأجواز العالية حتى ترفرف فى عليا السموات .

أليس أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه تلميذ محمد فبأى لسان رطب كان يصدح بصادق الابتغال ، وبأى شعور دفاق استلهم أستاذه وابن عمه حين قال فى دعوات الاستسقاء .

« اللهم قد انصاحت جبالنا وأغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتجبرت فى مراتبها ، وعجت عجيج الشكالى على أولادها ، وملت التردد فى مراتبها والحنين إلى مواردها ، اللهم فارحم أنين الآنة وحنين الحانة ، اللهم فارحم

حيرتها في مذاهبها وأينها في موالجها ، اللهم خرجنا إليك حين اعتكرت علينا
حدابير السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكنت الرجاء للمبتسئس والبلاغ
للملمتمس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ألا تؤاخذنا
بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنيع ، والربيع
المغدق والنبات المونق ، سحا وابلا تحيي به ماقد مات ، وترد به ماقد مات ،
اللهم سقيا منك محيية مروية ، تامة عامة ، طيبة مباركة ، زاكيا إنباتها ثامرا
فرعها ناضرا ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك ، وتحيي به الميت من بلادك ،
اللهم سقيا منك تعشب بها نجادنا ، وتجرى بها وهادنا ، وتخصب بها جناننا ،
وتبقل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشينا ، وتندى بها أفاقينا وتستعين بها ضواحيننا
من بركاتك الواسعة

وعطاياك الجزيلة على بريتك المرملة ، ووحشك المهملة ، وأنزل علينا سماء
مخضلة مدرارا هاطلة ، يدافع الودق منها الودق ، ويحفر القطر منها القطر ، غير
خلب برقها ، ولا جهام عارضها ، ولا قزع ربابها ، ولا شفاق ذهابها ، حتى
يخصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المستنون فإنك تنزل الغيث بعد
ماقنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد» (١)

كيف ننسى أمثال هذا الابتهاال ، وهو في ميزان النقد الأدبي من أرفع أنماط
البيان ، وللإمام على أمثلة عدة من نوعه . ولكن القوارق الأدبية واضحة ما بينه
وبين ابتهاالات محمد ، فابتهاالات الرسول ﷺ تعتمد على الإيجاز واللمح ،
وتشير إلى الكثير ببعض القليل ، أما ابتهاالات الإمام على فتعتمد على التشقيق
والتفريع ، إذ أن من سماته البيانية لدى النقاد إشباع الفكرة بتذييلها وتوشيتها ،
ولن يكون التلميذ نسخة متشابهة من الأستاذ في كل الوجوه .

(١) التصوف الإسلامي ج ٢ ص ٦٠ عن نهج البلاغة .

سيقول الذين فى قلوبهم مرض أن يد الشريف الرضى وراء كل مانشره فى نهج البلاغة منسوباً للإمام ، ونحن نقول لهم إن علياً كان أبلغ الخطباء بعد رسول الله ، ولن نستكثر عليه أكثر ما عزى إليه فى نهج البلاغة مما توحى به طبيعة عصره وأفكار جيله ﴿ فلا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون ﴾ .

ومن غير على من بيت النبوة برز فى الابتهالات؟! إنه حفيده على بن الحسين المعروف بزین العابدين ، وله من الأدعية ما كاد يلحقه بجده الإمام براعة ، وتشقيق منطق ، وحرارة روح مما استلهم فيه جد أبيه محمداً خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً .

لقد كان زين العابدين رضى الله عنه لا يقصر الابتهالات على المسائل الشخصية ، بل يقفز بها إلى الوضع السياسى فى عصره ، وهو فى ذلك مصيب إذ يعلم أن الله عز وجل وحده صاحب الكلمة العليا فى سياسة الناس وإليه يجأ المظلوم من الظالمين ، والذين يقصرون الابتغال على مسائل الآخرة دون مسائل الدنيا غافلون ساهون ، ويستطيع مؤرخ الابتهالات أن يضيف إليها الجديد إذا دقق فيما روى عن على وحفيده من شكايه الزمان ومحاربة الطغاة .

يقول زيد العابدين على بن الحسين فيما روى عنه من الابتغال :

« اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكم فى عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقص حكمك وسعى فى تلف عبادك المؤمنين فجعل فيأنا مغنماً ، وأمانتنا ميراثاً ، واشتريت الملاهى والمعازف بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فرتع فى مالك من لا يرعى له حرمة ، وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة فلا زائد يذودهم عن هلكة ، ولا راحم ينظر إليهم بعين الرحمة ، اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته ، واستحكم عموده »^(١) .

(١) التصوف الإسلامى ج ٢ ص ٦٤ .

ولا ينكر نقمة زين العابدين على بنى أمية من يعلم أن الحسرة تشتعل في صدره منذ رأى أباه الحسين جزر الرماح بكربلاء في يوم يشيب فيه الولدان ، وتلك لحظة مفزعة لن يبرح هولها مخيلة الابن الملتاع .

ولن يطول بنا الاستطراد فنحصى من بيت النبوة من برع في الابتهاال ، ولكننا نختم القول بجعفر الصادق الإمام الصائم المعروف بالسجاد ذى الثفتان فإن ابتهاالاته البارعة وحدها باب معلم في دنيا البيان ، والله ما أرق قلبه وأخلص نفسه وأنقى ضميره حين أخذ يسأل ربه في ضراعة دامعة وابتهاال كسير .

أترك تغل إلى الأعناق أكفا تضرعت إليك ، واعتمدت في صلاتها راحة ساجدة بين يديك ، أو تقيد بأنكالك الجحيم أقداما سعت إليك وخرجت من منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك ، منّا منك عليها سيدى لا منّا منها عليك . بل لست شعرى ، أترك تصم بين أطباقها أسماعا تلذذت بحلاوة كتابك الذى أنزلت ، أو تطمس بالعمى فى ظلم مهاويها أبصارا بكت إليك خوفا من العقاب وفزعا من الحساب ، أما وعزتك وجلالك ما أصغت الأسماع حتى صدقت ولا أسبلت العيون وأكف العبرات حتى أشفقت ، ولا عجت الأصوات إليك بالدعاء حتى أشنفت ، ولا تحركت الألسن ناطقة باستغفارها ، حتى ندمت على ما كان من زللها وعثارها » .

وبعد :

فلعلنا بعد هذا الاستعراض الأدبى لأفانين من الابتهاال النبوى على لسان محمد وآله صلوات الله عليهم وسلامه نعترف بريادة نبي الإسلام لمن وليه من المبتهلين ، كما نلقت النقاد إلى إنقاذ غرض هام من الأغراض الأدبية الجميلة كاد أن يعفى عليه النسيان . وفى أورد الصادقين من صوفية الشاذلية ، والبكرية ، والنقشبندية قد تراكمت لدينا تركة مثقلة تنتظر من يتقدم إليها

بالتشريح والتحليل فينفى منها الدخيل المفتعل ، ويكشف عنها المموه المتكلف
ثم يرد الفروع إلى أصولها والجداول إلى منابعها ، ويكتب تاريخ هذا الفن
مبتدئا بمحمد ﷺ إذ كان أول ملهم في الإسلام تطلع إلى أنوار السماء فائتلفت
في قلبه نورا وفاضت على لسانه ابتهالا صادقا ، ودعاء يرتقى إلى سدرة المنتهى
دون معراج .



سمات الأسلوب النبوي (أ) مقدمة

أشرنا فيما تقدم من الفصول إلى بعض سمات البيان النبوي وفق الأبواب التي خصصت لدراسة فروع محددة من أدبه عليه الصلاة والسلام .

ففي باب محمد الخطيب جعلنا من سمات الخطبة الغالبة في أدبه الإيجاز وقوة الإقناع ووضوح العبارة ، وأشبعنا كل سمة منها بالتدليل والتمثيل .

وفي باب الرسائل والوثائق جعلنا من سماتها الدقة الموجزة ومراعاة مقتضى الحال والوضوح الصريح مع ترك اللغو والفضول .

وفي باب الأقصوصة رأينا اعتماد الرسول على الوحدة الفنية ، والهدف الواضح ، واللفظ الموحى الموجز مع الاستثارة والتشويق .

وفي باب محمد الداعية رأينا أدب الدعوة يعتمد على التكرار المعنوي ولباقة العرض ، واستثارة الوجدان الإنساني بتقديم ما يشبعه ويقنعه ويرضيه .

وذلك كله لا يغني عن كتابة فصل خاص بتشريح سمات الأدب المحمدي على نحو كاشف بحيث تكون السمات السابقة جداول متفرعة من نهر واسع له خصائصه العامة في النقاء والصفاء والتدفق والعمق ، وإن شاركته فروعها المختلفة كثيرا من هذه الخصائص إلا أنه لها أجمع وعليها أدل .

وقد ألف بعض النقاد إذ يتحدثون في معرض الحكم الأدبي على الآثار البيانية أن يرسلوا كلمات فضفاضة واسعة تتكرر في كل نقد أدبي من مثل قوة الجزالة ومثانة السبك وشدة الأسر ، أو مثل إشراق اللفظ وحلاوة الرصف وبديع الانسجام ، أو مثل عمق الفكرة ودقة المعنى وسعة النظرة مما يطلق إطلاقا دون

تحديد ، حتى ليجوز في مذهبهم المتساهل أن ينقل مايقال عن أديب إلى أديب آخر ببعض التسامح إذ أن هذا الثوب الفضفاض في اعتقادهم مما يجوز أن يرتديه أكثر الناس ، ولا عليهم إذا جاء الثوب لائقا أو غير لائق ، وأظن تقدم النقد المعاصر لا يسمح لنا أن نتورط فيما تورط فيه المتساهلون ، فلا بد من تشريح دقيق لكل حكم ، وتشخيص مكتمل لكل رأى حتى يطمئن القارئ المثقف إلى صحة الموازين .

ونحن نعلم أن عناصر الأسلوب كما حددها النقد المعاصر ثلاثة هي الفكرة والصورة والعبارة ، أما العاطفة فقاسم مشترك بينها إذ أنها تتسرب إلى الفكرة فتذهب من جفافها ، وتلقى مزيدا من الضوء عليها فتظهر في سياق واضح لاغموض به ، وتأتى إلى الصورة فتجعلها وافية بالغرض ، مجملة له ، وتبعد عنها كل تنافر في الذوق ، أو ثقل في اللون والظل ، فإذا تسربت العاطفة إلى العبارة تفرقت في ألفاظها فصارت سلسلة مواتية وفي تراكيبها فأصبحت متآخية متماسكة ، وسيلنا الآن أن نعرض إلى كل عنصر من هذه الثلاثة بالشرح والتمثيل ..

(ب) الأفكار في الحديث الشريف

تتصف الأفكار البليغة عادة بالقوة والجدة والتحديد والتسلسل . فإذا عرضت هذه الأوصاف الجيدة على بيان محمد ﷺ فماذا أنت واجد ؟

أما قوة أفكاره فمما لا يرتاب فيه إلا خصومه ، لأن الذى ينقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لا بد أن يكون ذا فكر قوى غلاب ، وإذا كان البيان أكبر وسائله فى الإقناع والتأثير فلا بد أن تكون الأفكار التى يصورها هذا البيان من القوة بحيث ترج العقائد المتأصلة فى النفوس رجا عنيفا بل تحطمها تحطيمًا لتبنى مكانها عقائد أخرى تكون على أتم مايرجى لها من التأصل والرسوخ . يعرف هذا كل عاقل حصيف ، وإن كان أجنبيا عن العربية وعن أدبها ، فمتى قلت لأى مفكر فى شتى بلاد العالم إن

رجلا قاد الملايين بالمنطق المقنع من اعتقاد إلى اعتقاد مضاد فإنه سيقول لك دون حاجة إلى أمثلة وشواهد ! لاشك أن هذا القائد النافذ مفكر دقيق .

أجل كان محمد صاحب فكر قوى متسع شامل فى وقت كان فيه مقال المناير بالجزيرة العربية لا يكادون يخرجون عن واقعهم القبلى المحدود . فكل خطيب يجمع الناس ليرجم عن مشاعرهم فيما يقع من مجريات الحوادث والأحوال ، وإذا ارتفع عن مستواهم قليلا فإنه ارتفاع الطائر فى قفص مربع لا يتجاوز طوله ثلاثة أمتار فمهما اشرب إلى السماء فهو مقيد بسقف لا يلبث أن يهوى إلى الأرض حين يصطدم به ، أما محمد ﷺ فمنذ تسنم منبر الدعوة ، وهو يحلق بأمتة فى أفق لا انتهاء له ، وإن سامعيه لينظرون إليه مرتفعا فى أجوائه العالية ، وكلهم راغب أن يرتفع معه حيث يحلق ، وما كان هذا الارتفاع الشاهق إلا هتافا بالمثل الإسلامية التى دعا إليها ، ليعيد إلى الإنسانية كرامتها ، وينأى بها عن حضيض الخرافة ، والفسق ، والوآد، وعبادة الأوثان .

نطالع أفكار محمد التشريعية . وأهدافه الخلقية ، وأحاديثه الإنسانية وأخباره الغيبية فنجد ما لا يؤلف فى عصره ولا يعهد فى قومه . وإذا كان للتشريع ، والآداب الخلقية ، والأحاديث الغيبية أمكنتها الفسيحة فى كتب العلماء والمحدثين ، فإن المحلل الأدبى ينظر إليها من الوجهة الفنية فيجدها من ناحية الفكرة ذات قوة غالبية نفاذة تنبىء عن عقلية دقيقة واعية ، ومن هنا كثرت الحكمة فى البيان النبوى ، وتسابق البلغاء إلى اقتناصها لأن الحكمة لاتأتى إلا عن تجربة شاملة وفكر دقيق ، وفى كتاب أدب الدنيا والدين — مثلا — للماوردى عشرات من الأحاديث النبوية متفرقة فى أكثر الفصول تصور الحكمة النبوية فى سياقها الرصين ، وكثرة الحكم المحمدية العاقلة فى هذا الكتاب وأمثاله ينبىء عن تلهف علماء الأخلاق والآداب على روائع الحكم الغالية عند عقلاء المفكرين لتكون موضع الاستدلال والتأييد .

على أن روعة هذه الأفكار تزيد قوة وجلاء إذا نظر الناقد إلى سياقها وطريقة عرضها ، إذ أننا نجد نفرا من أدباء الفكرة يحاولون الاستعلاء في أسلوبهم فيغمضون ويدقون ، ويرون أن من واجب القارئ أن يرتفع إليهم مندفعين بشعور من الكبرياء يوهمهم أنهم في مستوى أرفع ، وقد كافأهم القراء بالقطيعة والانصراف ، حتى اضطروا إلى التراجع عن قلق وضيق ، أما الفكرة الدقيقة لدى محمد فتأتى في منساق واضح سهل ، وهى على دقتها النافذة لا تتعدى في كثير من أحوالها حديثا سيق في مجلس على ملاء من الناس ففهمه الجميع ، ولنا أن ننظر في مجال التطبيق الأدبي إلى مقال مثل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النعمان بن بشير .

« إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »^(١) .

أسطر قليلة تعرض عدة قضايا متنوعة يجمعها رابط دقيق ، فوضوح الحواجز بين الحلال والحرام لا يمنع وجود مشتبهات توجب اليقظة والحذر ، وتدفع إلى الاحتراز إذ أن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا تصوير محسوس لأمر عقلى يزيد به وضوحا وجلاء .. أما الحمى المحظور فمحارم الله ، وأما القلب فهو مصدر الصلاح إذا بعد عن المحارم أو الفساد إذا وقع فيها .. فما رأى القارئ في قوة هذه الأفكار وصوابها ؟ أليست تحمل الطابع العام لبيان الرسول ، وهو الصدق الموجز دون تزيد أو فضول .

وهذا الحديث الثانى « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ،

(١) التاج ج ٢ ص ٢١٨

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة
كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقه كان فى الساقه ، إن استأذن لم يؤذن
له ، وإن شفع لم يشفع ^(١) .

كم من الصور الإنسانية أوماً إليها هذا الأثر الشريف ، عبد الدينار يرضى
إذا أعطى ويسخط إذا منع ، والعبد المجاهد يأخذ بعنان فرسه مغبرة قدماه
أشعث رأسه ، والعبد المتواضع فى أعين الناس يستأذن ويشفع فلا يؤذن له ولا
يشفع وهو عند الله قوى مكين . إن تجارب محمد مع البشر قد أسعفته بهذه
الصور وأمثالها فهو يمتح من نبع فى نفسه لا يغيض ، على أنه يكتفى بالإيماء
اللامح لا الإسهاب الفاضح ليدعو السامعين إلى التفكير . وتلك إحدى مزايا
الإيجاز .

وهذا الحديث الثالث :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض
العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم
فضلوا وأضلوا » ^(١) .

أى فكرة صائبة مجربة . يسجلها هذا القول الحكيم . العلم لا ينزع انتزاعاً
بل يفنى بموت العلماء ، ومتى ذهبوا تصدر الجاهل فأفتى فضل وأضل . دع
الزمن يمر واقرأ هذا القول على جيل بعد جيل ، فإنك واجد من يشد على يدك
بالتأييد ، لأن الفكرة صائبة يعرفها السامع الذكى فيمن حوله من الناس ، وقد
لمست مكنم الداء لتهدى إلى الطريق القويم متى تقال .

أما جده الأفكار النبوية فهي أيضاً من المسلمات منطقياً إذ أن كل نبي يأتى
بالجديد لا محالة ، وأذكر أننا قلنا فى باب محمد الداعية إن التجاء الداعية

(١) هداية البارى ج ١ ص ٢١٤ .

الأعظم إلى التكرار والترديد لترسخ مبادئه وتتأصل تعاليمه كان يلزمه أن يجدد في الصورة والإطار حتى يظل لحديثه رونقه الخالب ، وقد ضربنا بعض الأمثلة من بيانه شواهد على التكرار المعنوي حين يتحد الهدف والغرض ، ويتنوع اللفظ والتركيب فمحمد صلى الله عليه وسلم حين يتحدث عن الغلول مثلا في الحديث التالي :

يشقق القول ويفرعه بما يجعل كل معنى من معانيه يحمل من الجدة الطريفة ما يذكي في النفوس شعورا جارا يتقد ، وذلك حين قام ذات مرة — كما روى أبو هريرة — فذكر الغلول فعظمه ثم قال « لألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لأملك لك شيئا ، قد أبلغتكَ ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكَ ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتكَ ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكَ ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، فيقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتكَ ^(١) .

لنعرف أولا أن قول أبي هريرة في مبدأ الحديث قام فينا رسول الله يدل على أنه كان يخطب ، وللخطابة سمتها الواضح من التكرار ، وضرب الأمثلة بما يهيج الانفعال ، ويذكي الإحساس . فليس المجال مجال إيجاز دقيق يكتفى فيه باللمح بل مقام استعراض لأحوال هامة من مشاهد الغلول ، ولكل مشهد صورة تختلف عن سابقه ولاحقه . هذا الاختلاف هو موضع الطرافة في الفكرة ، فلو أن الرسول قال : إن الغلول حرام ، وإن الإنسان سيحاسب يوم القيامة عما غل ، ثم دعا إلى تقوى الله ومراقبته ، لفاتته الجدة الطريفة في تعداد مشاهد تبعث

(١) التاج ج ١ ص ٥٧ .

التأثير الآخذ من منظر صارخ للهيف من ذوى الغلول ، وقد جثم على رقبتة بعير له رغاء ، أو فرس له حمحة ، أو شاة لها رغاء . أو عبد له صياح أو ذهب يثقل بوزنه . هذه الجدة قد أكدت الفكرة وجسمتها تجسيما حتى لتلمس باليد وترى بالنظر . وتلك بعض منافذ الإبداع فى بيان محمد .

لنتقل إلى شاهد آخر لهذه الطرافة الجديدة .

لقد كسفت الشمس ذات يوم فوق رسول الله صلى صلاة الكسوف متجها إلى ربه فصر به أصحابه يتباعد قليلا فى الصلاة عن مكانه .. ثم يعود إليه ثانية قبل أن يختم صلاته فسئل عن ذلك فقال فيما رواه مسلم :

« ما من شىء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتى هذه ، لقد جىء بالنار وذلكم حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه فى النار كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال : إنما تعلق بمحجنى ، وإن غفل عنه ذهب به ، وحتى رأيت صاحبة الهرة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعا ، ثم جىء بالجنة وذلكم حين رأيتمونى تقدمت حتى قمت فى مقامى ، ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه ثم بدا لى ألا أفعل ، فما من شىء توعدونه إلا رأيته فى صلاتى هذه »^(١) .

لك أن تعيد هذا الأثر مرة ثانية لترى كيف ضمن أفكارا هامة فى التنفير من الاحتيال على السرقة ، وتعذيب الحيوان الضعيف ، ومن تحقيق وجود الجنة والنار على وجه يقطع الشك . وهذا كله لا يترك صداه البعيد فى النفس إذا سيق مجردا من طرافته الجديدة ، إذ سيق فى مشهد يصور صلاة الرسول وقد تأخر قليلا حين لمس لفح النار وشاهد بعض المعذيين ، ثم تقدم حين رأى الجنة وهم أن يتناول من ثمرها فبدا له ألا يفعل .

(١) التاج ج ١ ص ٣٣٧ .

وشاهدان آخران لهذه الطرافة الجديدة فى عرض الفكرة يتراءيان فى قوله
ﷺ .

عن حذيفة رضى الله عن النبي ﷺ قال : « تلقت الملائكة روح رجل ممن
كان قبلكم فقالوا أعملت من الخير شيئا قال لا ، قالوا تذكر ، قال كنت أداين
الناس فأمر فتياي أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر فقال الله تعالى
تجاوزوا عنه » (١) .

وفى قوله عليه السلام :

عن أبى أبى موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا مات ولد العبد
قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي ، فيقولون نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده
فيقولون نعم ، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع ، فيقول الله ابنوا
لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد » (٢) .

فالشاهد الأول يشير إلى روح التعامل المتسامحة بين الناس فى البيوع
والمعاملات ، والشاهد الثانى يدعو إلى الصبر عند الآباء ، ولكن سياقهما الأدبى
كان من الطرافة بحيث جعل فكرتى الحديثين تتغلغلان فى النفس المؤمنة إلى
أبعد مدى استطاع .

ولعلنا نكتفى بما تقدم من الأمثلة الخاصة بطرافة الفكرة لنستدل على تحديد
المعانى وتسلسلها فى الآثار النبوية ببعض الآثار .

إن تحديد المعانى من سمات المفكر المطمئن الذى يجيل النظر طويلا فى
الأشياء والخواطر ، ليقرن النظر إلى النظر ، وليجمع بين الأمور المتقاربة فى
أحكام تتشابه على قدر ما بينها من الاتفاق ، وصاحب هذا التحديد الدقيق فوق

(١) التاج ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) التاج ج ١ ص ٣٧٩ .

إدراكه القوى ، ونظيره المحيط ذو خبرة حاذقة بدخائل النفوس ، فهو في تحديده الضابط يختصر مسافات بعيدة من الفحص اليقظ والتتبع الدائب ليقدّم خلاصتها الموجزة مركزة في عدة نقاط متقاربة . فأنت حين تسمع مثلا قول الرسول ﷺ .

الخيال ثلاثة هي لرجل وزر . وهي لرجل ستر ، وهي لرجل أجر . أما التي هي له وزر ، فرجل ربطها رياء وفخرا على أهل الإسلام فهي له وزر ، وأما التي هي له ستر ، فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولارقابها فهي له ستر ، وأما التي هي له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء ، إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أبوالها وأروائها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفا أو شرفين إلا كتب الله عدد آثارها وأروائها حسنات ، ولامر بها صاحبها على نهر فشربت ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات^(١) .

فحمد ﷺ بهذا التحديد الدقيق لأنواع الخيال ، قد استعرض في تأمل صامت أحوال ذوى الخيول ممن يناوئون بها الحق ، وممن يعملون بها لأنفسهم ، وممن يعملون بها لله . ثم أفاض في مزايا النوع الأخير لأنه الهدف الأول من مساق الحديث إذ هو في سياقه النبوي دعوة صريحة إلى إعداد القوة الضاربة في الإسلام ، وقد كانت الخيل من أعظم مظاهرها وأقواها تأثيرا في عصر الدعوة الإسلامية . وأعتقد أن سامعي الحديث من الصحابة قد استعرضوا أنفسهم استعراضا دقيقا في ضوء ما ذكر الرسول ، وقد فطنوا في بصيرة مؤمنة إلى من ينطبق عليهم الوصف الأول من مجاورتهم من المنافقين أو المشركين ، وإلى من توسط فاكتفى بالستر عن الأجر ثم طمحت نفوسهم أن يكونوا بين من ربطوا خيولهم في سبيل الله لأهل الإسلام ، وقد راعتهم بعد ذلك هذه الفراسة

(١) التاج ج ٤ ص ٣٥٥ .

البصيرة في استشفاف النفوس ، وهذه القدرة النافذة على التحديد والتشخيص .

وقريب من هذا الأثر الجامع المحيط قول النبي ﷺ في أثر آخر :

عن قبيصة بن مخارق الهلالي رضى الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجبا في قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش فما سواهن من المسألة يا قبيصة يأكلها صاحبها سحتا ^(١) .

لا يدرك قيمة التحديد الدقيق في هذا الأثر الكريم إلا من يعلم أن المال مهوى كل طامع ، وأن النفوس قد جبلت على حبه والاستزادة منه حتى لتشتط فترتكب ما نهى الله عنه في سبيله . وكم من أكاذيب منكرة اخترعت اختراعا لاتزاره من الكرماء « و » الأنفس الشح ، والرسول في مكان الزعامة من المسلمين فلا ينفك يأتيه الطارقون صباح مساء سائلين راغبين ، منهم الصادق ومنهم الكاذب . ولا بد أن يرسم قانونا دقيقا للمسألة متى تحل ومتى تحرم ، ولا بد أن يستعرض أحوال عصره من احتمال المغارم لدى الرؤساء واختراع الحيل لدى الطامعين ، والركون إلى الكسل دون العمل عند من يعشقون الفراغ ثم يتسولون في الأندية ، أن يستعرض جميع مامر عليه من أمور الناس ، ومايحتمل أن يمر عليه من صنوف السائلين ، ثم يحدد المسألة المشروعة في ثلاثة أحوال عند تحمل الحملات ، وعند نزول الجوائح ، وعند الفقر المعسر ، ولكن بعض الناس ينتهزون الفرص ليستولوا على المال من غير طريقه فلا بد من تحديد آخر لهؤلاء ، فصاحب الحمالة تجمل له المسألة حتى يصيبها ويمسك . لا أن يطوف بالناس فيجمع ويجمع بحجة أنه تحمل بعض الحملات وقد أربي

(١) التاج ج ٢ ص ٣٤ .

ماجمعه على مأعطاه . وصاحب الجائحة تحل له المسألة حتى يصيب قواما من عيش لا أن ينتهزها فرصة للاستجداء المتواصل . وصاحب الفاقة لا بد أن يشهد ثلاثة من ذوى الحجا ، على فاقتة حتى تحل له المسألة منعا للادعاء المنكر ، والإلحاف المهين فى غير حاجة .. وذلك بعض ماخطه هذا الأثر الحكيم .

ومن التحديد اللافت مايتقدم به الحديث النبوى من ذكر العدد كأن يقول رسول الله ثلاثة من كن فيه كان منافقا خالصا ، أو اتقوا السبع الموبقات ، أو لاحسد إلا فى اثنتين ، أو سبعة يظلهم الله فى عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم إلى ماينحو هذا النحو هو كثير فى الحديث الشريف ، وقد ألف الأصوليون أن يقولوا فى كتبهم إن العدد لامفهوم له ، وهو قول له دلالة التشريعية دون نزاع .

ونحن هنا لانبحث عن الدلالة التشريعية ، ولكننا نبحث عن الدلالة التأثيرية ، وهى المقصودة من الأسلوب الأدبى فى عالم البيان ، لأن السامع حين يسمع لأول وهلة قول الرسول آية المنافق ثلاث لاينصرف ذهنه إلى أن للمنافق أكثر من عشرين صفة يمكن إحصاؤها بسهولة ، ولكنه يتتبع الأمور الثلاثة المنصوص عليها فى يقظة وحرص محاذرا أن يكون على شىء منها وكأن هذه الثلاثة تسد عليه الأفق فإذا وجد منها انفلاتا ، فقد استراح ، وإذا وقف أمام بعض أبوابها فإنه ليجتهد أن يدفعه عن وجهه ، وهذا هو التأثير الجاذب لسطوة العدد يلقي فى مفتتح الحديث ، فهو لا محالة نوع من التحديد الفنى .

أما تسلسل الفكرة فما أشد وضوحه فى البيان النبوى ، والمفكر المكين هو الذى تتساقق أفكاره متتابعة وكأنها ماء يطرد فى نهر مستقيم القاع . أما من يستعصى عليه التسلسل المطرد فهو لاقط مترصد يجمع شاردة من هنا وواردة من هناك ليملاً بها الوقت إن تحدث ويسود بها الورق إن كتب ، ولن يجد من السامع أو القارىء سوء الضيق فهو ايتساءل نافرا عن هذه المعانى يزحم بعضها بعضا دون ترتيب . وإذا رآقت النفس فكرة ثم وليتها فكرة أخرى غير متجانسة

فإن الثانية تعصف بمحاسن الأولى وتعفى عليها دون انتظار ، ولن نحتاج فى مجال الحديث عن تسلسل البيان النبوى إلى غير الاستشهاد بقوله دون تعليق لأن النسق النبوى فى اطرافه المتسلسل وتلاحقه المتتابع لا يحتاج إلى تعقيب . فهو من وضوحه الساطع بحيث تغمره أشعة الشمس بأموج الضياء .. وإليكم بعض النماذج من المأثورات :

١ — عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يتبغى فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على الجاهل كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » (١) .

٢ — عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساع الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » (٢) .

٣ — عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلم عار إلا من

(١) التاج ج ١ ص ٥٧ .

(٢) التاج ج ١ ص ٢٩٨ .

كسوته فاستكسونى أكسكم ، ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ، ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد مانقص ذلك فى ملكى شيئا . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسأله مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، ياعبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١)

٤ — عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه . »

هذه بعض النماذج ، نقدمها لتسلسل الفكرة وترتيبها ، فى حديث الرسول ولنا بعد هذا التطواف أن نوجز ماشرحناه من خصائص الأفكار النبوية فى القوة والطرافة والتحديد والتسلسل مع الميل إلى الإيجاز المحكم ، وماكان من تكرار ينافى الإيجاز فى بعض الآثار النبوية فقد أوحى به الموقف الخطابى وحده وهو قليل فى غير الخطابة حتى ليكاد يعد عدا ، ومن هنا اشتهر محمد ﷺ بجوامع الكلم إذ أن المقصود بهذه الجوامع كل جملة قصيرة تضم معنى كبيرا ، مثل « إنما الأعمال بالنيات » « الدين النصيحة » ، (الضعيف أمير الركب) ، « إن من البيان لسحرا » ، (خير الأمور أوسطها) ، (المرء مع من أحب) ، وماينحو ذلك المنحى من كل قول قصير يرمز إلى معان تتسع لها النفس بما توحى

(١) التاج ج ٥ ص ١٥٦ .

وتشير . ولا يعلم مزية الإيجاز في موضعه غير من يعلم معابة الإطناب في غير موضعه ، وإلى ذلك يشير الأستاذ أحمد حسن الزيات في مقال له تحت عنوان « البلاغة بين الإيجاز والإطناب » قال فيه :

« وملاك الإيجاز غزارة المعاني ووضوحها في الذهن وطواعية الألفاظ ومرونتها في اللسان ، وإنما يكون العي والثثرة ومضغ الكلام من جذب القريحة أو قلة العلم أو سقم الذوق وقديما قالوا « من ضاق عقله اتسع لسانه » لذلك كان الإسهاب أول ما يصاب به ناشئة الكتاب لأن جهدهم القليل يضيق عن شرح الفكرة فيدورون حولها مجممين بالكلم الفوارغ ، والجمل الجوف إلى أن قال « والإيجاز في البليغ قوة وروية وجهد لأن الإيجاز غريبة ، ونخل ، وتصفية ، وتنقية ، وتصعيد ، وتركيز ، وذلك لايتها إلا بدوام النظر وطول التعهد ، وإن للكلمة الموجزة سحرا يأخذ بالقلوب وشعرا يجرى في الشعور ، وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبد الله « إن من البيان لسحرا » وقال في مقام الفخر والشكر « أوتيت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا »^(١) .



(١) افتتاحية مجلة الأزهر صفر سنة ١٣٨٤ هـ .

(ج) الصور البيانية في حديث الرسول

حين نتحدث عن الصور البيانية في أدب محمد ﷺ ، إنما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوي . جاء على أكمل تمامه وأبهى أصباغه وأورف ظلاله وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب في العربية . ولن نرسل القول دون تدليل ، فإن المتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إليه النفوس من القول ، لما فطر عليه ﷺ من معرفة عناصر التأثير في البيان وأوجه الجمال في اللسان ، فجاء حديثه النبوي من البلاغة العالمية في موضع تتطلع نحوه الأبصار ، وتتقاصر دونه الأعناق .

لقد أتعب البلاغيون أنفسهم في تحليل الصور البيانية ، وجنح بهم حب الاستقرار إلى تفصيلات مختلفة عن التشبيه الحسي والعقلي والخيالي والمفرد والمركب والمتعدد . وجاء النقد المعاصر ليقتضب كثيرا من ذلك مرجعا حقيقة التشبيه الجيد إلى إدراك ما بين الطرفين من صلة صادقة تؤثر في النفس . فالتشبيه الملق من أجزاء توجد في الخارج ، وقد جمعت بتحاييل عقلية مفتعل على نحو ما قال الشاعر ،

وكان محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد

والتشبيه الذي أغفلت فيه مشاعر النفس واقتصر على مجرد تشابه المنظر البصرى من مثل قول الشاعر .

ولا زود رية تزهو برونقها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق هامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت

والتشبيه الذي تستجاد فيه الصورة لدلالاتها على أشياء مترفه ثمينة دون أن

تلمس شغاف النفس بما تترك من تأثير قوى فى مثل قول ابن المعتز — على شهرته وافتتان أكثر القدماء به .

وبدا الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

كل هذه التشبيهات وعشرات تنحو نحوها قد فقدت مكان الاعتزاز لدى النقد المعاصر ، لأنها جعلت التشبيه مجال احتيال عقلى بعيد عن أطواء النفس وقد نسى أصحابها أن التشبيه يأتى ليزيد المعنى جمالا وصقلا يتركان تأثيرهما فى نفس ذات إحساس ، فليست مسألة التشبيه معركة ذهنية تبعث بالعقل إلى تتبع المتقاربات فى الحجم والألوان ، لتقرن الشئ منها بالشئ الآخر . إنما المسألة فى التشبيه مسألة نقل إحساس الأديب إلى القارئ لينفعل به نفسيا . ويتأثر وجدانيا . وقد أصبح ذلك من بدائه القول ومسلماته لدى الناقدين ، ولعل أول ناقد معاصر حمل قلمه الثائر لتصبح المفهومات البلاغية فى التشبيه هو « الأستاذ عباس محمود العقاد » إذا واجه « شوقى » بقوله عن الجزء الأول من الديوان :

« اعلم أيها الشاعر العظيم أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ، ويحصى أشكالها وألوانها ، وأنه ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشئ ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول لك ماهو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا ، وأن يودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبده مارآه وماسمعه ، وخلاصة مااستطابه أو كرهه ، وإن كان كذك من التشبيه أن تذكر أحمر ثم شيعين أو أشياء مثله فى احمرار ، فمأزدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعه وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك ، وماابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس ، وبقوة الشعور وتيقظة وعمقه واتساع مداه

ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لاغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقّة إلى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نوراً ، فالمرآة تعكس على البصر مايرد عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموجود وجوداً إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساساً بوجوده ، وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطيء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإذا كان لايرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، ذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة وماإخال غيره كلاماً أشرف منه إلا بكم الحيوان الأعجم .

هذا كلام العقاد عن التشبيه . وهو ينطبق على النثر الأدبي كما ينطبق على الشعر سواء بسواء ، لأن كلاهما يسع من العاطفة مستمداً معانيه وصوره من مدركات الحواس وانطباعات الثقافة .. ولو أردت أن تطبق قواعد التشبيه الصائبة في النقد المعاصر على ما لدينا من أدب الرسول لراعك أن تجد الصورة البلاغية في أدب محمد ﷺ مما يشرف البيان العربي في كافة عصوره ، بل مما تتخذ نمطاً علياً يحتذى به عند الاقتداء لأنها في لبابها الصميم صور حية وإبداع ملهم مطبوع لا صنعة متكلف يتفاح . وسيلنا الآن أن نخصها ببعض التحليل .

نعرف أن عالم الحس هو الحقائق الماثلة التي ندركها بحواسنا . وعالم الخيال هو هذه الصور الذهنية التي ترسم على صفحات عقولنا وتختزن في ذاكرتنا ، وهي التي تنشئ منها الجديد من الأشكال والمظاهر^(١) وأن استعادة

(١) الأصول الفنية للأدب ص ٩١ للأستاذ عبد الحميد حسن .

هذه الصور لا تكون بهيئتها المخترنة دون تغيير ، وإلا ما كان للأديب فضل كبير في الإبداع ، لأن لكل إنسان صورا مخترنة كثيرة يستطيع أن ينقلها كما أحس بها دون جهد ، إنما الفضل كل الفضل في إبراز هذه الصور المخترنة بعد اختيار للجيد ، ونفى للردىء ، وحذف للعناصر التافهة وإثبات للعناصر الحية . هذه العملية الإبداعية الكبيرة هي ما يسمى بالخيال الفنى ، فالخيال لدى الأديب أولا لا يوجد من العدم بل مما اختزن في أعماق النفس ، ولا يأتي ثانيا بصوره المخترنة كما هي فتتضاءل مزيته عن سواه ، بل يخضع لتنسيق فنى تراعى فيه أوجه التقارب والتشابه . ويتوقف نجاح الأديب على حسن اختياره للصور التى تجلو معانيه ، وتغمرها بالوضوح والإشراق ، فالصورة المنسقة البارعة هى التى تزيد المعانى جمالا به يقترب البعيد ويجلى الغامض ، فينتقل الشعور به إلى النفس حيا قويا ممتازا وعلى قدر هذا الانتقال الحىّ النافذ من الكاتب إلى القارىء يكمن إبداعه وتوفيقه قوة وضعفا وتحليقا وانحدارا ، وإذا كان الأمر فى الخيال الأدبى لا يكتمل بغير ذلك فلننظر إلى مالدينا من أدب النبوة التصويرى فى ضوء هذه المسلمات .

لقد أراد محمد صلى الله عليه وسلم أن يقرر أن الناس يختلفون فى تلقى الهدى والعلم عن الرسول ، فمنهم من تشبع نفسه بالهداية النبوية فتزكى روحه وتصل نفسه ، ثم ينفع غيره بما لديه فيفـىء إليه الناس يعملون ويهتدون ، ومنهم من يحفظ العلم فينقله إلى غيره فينتفع به الناس دون أن يمس شغاف نفسه أو يلج أطواء روحه ، ومنهم وهو موضع الذم القادح من هؤلاء الثلاثة من أعرض ونأى فلم ينفع ولم ينتفع . . هذا الأسلوب التقريرى فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاخا وتأثيرا كى يتأصل فى النفوس تأصلا تمليه الروعة البيانية . فلا بد من هيئة جامعة تدرج فيها هذه الأنماط المختلفة . هنا يلجأ الأديب إلى الصور المخترنة فى عقله ؟ ولكن أية صورة ؟ إنها التى تتطابق وتتفق اتفاقا يوضح الحقيقة ويزيد ضياءها سطوعا وإيماضا . فلا بد من تنسيق وصقل واختيار ليأتى الثوب دقيقا أنيقا ، والماء فى رأى أديب مما يناسب أن يشبه به العلم ، إذ هو مصدر الحياة

للناس كما أن العلم حياة العقول والأرواح ، والماء ينهمر على الأرض ، فمنها ما يخصب وينبت ، ومنها ما يحفظ ، ومنها ما يبدد . كما أن من النفوس ما ينتفع وما ينفع ولا ينتفع ، ومالا ينتفع ولا ينفع . . لقد اقتربت الصورة العامة ولم يبق على الأديب المبدع إلا أن يصوغها صياغة نفاذة ملهمة إذ يقول :

« عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكأا والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كأا . . فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ، رواه الشيخان^(١) .

هذا المثل الأدبي الرائع تد جلا المعاني الخاصة بالانتفاع بالهدى والعلم جلاء مؤثرا ، فأضاف إلى الحقيقة الفكرية بمدلولاتها الثلاثة صورة جعلتها تختال أمام العيون في ثوب بهيج ، ولا شك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثرا وانفعالا بما سمع ، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققا محللا إذ مس أوتار قلبه مساً حيا . وإذا بلغ الأديب بتصويره مبلغ التأثير القوي فقد أدى رسالته البيانية على أكمل ما يراد .

إنك لتبحث عن نظير لهذه الصورة النبوية في كلام البشر فلا تجد ، ولكنك تجد مثلاً لها وأقوى منها في قول الله عز وجل : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ . فإن الانتفاع بالماء عند قوم وضياعه هباء عند آخرين في الصورتين القرآنية والنبوية معاً مما قوى به المثالان قوة مؤثرة . والقرآن أستاذ محمد فهو يستلهمه ويستهديه .

(١) التاج ج ١ ص ٦٢ .

هذه صورة نبوية رائعة تتبعها بغيرها في مجال التشريع .

أراد رسول الله ﷺ أن يحدد الحرية الشخصية للفرد بما لا يعقبه ضرر الجماعة ، وهو مبدأ معروف في جميع الشرائع الدولية ، فلم يقل في أسلوب تقريرى إن الفرد مقيد بمصلحة أمته فلو أتى من الأشياء مايسىء إليها كان موضع المؤاخذه . بل لجأ إلى الصورة الأدبية لتلقى ضياءها الكاشف على هذه الحقيقة . فتصور سفينة تسبح بالناس فوق الموج ، وقد أخذ كل راكب مكانه على حذر فجلس قوم فى الأعلى ، وجلس آخرون فى الأسفل . فكان الجالسون فى الأسفل يضطرون إلى الذهاب للناحية الأخرى كى يستقوا من النهر ، وقد عدوا ذلك مشقة مرهقة . ثم بدا لهم أن يخرقوا مكانا فى موضعهم ليصلوا إلى الماء مباشرة . وذلك موضع الخطر على الراكبين جميعا إذ أنه سيهوى بهم لا محالة فى القاع . فلا بد أن تهب الجماعة لدرء هذا الشر ، وإلا هلكوا جميعا . فحرية الفرد إذن مقيدة بمصلحة الجماعة ، وعليه أن يتحمل بعض المشاق الخاصة منعا لضرر خطير يلحق الجميع . كم ترورك هذه الحقيقة الباهرة مصورة فى قول محمد ﷺ .

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا . ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا »^(١) .

ومزية أخرى للتمثيل الأدبى الجيد هى أنه لا ينطبق على المعنى المراد توضيحه وحده بل يتعداه إلى أمور بعيدة عن نصه ، ويمكن أن تندرج فى فحواه . فإذا كانت الصورة الأدبية فى حديث السفينة قد ألفت ضوءها النافذ

(١) هداية البارى ج ٢ ص ١٢٦ .

على مشكلة الحد من الحرية الشخصية ضمانا لسلامة المجموع فجعلت هذا المبدأ بما ألتقت من الأشعة والظلال بمنزلة المقررات البديهية التي لا يتمارى فيها المجادلون فإن القارىء الناضج هو الذى يسبح بتفكيره فيضم إلى الصورة الفنية أمورا أخرى يمكن أن تندرج تحتها لبعض وجوه التشابه القريب . ومثال ذلك ما بسطه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى قوله تعليقا على الحديث المتقدم : « كان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروبا من الأوصاف كحرية الفكر ، والغيرة والإصلاح ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا بفأسه أى بقلمه زاعما أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ويتولاه ، كيف أراد موجهها لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة جاهلا أن القانون فى السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد بعد مادامت ملججة فى بحرها ، سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة أصغر من خرق ، ليس لها إلا معنى واحد هو أوسع من قبر إلى أن قال الأستاذ الرافعى : « هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه صلى الله عليه وسلم كلما زدته فكرا زادك معنى وتفسيره قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف وإن مدت مد وما أديت به تأدى »^(١) .

ولعل بعض أسباب هذه الروعة فى التصوير النبوى ترجع إلى ما تتضمنه الصورة من الإيجاز البليغ ، إذ أن هذا البيان الذى يفتح لأمثال الأستاذ الرافعى

(١) وحى القلم ج ٣ ص ٨ .

هذه الآفاق لم يذهب فيه قائله مذهب الإطناب حتى تنفرج كثرة القول عن مسائل كثيرة . ولكنه الإيجاز بحيث لا يتجاوز كلمات معدودات أحكم محمد وضعها حيث تشع كل كلمة بيدائع الفكر وروائعه .. ولو سلك به القائل صلى الله عليه وسلم مسلك الأسباب ما كان له هذا السطو الأخاذ . فهو أدرى بمناحي الروعة ومثارها لدى النفوس ، لذلك نراه عليه السلام يوجز ويوجز . حتى فى مجال التصوير الأدبى حيث يتوهم بعض الناس أن روعة الصورة البيانية لا تكتمل إلا بانفتاق القول واتساع الحديث . وها نحن أولاء نرى السطر الواحد من بيان محمد يسع حشودا . ولدينا مع ماتقدم مثل آخر .

١ — روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبقت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتقفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع »^(١) .

٢ — روى أبو موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن كممثل الخامة من الزرع من حيث أتنها الريح كفاتها فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة الصماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء »^(٢) .

فالشاهد الأول يتحدث عن الإنفاق ، وحب المال جبلة فى النفس فهو منها بمنزلة مكينة قابضة لا تسمح له بالانفلات . وقد لجأ القرآن إلى التصوير البيانى فى مواضع كثيرة ليدفع هذه الأنفس الشح إلى التصديق ابتغاء مرضاة الله فوالى الأمثلة التصويرية مثالا خلف مثال من نحو ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كممثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة ﴾ ، ونحو ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كممثل جنة بربرة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ﴾ إلى آخر ما نعلم من كتاب الله ، وجاء

(١) هداية البارى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) هداية البارى ج ٢ ص ١٢٦ .

محمد ليهتدى بهدى القرآن فيضرب المثل المعبر عن حالتي الجواد والبخيل ،
فالكريم إذا أراد النفقة والتصدق كانت نفسه راضية قريرة فهي تدفعه إلى الخير
مستريحة مسرورة ، وإذ ذاك يتقبل الله معروفه فيمحو به مأسلف من السيئات ،
أما البخيل فيستمع إلى داعي الخير ما يستمع حتى إذا ألح الطرق على سمعه وهم
ببعض التصدق ثار عليه شحه . فقبض يده عن المعروف . وما أشبه الأول بمن
يرتدى درعا فضفاضة تتسع له في تمام وطول حتى تغمر جسمه وتتجاوزته إلى
أثره على الأرض فتمحوه ، وذلك كناية عن محو الآثار لأن الحسنات يذهبن
السيئات .. أما الثاني فقد لزقت كل حلقة من حلقات الدرع مكانها فهو يوسعها
فلا تتسع . إن التعبير بقوله لزقت ليصور من معاني القبض والشح والكزازة شيئا
كثيرا لا تتسع له الصفحات . وإذا كانت الحلقات الملتصقة من حديد فماظنك
بنقلها وضيقها وأخذها بالمخانق والأوصال . أترى تصويرا رائعا للمتناقضين من
الكرماء والبخلاء يبلغ موضع هذا التصوير الحى فى التمثيل النبوى المبين .

أما اختياره الخامة من الزرع للمؤمن فى الشاهد الثانى ، فما أصدق وأدقه جل
بذهنك فيمن تعرف من أصدقائك المبتلين ، وتذكر صديقا مؤمنا لا يكاد ينجو
من مأزق فى نفسه أو أهله أو ماله إلا ارتطم بمأزق ، فهو دائم الوقوع
والاعتدال ، إن الضيق ليبلغ به أعنف مبلغ إذ يرى نفسه هدفا للقدر ينوشه أنى
سار ، وهو بعد ملتزم حدود دينه كبير الأمل فى ربه ، فى حين يرى نجاره
الفاجر يعب وينهل من المحرمات دون أن تعثر به قدم .. لاشك أنه سيقارن
ويوازن وقد يغشى روحه ضباب الشك لحظات مريرة فيرتاب فى مسلكه النزيه ،
فإذا تلوت عليه حديث محمد بتصويره الملهم فسيرى نفسه كمثل الخامة من
الزرع تكفأ وتعطل فإذا اعتدلت ذهبت بالبلاء ومحقت مأسلف من الأوزار .
وسيلغ البيان النبوى من نفسه مكان الرضا والاستبشار ، بل إن شعوره نحو
جاره الفاجر لينقلب من الحسد إلى الرثاء إذ يراه يوشك أن يقصم كالأرزة
الصماء فلا تنهض له قائمة متى شاء الله ؟ أى سحر يثته هذا البيان .

إن التمثيل الأدبي أرقى ما تعرف من صور البيان ، وللقرآن الكريم والحديث النبوي منه مالا يتعلق بعبارة متعلق ، وقد أجاد نابغة البلاغة العربية « الشيخ عبد القاهر الجرجاني » في وصف تأثيره النفسى إذ خصه بفصل رائع فى أسرار البلاغة قال فى مفتتحه^(١) :

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية فى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة . ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفئدة صباية وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطىها محبة وشغفا .

فإن كان مدحا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف وأسرح للألف ، وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمناذح وأقضى له بغر المواهب والمدائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه أذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد . وإن كان حجاجا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر . وإن كان افتخارا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد . وإن كان اعتذارا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل وللغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفت وعلى حسن الرجوع أبعث ، وإن كان وعظما كان أشفى للصدر وأدعى للفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر أن يجلى الغيبة ، ويبصر الغاية ، ويبرىء العليل ، ويشفى الغليل .

ثم مضى الشيخ يستعرض لذلك أمثلة من الشعر العربى مما قال : « البحترى وابن الرومى وأبو تمام والمتنبى وغيرهم » . فاضطر السيد « رشيد رضا » ناشر الكتاب أن يذكر فى هوامش الفصل أمثلة من القرآن تبلغ الغاية فى التدليل من

(١) أسرار البلاغة ص ٩٢ .

مثل قول الله ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ﴾ وقوله ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ ، أو ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ﴾ . أو ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكون ورجلا سلما لرجل ﴾ أو ﴿ فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ ، أو ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ أو ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ أو ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ أو ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ﴾ وهو جهد موفق قام به صاحب المنار ليشير إلى أن كتاب الله أولى بالصدارة والاستشهاد والتمثيل .

وقد كان على السيد رحمه الله أن يذكر أمثلة أخرى من روائع الحديث النبوى ، وليس ذلك بمعجزه فى شىء ، فالرجل محدث حجة حافظ ، وهو يعلم أن ضروب التمثيل الأدبى فى البيان النبوى مما يتقاصر عنه أكابر الشعراء الذين اهتم بهم الشيخ عبد القاهر ، وقد آن لنا أن نظرف القارىء ببعض هذه الروائع عن رسول الله .

١ — مثل المجلس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبا ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة^(١) .

٢ — مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر^(٢) .

٣ — رأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ، ما نقول ذلك يبقى من درنه قالوا : لا يبقى من درنه شيئا ، قال : فذلك مثل الصلوات

(١) هداية البارى ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) التاج ج ١ ص ٣ .

الخمس يمحو الله بها الخطايا^(١).

٤ — مثلى ومثل ما بعثنى به الله كمثلى رجل أتى قوما ، فقال : رأيت الجيش بعينى ، فأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة ، فصحبهم الجيش فاجتاحهم^(٢) .

٥ — إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثلى رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين^(٣) .

٦ — إنما مثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبهن . فيقتحمن فيها ، فأنا أخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها^(٤) .

٧ — إنما صاحب القرآن كصاحب الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت^(٥) .

٨ — مثل المسلمين واليهود والنصارى ، كمثلى رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا له إلى نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال : لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم ، فقال : أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه ، فقال لهم : أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير فأبوا ، فاستأجر

(١) هداية البارى ج ١ ص ٥٥ .

(٢) هداية البارى ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) هداية البارى ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) التاج ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٥) هداية البارى ج ١ ص ١٥٢ .

قوما أن يعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من النور^(١) .

٩ — ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه منتبرا ، وليس فيه شيء ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ، فيقال إن في بنى فلان رجلا أمينا ، ويقال للرجل ما أعقله ، وما أظرفه ، وما أجلده ، وما في قلبه حبة من خردل من إيمان^(٢) .

١٠ — إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال : رجل يارسول الله أو يأتي الخير بالشر ، فسكت النبي ﷺ فقيل له ما شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك ، فرأينا أنه ينزل عليه الوحي قال : فمسح عنه الرخصاء ، فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده فقال لا يأتي الخير بالشر ، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلهم ، إلا آكلة الحضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين ، وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة^(٣) .

هذه عشرة أحاديث تتضمن عشر صور بيانية جامعة ولو ذهبنا بها مذهب التحليل الأدبي على نحو قريب مما سبق لطال القول ، ولكننا نكتفي بأن نقول بأنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس فتزيده وضوحا في الخاطر وجلاء في الذهن ، لتستحيل أفكاره الهادية دما خالصا يترقرق في عروق المسلم ، ونورا يمتد في عقله وبصره ، ونفسا يتردد في رثيته ، وذلك بعض ما يفيض البيان الساحر والأدب الرفيع .

(١) هداية الباري ج ٢ ص ١٢٩ .

(٢) هداية الباري ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) هداية الباري ج ١ ص ١٤٢ .

وقد يرى القارىء أن ما اخترته آنفا من الآثار البيانية للرسول ، يشير إلى الصور الكلية لا الجزئية ، وهذا حق إذ أنى تعمدت ذلك نظرا لأن الصورة الكلية أشق تركيبا وأدل على المقدره والافتنان من صورة جزئية تقع فى تشبيه مفرد بمفرد ، أو فى استعارة تصريحية أو مكنية ، ولسنا بذلك نضائل من القيمة الفنية للصور الجزئية فهى جهد أدبى له تقديره ، لأن المجاز — أيا كان نوعه — يرتكز على أساس عكسى شاق وهو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان شىء آخر ، وإن من أعظم الأشياء كما قال أرسطو أن تملك زمام المجاز على وجه يعث الانسراح ، فحينما تكون فى عقلنا فكرتان مختلفتان تعملان معا تحت كنف عبارة واحدة ، أو حينما ندرك شىئا أو نحس به عن طريق شىء آخر يتسنى للأديب أن يبدع المجاز كما يريد ، فالحالة الأولى تنهيا — مثلا — حين يرى الأديب الفتاة فى صورة قمر ، والحالة الثانية تنهيا حين يخلع على الشجرة أو الحيوان بعض صفات الإنسان ،^(٢) ومن هنا كان المجاز مجالا لاندماج فكرتين تدل عليهما كلمة واحدة لا كلمتان ، ومرد ذلك إلى الخيال ثم إلى القدرة على الصياغة اللغوية ، فالصورة البيانية كلية أو جزئية . تحتاج إلى جهد لا محالة ، ولكن الأديب المطبوع يسهل عليه منها مالا يسهل على غيره بمن يتكلفون أوجه البيان على غير فطرة موهوبة . وإذا كانت العلاقة فى التعبيرات المجازية قائمة على مدى الترابط بين الحقيقة والمجاز ، فإن هذه الروابط قد تتشابك وتتعدد وتتكدس ، فإذا وفق الأديب فى إيجاد انسجام قوى بين هذه الروابط المتشابكة بحيث تكون صورتها زاهية منسقة فقد بلغ التوفيق كما نرى فى الصور الكلية من البيان النبوى التى ألمعنا إليها بالتحليل ، إذ أن الصورة الواحدة تضم فى إطارها شتى من الصور المتناثرة ، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها ويجعل منها خطوطا ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح . وسمات . وهذا بعض ما يشير إليه صاحب الأصول الفنية للأدب حين يقول :

« إن الأعمال العقلية التكوينية يمكن أن تستخدم فيها الروابط الضعيفة بين

(٢) الأصول الفنية للأدب ص ١٠٨ .

الأشياء لتحقيق الانتقال من فكرة إلى أخرى ، وقد تشعب هذه الروابط وتسلق — مسالك ملتوية فينشأ ، عن ذلك تكوينات وصور عقلية جديدة متكدة ، وعلى قدر هذا التكدس تكون غزارة الإشارات والمجازات وقوتها الشعرية ، ولهذا يرى علماء البيان أن أقوى صور التشبيه والمجاز والاستعارة ماكان منتزعا من متعدد سواء فى طرفى التشبيه أو فى وجه الشبه . ؟

ومايقوله علماء النقد المعاصر هو فى لبابه ماغناه فارس البلاغه العربية ، « عبد القاهر الجرجانى » حين قال : عن التمثيل ماسطرناه من قبل ، وهذا الاحتفاء البالغ حديثا وقديما بالصور الكلية فى البيان . لا يمكن أن نهمل معه ماجاء فى الحديث النبوى من الصور الجزئية الرائعة ، بل إن مما يضاعف منزلتها فى حديث رسول الله إنها سنحت عفوا لخاطر فى كلامه العادى بين الناس ، لأنك إذا أردت أن تستعرض صوراً بيانية لشاعر أو ناثر غير رسول الله ﷺ فإنما تستعرض صوراً بيانية من أدب بذل صاحبه جهدا كبيرا ، وقضى وقتا حافلا فى تديبجه . ولكن الرسول لأمر أرادهُ الله لم ترو عنه أكثر خطبه التى يتسلسل فيها القول بعد نوع من الإعداد النفسى والتهيئة لما يتناسب المقام فى كثير من الأحوال ، إنما رويت أحاديث قالها فى المسجد ، وفى المنزل ، وعلى قارعة الطريق ، مطبوعا غير متكلف ، فإذا حفلت بعد ذلك بأطايب الصور من كلية وجزئية فله ماأروع وما أبدع .

لنا أن نشير إلى بعض التشبيهات من الصور الجزئية فى أدب الرسول بمثل قوله :

- ١ — الناس كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالعافية .
- ٢ — الناس كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .
- ٣ — المؤمن هين لين كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن استنخ على صخرة استناخ .

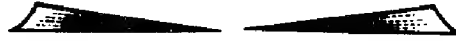
- ٤ — المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضا .
- ٥ — المرأة كالضلع العوجاء إن قومتها كسرتها ، وإن داريتها استمتعت بها .
- ٦ — لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصا صا وتروح بطانا .
- ٧ — المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور .
- ٨ — أمتى كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره .
- ٩ — مثل المؤمن كالسنبله تميل أحيانا وتعتدل أحيانا .
- ١٠ — عمالكم كأعمالكم وكما تكونوا يول عليكم .

وهذه الأحاديث العشرة مما اختاره الأستاذ « على الجندى » فى ص ٢٧ من الجزء الثانى من كتابه فن التشبيه ، وإليه يرجع فى استقاء مصادرها من الكتب الصحاح .

أما نماذج الاستعارة والكناية فنضرب بها الأمثلة مما اختاره « الشريف الرضى » فى المجازات النبوية وكلها روائع أخاذة لا يغنى بعضها عن كلها ، ولكننا ننقل منها عشرة أحاديث أخرى دون اختيار متعمد إذ نسطر بعض ما وقعت عليه العين فى القراءة الأولى دون ترجح ومنه ما يلى :

- ١ — اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع .
- ٢ — إنى ممسك بحجزكم هلموا عن النار وتغلبوننى . تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب وأوشك أن أرسل حجزكم .
- ٣ — لا يلقى الله عبداً لم يشرك بالله شيئا ولم يتند بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء .
- ٤ — خير المال عين ساهرة لعين نائمة .
- ٥ — يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها الليل والنهار .

- ٦ — عائد المريض على مخارف الجنة .
- ٧ — ليس أحد يدخل الجنة بعمله قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا . إلا أن يتغمدني الله برحمته .
- ٨ — اعلموا أن الجنة تحت البارقة .
- ٩ — اللهم إنا نعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل .
- ١٠ — من بايع إماما فأعطاه صفقة يده ومرة قلبه ونخيلة صدره فليطعمه ما استطاع .
- تلك نماذج للصورة الجزئية من البيان المحمدي يكتمل بها الحديث عن مبین ملهم واتته الفصاحة فكان سيد البلغاء .



(د) ناحية التعبير من الحديث

نفى الله عز وجل عن رسوله ﷺ التكلف حين قال على لسانه ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعملن نبأه بعد حين ﴾ لأن التكلف في كل أمر يحبط تأثيره ، ويلقى على صاحبه ظلا من الكراهية والاستئثار ، وأظهر ما يكون التكلف في قول يقال ، لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل ، ومهما كان قوله صائبا صحيحا فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظللا بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطيء ، وما هو به ، لأن الروح التي يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة بل تعاني من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة . لذلك كان بيان محد ﷺ سهل المأخذ قريب المتناول موجز العبارة لو عده العاد في مجلس من مجالسه لأحصاه . ومن هنا كره الرسول الثرثرة ونهى عن التشدق لما يعرفه من مجانية الثرثارين والمتشدقين للنهج الأصوب ، ولما يعلم عن نفوس السامعين إذ تزور عن الافتعال والتفاسح . وتلك فطرة فطر الله عليها الكثرة الكاثرة من الناس ، وقد سبق أن أشرنا في بعض الفصول إلى قول عائشة رضي الله عنها . ما كان رسول الله يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه ، وفي رواية أخرى كان رسول الله ﷺ يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه . وإذا عرف أن محمدا في صميم رسالته مبلغ يأمر الشاهد أن ينقل عنه إلى الغائب ، فإن هذا مما يدعوه إلى الإيضاح الكاشف في القول واليسر الموجز في الحديث كيلا ينقل عنه القول على غير مأراد ، ومن هنا كان الرسول الأعظم حسن الترتيل سهل العبارة ، لا يتكلم في غير حاجة . بل ربما أعاد الحديث في المجلس الواحد ليرتسم في الأسماع كما جاء .

أول صفات التعبير لديه سهولة المأخذ وقرب المتنازل ، فإذا أتى السامع حديثه صلى الله عليه وسلم ظن لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته فإذا أراد أن يأتي بمثله طاش و حار . وليس اليسير السهل مما يمل على التكرار ، ولكنه يتردد ويظل محتفظا بجذته الطريفة إذ أن وراءه فكرا دقيقا يزن الرأى السديد ميزانا تاما ثم يعرضه فى يسر قريب المتنازل .

يقول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . كم سمعنا هذ الحديث وكم تلوناه . أيجوز أن نقول إنه يفقد رونقه بالتكرار ؟ لقد جاء سهلا سلسا قريب المأخذ يفهمه كل إنسان مهما كانت درجة عقله من التفكير . ومع هذه السهولة اليسيرة فإن صياغته الأدبية ترمز إلى عقل دقيق خبير أحوال الناس وعرف اختلافهم فى القدرات والأعمال فمنهم من يستطيع مواجهة الباطل بقوته ، ومنهم من تعوزه القوة دون الكلمة ، ومنهم من لا يستطيع قوة أو كلاما ، ولكل وظيفته الخاصة أمام المنكر . فهل كانت سهولة التعبير مانعة سداد الرأى وبعد النظر ، وصحة التقسيم .

أندرون لماذا اتسم أدب محمد بالإيضاح والإشراق . إن فريقا من أساتذة النقد يقولون : إن المعانى الغامضة التى يفاجئنا بها نفر من الكاتيين فى مؤلفاتهم العويصة لاتدل على العمق والقوة قدر ماتدل على العجز والعمى ، لأن المعنى إذا كان واضحا فى نفس الكاتب ، بارز الجوانب فى تصويره انقاد له اللفظ انقيادا ، فجاءت الألفاظ سلسلة طائعة تصور ما بنفسه من الأفكار الواضحة التى يراها دون حجاب ، أما إذا كان المعنى لايزال غامضا فى تفكيره لم تتحدد معالمه على وجه ساطع فإنه يتعثر فى التعبير عنه يطلب اللفظ الملائم فلا يوافق ، فيلجأ إلى عبارات غامضة كمعانيه المبهمة يسطرها فى جهد ومشقة فإذا طالعها القارىء عجز عن اجتلائها وتلبث لا يستطيع الوصول ودونه ضباب غائم لم يتضح فى نفس قائله فأتى له أن يتضح لدى القارئين ، فإذا أشرق بيان محمد فى

نفوس قارئيه وسامعيه فإنما تشرق معانيه الواضحة ، وتفكيره الساطع ، ورأيه الجهير .

إذن فوضوح التركيب ويسر مأخذه وسهولة تناوله أقرب الخصائص العامة إلى تعبير محمد ، وإذا كانت موسيقا النثر الأدبي من أوضح الدلائل الفنية على جودته ، فإننا سنشير إليها ببعض القول حتى يتسنى لنا أن ننتقل إلى التطبيق عليها من البيان الشريف .

يظن بعض الناس أن الموسيقى النثرية لا تكون إلا بالمحسنات البديعية من سجع وازدواج وجناس ، وهذا بعض الحق لا كله ، لأن الموسيقى النثرية قد تكون بهذه المحسنات إذا أتت عن طبع وصدرت عن أصالة وقد تكون بغيرها ، إذا رتب الكلام ترتيبا نفسيا يوافق اهتزاز المشاعر ، وتموجات النفس بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة في نسق خاص ، فكأن سلكا خافيا ينظمها نظم الدر ، وهذا ما يعرف بالموسيقى الخفية ، وأما رتها أن تستمع للأثر الأدبي يتلى عليك ومن ورائه أذنك المرهفة تصغى لنظم قد تماسك والتحم معنى ومبنى ، بمعنى أن القارئ لو سكت فجأة دون إتمام مقاله الأدبي لشعرت أن نشازا حدث فانبثرت الموسيقى ابتارا قاطعا ، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسى أقصاه إذ رويت ظمأك بما ينقع الغليل ، ومن المعلوم أن تنسيق الألفاظ تنسيقا فنيا يكسبها معانى جديدة ليست لهذه الألفاظ إذا كتبت كما يتفق دون تنسيق ، كما أنه يجعل القارئ حريصا على تتبع المعنى ومستشرفا له لأن الموسيقى الخفية التى تطرد وراء الألفاظ تنبئ عن مدى انتهائها وترسم فى نفس السامع أبعادا يطمح إليها فهو يستقبل ماياتى من القول استقبال المستشرق المترقب . ولك أن تلمس تطبيق ذلك فى نحو قول رسول الله ﷺ .

« عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى

الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ^(١) ، فأنت إذا نظرت إلى هندسة هذا الحديث تجده صيغ صياغة فنية بحيث لو تقدمت جملة على جملة لاختل استواؤه الأدبي . وهو مع ذلك يترقى بك من معنى إلى معنى فى سلم تنتظره وتحس كمال إتقانه ، لأنه يصعد بالمعاني وفق ما يتصور الذهن وما يناسب الإحساس ، ومن هنا كانت الموسيقى الخفية وليدة هذا التنسيق المحكم للمعاني فى معرض دقيق من الألفاظ .

جاء فى الجزء الثانى من كتاب « النقد والبلاغة » مانصه :^(٢)

« الموسيقى النثرية ليست حركة لفظة وإنما هى كالموسيقى الشعرية صورة حركة نفسية أو هى ترجمة صوتية عن تجربة للكاتب من شأنها أن تعين اللغة والكلمات على أداء المضمون الروحي للكاتب ، وبعبارة أخرى أن تعبر الألفاظ عن المعاني بذواتها فإذا نسقت هذه الألفاظ تنسيقا خاصا اكتسبت من موسيقاها معانى جديدة ، وهذا هو الذى يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة والرقّة والجزالة والفضامة ، والطلاوة والسماحة التى تفصح عن موسيقى الأدب وأثرها فى نفوسهم .

ومن الخطأ أن تصبح الموسيقى أداة فعالة يوجه بها الكاتب معانيه توجيها واعيا ، فإن الموسيقى حينئذ تستحيل إلى ضريبة مفروضة كالبديع الذى التزمه بعض الكتاب والشعراء لتوهمهم أنه قدر ضرورى لصلاح الكلام وجماله ، وليست الموسيقى فى النثر دائما رهينة السجع والازدواج كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنها فن أخفى من ذلك . فمن الصحيح أن الكاتب قد يعتمد على توازن بين العبارات لكن هذا التوازن ليس مطلبا أساسيا وربما كان التعبير عن حركة عاطفية قوية لا تسلمه .

(١) التاج ج ٥ ص ٥٦ .

(٢) ص ١٥ للدكتور محمد مهدى علام وزميله .

هذا القول في صميمه يعطينا مفتاحا صادقا لما يراد بالموسيقى الثرية فهو يبعد عنها كل مفتعل من المحسنات ، ويقرب إليها ما يترجم عن تجربة الأديب التي تجعل للسياق أشعة وظلالا توحى بهما الكلمات إذا اطردت على نسق خاص ، وتتجرد عنهما إذا جانب هذا النسق ، كما أن الموسيقى الثرية ليست رهينة السجع والازدواج إذا أحسن استخدامها ، فيحدثان من الموسيقى ما تترتاح له النفس ، وقد لا يعتمد على شيء منهما ويحيى أسلوبه مليئا بالموسيقى الخفية لأنه يصور حركة نفسية قوية .

وسيلنا الآن أن نضرب الأمثلة من بيان الرسول لما نشأت فيه الموسيقى الثرية من اطراد النسق الفني في تديج المعاني وفق الحركات النفسية ، ولما نشأت فيه الموسيقى الثرية من اصطناع المطبوع غير المتكلف من المحسنات .

١ - فمن الأول ماروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل أبى يغترون أم على يجترئون فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران^(١) .

٢ - ومنه ماروى عن رسول الله قال : أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتها بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن ، وهذا منزلك أما القوم الذى كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم^(٢) .

(١) التاج ج ٥ ص ٢١٥ .

(٢) هداية البارى ج ١ ص ١١ .

٣ — يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ماشأناك أأست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهاننا عن المنكر قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية .

هذه ثلاثة أمثلة لما تتضمن الموسيقى الخفية من نثر الرسول . تقرأ المثال الأول فترى الانسجام فى تأليف ألفاظه ، رجال يختلون الدنيا ، ويلبسون جلود الضأن أأستهم أألى من السكر ، قلوبهم قلوب الذئاب ييكتهم الله ، فيقول : أبى يغترون أم عألى يجترون . أأ يحس القارىء أنه يسير مع الحديث فى طريق منسجم لا ارتفاع ولا انخفاض ثم أأ يرى لكل كلمة إحاءا خاصا تجيش به المشاعر وتهتز ، هذا أثر الموسيقى الخفية . والحديث الثانى أليس فى تكامله وانسجامه يكون مشهدا من قصة تقع أحداثها فى مدينة بنيت من ذهب وفضة ، وقد قسم الناس شطرين على شفتى نهر . ثم نزل إليه بعضهم فعاد أأبحهم جمالا ، هل تستطيع أن تقطع الحديث قبل أن تتمه . لو فعلت لانبترت موسيقاه الخفية التى اتصلت فى سلك مستتر لتصل مابين البدء والختام .

والحديث الثالث يتضمن مشهدا مؤثرا لرجل يدور يوم القيامة بأمعائه كما يدور الحمار ، برحاه وكان عند الناس وجيها فى الدنيا فأقبلوا يسألون عن مصدر بلواه فعلموا أنه كان ينهى عن المنكر وآتية ويأمر بالمعروف ولا يفعل . أأليست كلمات الحديث مترابطة يشد بعضها بعضا وبينها من التماسك مالا يعصف به أقوى الزعازع ، هذا الترابط المتماسك المنسجم لفظا ومشهدا وحوارا هو ما تندفق فيه الموسيقى الخفية فنبعث تأثيرها فى النفس كأعنف ما يكون التأثير .

نستطيع أن نترك اللون الأول مما انبعثت فيه الموسيقى النثرية من اطراد النسق الفنى فى تصوير المعانى وفق الحركات النفسية إلى اللون الثانى مما نشأت فيه الموسيقى من ازدواج وسجع وبعض المحسنات .

لقد أصبح من نافلة القول أن نذكر أن التكلف فى اصطناع البديع قد هوى بالأدب إلى أحط الدرجات فى عصور الانحطاط يوم كان أدباء العصر المملوكى ومن شابههم يجعلون رسائلهم الأدبية تطبيقات بلاغية للسجع والطباق والتورية والجناس . وقد ذهب الزمن بأكثر ماسطر هؤلاء ولم يبق من أدب البديع إلا ماتحدر عن طبع رائق ، ونبع عن ذوق سليم ، وما نتذكره من أدب النبوة فى ذلك هو أرقى ما سمح به الذهن البشرى من إبداع . ومن المنتظر أن يكون أدب الرسول مما اتجه إلى اللون البديعى قليلا إذا قيس بأدبه المترسل ، لأن الذى يكثر من البديع أديب يتعمده ويترصده له الطرق . وما هكذا كان الرسول ، إذ أن البديع كان يسبح على لسانه فطريا عفويا دون ارتصاد . وأكثر ماجاءه فى ذلك ما كان من الازدواج ، وأقله ما كان من السجع أو المطابقة والجناس . والازدواج فى أحاديث الرسول تنسيق للمعانى قبل أن يكون تنصيذا للألفاظ ، بحيث يشعر القارئ أنه يترقى من فكرة إلى فكرة لا أنه يدور فى فلك لفظى يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع ، ونضرب له الأمثلة بهذه الآثار النبوية :

١ — عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل^(١) .

٢ — عن أبى هريرة عن رسول الله قال على لسان ربه : ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، وإن استعاذنى لأعيذنه وماترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته^(٢) .

(١) التاج ج ٥ ص ٧٠ .

(٢) التاج ج ٥ ص ٢١٩ .

٣ — عن أبي هريرة عن رسول الله قال : « ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي من تشريف لها تستشرفه ، ومن وجد فيها ملجأ أو معاذا فيه فليعد به ^(١) » فالازدواج في الأحاديث الثلاثة أوضح من أن يُدَلَّ عليه . ومازلت أقول إنه تنسيق للمعاني قبل أن يكون تنزيها للألفاظ بحيث يشعر القارىء أنه يترقى من فكرة لا أنه يدور في مجال لفظي يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع .

أما السجع في البيان النبوي فما أكثر ما قيل فيه . لقد وردت عن رسول الله آثار بيانية تتضمن السجع ، وكان على النقاد أن يبرروا بها دون جدال يحتدم ، لأن السجع في البيان النبوي مما أوحته الفطرة وتطلبه الموقف ، ولكن السجع نفسه كان محور نقاش بين محبذ له ومعارض ، فتطلب الأمر أن يكون رأى الرسول في السجع مجال نقاش بين المحبذين والمعارضين . فالحبذ يستشهد ببعض الآثار النبوية المسجوعة ، والمعارض يستند إلى أقوال نبوية ربما أخذ منها ما ينقص الأسجاع . وهكذا دارت المعركة حول الرأى النبوي في الأسجاع بين الناقدين .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن تكون دية الجنين غرة عبد أو أمة فقال بعض السامعين أذى من لا شرب ولا أكل . ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل . فقال له الرسول منكرا : أسجعا كسجع الكهان أى أتبع سجعا كسجع الكهان . وفهم القول لدى بعض الناس على كراهية السجع فانبهرى النقاد لتخريج الحديث النبوي كل بما يعن له من التخريج . « وإنما أنكر النبي ﷺ ذلك لأنه (الرجل) أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ، ولم تكن القوافي مختلفة متكلفة ، ولا متمحولة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه بل وقد أتى في الحديث « مثل ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل أو لبس فأبلى أو أعطى فأمضى .

(١) هداية البارى ج ١ ص ٢٤٣ .

فقدامة بن جعفر في نقد النثر^(١) يقول : تعليقا على الحديث المتقدم اتى بالسجع في جميع كلامه فأبان عن تكلف . ولو أنه تخفف من بعضه في عبارته له الحق سجعه الاستكراه . ولكن ضياء الدين بن الأثير ، يرى أن سجع الرجل حسن لا بأس به . وأن المنهى عنه ليس السجع وإنما هو الحكم المتبوع في قول الكاهن ، وقد فصل ذلك حين قال :

« لو كره النبي ﷺ السجع مطامتا لقال أسجعا ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان ؟ فلما قال أسجعا كسجع الكهان ! صار المعنى معلقا على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد في القرآن الكريم ، وهو ﷺ قد نطق به في كثير من كلامه حتى أنه غير الكلمة عن وجهتها اتباعا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام :

« أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام أرجعن مأزورات غير مأجورات طلبا للتوازن والسجع وهذا مما يدل على فضيلة السجع^(٢) .

إلى أن قال ابن الأثير :

« فالسجع إذا ليس بمنهى عنه ، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع في قول الكاهن ، فقال رسول الله ﷺ أسجع الكهان أي أحكما كحكم الكهان ؟ ، وإلا فالسجع الذي أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال « أأدى من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ، وهذا كلام حسن من حيث السجع ، وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذي تضمنه في امتناع الكاهن أن يدي الجنين

(١) نقد النثر ص ٩٤ المنسوب لقدامه ، وقد ترددت نسبته لسواه بمجلة المجتمع العلمي بدمشق عن بحث جيد نشره الدكتور علي حسن عبد القادر وارتضاه الدكتور شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ .

(٢) حديث (دية الجنين) .

(٣) المثل الثائر ج ١ ص ١٩٥ .

بغرة عبد أو أمة^(١) .

وقول ابن الأثير الأخير « في امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة »
غريب عجيب لأن كاهنا مالم يمتنع عن ذلك فيما تعلم ، ولعله أراد الساجع فسبق
قلمه إلى غير ما يريد . أما أن سجع المعترض حسن لا بأس به ، فهذا ما انفرد به ابن
الأثير لأننا نحس مع « قدامة بن جعفر » ثقل العبارة الأخيرة بالقياس إلى
السابقتين . ومن أجلها كان الكلام شبيها بسجع الكهان لدى الرسول ، فالأولى أن
يقال إن المكروه هو السجع المتكلف ، وإليه اتجه الإنكار النبوي . أما الحكم فباطل
من أساسه لأنه صدر في اعتراض سامع غير مسئول .

وقد استشهد أبو هلال العسكري بآثار مسجوعة من البيان النبوي وتابعه ابن
الأثير فمما قاله أبو هلال في ذلك :

« وكيف يذمه الرسول » ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبريء من التعسف لم
يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه . وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه
السلام فمن ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسطة قال حدثنا محمد بن خالد بن
عبد الله أبو شهاب عن عوف عن زارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال لما قدم
النبي ﷺ المدينة انجفل الناس قبله ، فقيل قدم رسول الله ، فجئت في الناس لأنظر
إليه فلما تبينت وجهه عرفت فيه أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء تكلم به أن
قال : أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل
والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام^(٢) .

فالسجع كثير في البيان النبوي وهو قريب المأخذ صادق الطبع ، ومثله ماورد من
ألوان المحسنات الأخرى كالمطابقة والتجنيس ، وقد استشهد أبو هلال العسكري
للنوع الأول بقول الرسول مخاطبا الأنصار « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند
الطمع » وقوله ﷺ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » ، وقوله « إياكم والمشادة

(١) المثل الثائر ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) كتاب الصناعتين ص ٢٦١ .

فإنها تميمت الغرة وتحبب العرة»^(١) كما استشهد للنوع الثاني بقوله صلى الله عليه وسلم «الظلم ظلمات يوم القيامة» وقوله «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وقوله عصية عصت الله وغفار غفرا لله لها وأسلم سالمها الله^(٢)، وفي كتب الأدب شذرات كثيرة من قوله عليه السلام تريك سماحة البديع ودماثته، وتناهى به عن كل مستكره بغيض، سجعاً كان أو ازادواجا أو مطابقة وتجنيساً، وأكثرها جاء في حديثه العادى لم يترصده في موقف كما نسمع نحن الآن في الطريق عبارات ذكية لبعض النابهين من المتكلمين لم يتعمدوا مواقع الحسن فيها، إنما انطلقت بها ألسنتهم كما تنطلق لهوات البلايل بالتفريد.

وإذا كنا قد قصرنا هذا الفصل على الناحية التعبيرية في بيان الرسول فلا بد من التعرض إلى ماروى من حديثه صلى الله عليه وسلم من الغريب. إذ أنه يناقض ما اتسم به أكثر التعبير النبوى من وضوح اللفظ، وقرب المأخذ، وسهولة المتناول لفظاً وتركيباً. فكيف وجد هذا ضرب من العويض في كلام أفصح مبين؟

(١) الصناعتين ص ٣٠٩ .

(٢) الصناعتين ص ٣٢٣ .

من المسلم به أن اللغة كائن حي ينمو ويتجدد بتطور الزمان وتراكمه ، فقد تستعمل كلمات ذائعة في عصر متقدم ، ثم تمضي الأيام عليها دون أن تجد لها ذيوعا في عصر تال ، فيخيل لمن يقرأها في العصر الأخير ، أنها غريبة تكلفها القائل ولو تأمل لعرف أنها غمضت بتغير العصر . فانطفأت بعد إشراق ولو كانت لدينا معاجم تتبع تطور الكلمات من زمان إلى زمان لعرفنا كيف ماتت مئات الكلمات في عصر واستحدثت مئات أخرى في عصر آخر ، وأكثر مانشاهد من الغريب في حديث الرسول كان مأنوسا في عصره لأنه لا يتكلف ولا يتعمل ، وقد نهى عن التشدق والتفاصح ، فأحرى به ألا يأتي بالغامض العويص ، وقد كان اهتمام العلماء عظيما بما ورد من الغريب عن رسول الله فأفردوا له المعاجم ، وكتب الخطابي ، والزمخشري ، وابن الأثير في غريب الحديث مؤلفات جامعة نقرأها الآن فنقدر لهؤلاء الأماثل إخلاص المجاهد وحرص الأمين . على أن مما نفع الله به الناس في بيان رسول الله أن الكلمة الغريبة في الحديث الشريف كثيرا ماتفهم من السياق بحيث يستطيع قارئ العصور المتأخرة أن يصل إلى مدلولها بجهد قريب . وليس معنى ذلك أن كل ماورد من الغريب في حديث محمد كان مأنوسا في عصره لدى جميع الناس ، إذ أن الأديب المكين قد يضطر إلى استعمال لفظ خاص مهما غمض للدلالة وحده على مايريد من معنى . ومن تمرس البيان يعلم أن لكل لفظ من معجم الكاتب مكانة خاصة في نفسه ودلالة خاصة توجب عليه أن يلتزمه في وضع معين ليحمل إلى الناس مايريد أن يقول ، وتلك حقيقة أشار إليها جهابذة النقد الحديث وغبر عنها ه . ب تشارلتن حين قال في كتابه فنون الأدب .

« يلجأ الشعراء أحيانا إلى اللفظ الغريب للزيادة من قوة التأثير ، ولا سيما إذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس في الحياة الجارية ، فإذا رأيتهم يطلقون على الأشياء غير أسمائها فاعلم أنهم لا يصنعون ذلك عبثا ، ولو أرادوا الأسماء المعروفة للأشياء لأطلقوها ، إذ يجب أن يكون الشاعر صادقا في التعبير عن شعوره فإذا أراد شيئا مألوفاً فيطلق عليه اسما مألوفاً ، أما إذا أراد صورة فيها

شيء من الغرابة لأنه أحس في نفسه أنها غريبة فيجوز أن يلجأ إلى اللفظ الغريب
المبهم ^(١) .

والناثر مماثل للشاعر في هذا الوضع ، لاسيما إذا كان الناثر يعبر دائما عن
الجديد غير المؤلف ، وقد كانت أفكار محمد ﷺ من الجدة والطرافة
والابتكار بحيث كان كل حديث من كلامه عليه السلام فتحا لأفق جديد من
التفكير ، فإذا جاء لفظ غريب يكمل به المعنى في رأيه فقد جاء في موضعه .
وهو في مكانه أصيل دقيق .

كل هذا يقال عن الغريب الذي يتناثر تناثرا في قول الرسول على أبعاد تطول
إذ أن مثل هذه الألفاظ الغريبة لاتخرج عن حالتين ، إما أنها كانت مفهومة
مألوفة في العصر النبوي ثم غمضت من بعد فلا مجال للحكم عليها بالغرابة من
غير المعاصرين ، وإما أنها كانت غريبة وجاء بها القائل لتسد مسدا لاتفى به
الكلمة المأنوسة . وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يحمد لأنها فتح
جديد للفظ جديد يأخذ طريقه كي يسير . وكل ذلك نادر ، نادر إذا قيس بما
نتداوله من أدب محمد وجله مشرق أنيس .

وهناك ضرب ثالث من ضروب الغرابة غير هذا وذاك سيق إليه الرسول سوقا
واضطر إليه اضطرارا . وهو ماتحدث به محمد ﷺ أو كتب به رسائله وعهوده
إلى القبائل النائية في بطن الجزيرة ممن لاينطقون بلغة قريش ، إذ أن لهم
معجمهم الخاص مؤلفا من كلمات لايتداولها المكيون والمدنيون ومن حولهم
من الأعراب . وهنا تظهر المقدرة الكامنة في بيان الرسول ، إذ يحيط علما
بالسنة أناس لم يكتب له عليه السلام أن يشافهم أو يشافهوه ، وقد علم الناس
جميعا، أنه لم يرحل إلى مطارحهم النازحة يوما فيعى من ألفاظهم لا القليل ولا
الكثير . ومن هنا كان موضع العجب من أصحابه إذ يرونه يفهم عن الغرباء مالا

(١) فنون الأدب ص ١١ ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .

يفهمون ، ويحدثهم بما لا يستطيعون أن يقولوه . حتى قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد سمعه يخاطب وفد بني نهدي يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال عليه السلام « أدبني ربي فأحسن تأديبي »^(١) .

ونستطيع أن نمثل بعض ذلك بما كتبه صلى الله عليه وسلم لوائل بن حجر الكندي أحد أقبال حضر موت ومنه :

« إلى الأقبال العباهلة والأرواع المشاييب .. »

وفيه في التبعة شاة لامفورة الألياط ، ولا ضناك ، وأنطوا الشبجة ، وفي السيوب الخمس ، ومن زني ممن بكر فاصفعوه مائة ، واستوفضوه عاما ، ومن زني مم ثيب فضرحوه فالأضاميم ولا توصيم في الدين ، ولاغمة في فرائض الله تعالى وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل على الأقبال » .

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي^(٢) في هامش كتابه : وتفسير هذا الكتاب على نسق ألفاظه ما يأتي :

الأقبال : جمع قيل وهو الملك من ملوك حمير وحضر موت ، العباهلة : المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه ، والأرواع : الذين يروعون بالهبة والجمال ، والمشاييب : جمع مشيوب وهو الجميل الزاهر اللون ، والتبعة : أربعون شاة تطلق على ماتجب فيه الصدقة من الحيوان ، والمفورة الألياط : المسترخية الجلود ، والضناك الموثقة الخلق السمينة يريد أن شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم بل تكون وسطا ، وهو المراد بقوله : وأنطوا الشبجة : أي أعطوا بلغتهم إذ يبدلون العين نونا ، والشبجة الوسط ، ومنه ثبج البحر ، والسيوب : جمع سيب وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، ومم بكر وممن ثيب أي من بكر ومم ثيب وهي لغتهم في إبدال

(١) إعجاز القرآن ص ٣٥٠ للرافعي .

(٢) الإعجاز ص ٣٥٢ .

النون ميمًا ، والصقع : الضرب ، والاستيفاض : النفي والتغريب ، والأضاميم :
الحجارة الصغار ، والتوصيم الفترة والتوانى ، ويطرفل : يترأس .

وفى المثل الثائر لابن الأثير ص ١٥٨ وما بعدها من الجزء الأول حديث
طهفة بن أبي زهير النهدي حين قدم على رأس وفد قبيلته من غورى تهامة إلى
رسول الله ﷺ . وكله غريب معضل كهذا الذى سبق المثل به من كتاب محمد
ﷺ . وقد أعقبه الرسول برد نحافيه منحاه من الغريب ليفهم بنو نهد مايقول
ولا نحب أن نشق على قارىء القرآن العشرين بعويصه اللاتيق ، ولكننا نذكر
مقاله ابن الأثير تعقيبا عليه ولنا فيه مقال :

قال صاحب المثل الثائر^(١) « وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضى استعمال هذه
الألفاظ ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث
وما جرى مجراه ، على أنه كان فى زمنه متداولاً بين العرب ولكنه ﷺ لم
يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصيح والأفصح » ، وموضع النظر فى كلام ابن
الأثير أنه زعم أن الغريب الذى رد به الرسول على طهفة النهدي كان متداولاً فى
زمنه . إذ لو كان الأمر كذلك ماقال على بن أبى طالب حين سمعه يخاطب وفد
بنى نهد ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ،
وعلى كرم الله وجهه هو البليغ الثانى فى العربية بعد محمد صلوات الله عليه
فكيف يكون الغريب متداولاً ولا يفهمه على . ثم إذا تقاصر عن إدراكه أمير
المؤمنين فما ظنك بسواه . الحق أن ابن الأثير قد أخطأ فى زعمه هذا أما الذى
أصاب شاكلة الصواب فهو الأستاذ مصطفى صادق حين قال فى حديثه عن
الغريب فى أدب النبوة .^(٢)

(١) الإعجاز ص ٣٥٢ .

(٢) المثل الثائر ج ١ ص ١٦٢ .

« ومن ذلك كتبه التي كان يملئها ويبعث بها إلى القبائل يخاطبهم فيها بلحونهم ، ولا يعدو ألفاظهم وعبارتهم فيما يريد أن يلقيه عليهم . وهي خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم لاتجوز في غير أرضهم ولاتسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القريشية ، فما تدرى أى ذلك أعجب ؟ أن ينفرد النبي ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك فى لسانه عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها ، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم فى أرضهم ، وحين يتوافدون إليهم فى موسم الحج وهم مع ذلك لا يعلمون من الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يدبرونه فى ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ باب على حده كما يؤخذ كل ذلك من قول على ^(١) « ... هل لنا بعد أن أوضحنا الرأى فيما اصطبغ بحلية بدعية مطبوعة من أدب رسول الله ، وفيما جاء من الغريب فى حديثه ، أن نقول إن الطابع العام للتعبير النبوى هو الوضوح وقرب المتناول وروعة الإيحاء مع التناسق الموسيقى المطبوع ، أما مانحا منحى الغرابة فقد وافق مقتضى الحال فى إغرابه ، فدل بهذه الموافقة على مواعته الدقيقة لأشهر التعريفات العلمية لدى البلاغيين .

(١) إعجاز القرآن ص ٣٥١ .

رسالة الأديب كما حققها الرسول

قد يتوهم بعض الناس أن في وصف محمد ﷺ بالأديب نزولا عن رسالته الخالدة ، وهذا غير الواقع لأنه نبي معجزته البيان ، وقد نزل عليه أفصح كتاب في العربية ، فتولى تبينه وإيضاحه ، ودعا إلى ما يدعو إليه في نصاعة وبراعة ، وأكثر ما كان ذلك بلسان الأديب . وإذا كنا نعرف أن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، فإن تعبير رسول الله البليغ كان في أرفع درجات الجمال ، وإن خواطره من الكمال والجمال والقوة والإقناع بحيث لا تسمو إليها خواطر إنسان ، فمحمد بهذا الاعتبار أديب عظيم . لامراء

ثم إن الأدب في أرفع مجالاته يلتقى بالدين لا محالة ، إذ أن نبل الشعور وسمو الأخلاق ، وحب الإنسانية والخير والعدل مما يرفع رسالة الأديب المثالي ، وليس الدين في لبابه إلا دعوة صريحة إلى الخلق العالی ، والإنسانية الكاملة والحق النزیه ، والعدل المنصف والجمال الصريح . فالدين والأدب يلتقيان لا محالة إذا طمح الأدب إلى أسمى الرسائل في الحياة . وهكذا كان الأدب على لسان محمد بن عبد الله .

يقول الأستاذ توفيق الحكيم تحت عنوان « السماء هي المنبع » .

« هنالك صلة في اعتقادي بين رجل الفن ورجل الدين ، وذلك أن الدين والفن كلاهما يضيء من مشكاة واحدة هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان ، وإن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني من أجل هذا كان لابد للفن أن يكون مثل الدين قائما على قواعد الأخلاق »^(١) .

(١) فن الأدب ص ٧٦ .

وسيلنا الآن أن نوضح كيف كان رسول الإسلام أول من سما برسالة الأديب في الأدب العربي الذي نزل بلغته أفصح كتاب . ولن نرسل الحديث في تحمس المسلم العاطفي الذي يهيم بنيه هياما يشغله عن إيضاح الأدلة وسرد البراهين ، فإن الاندفاع العاطفي لا يغني عن الحق شيئا إذا فقد الدليل المقنع ، ودليلنا المقنع في هذه القضية هو الموازنة بين الأدب الجاهلي في شتى مناحيه ، وماأضافه نبي الإسلام إلى مفهوم الأدب من أغراض وأفكار كانت تعوزه أشد الإيعاز .

ماذا كان الأدب العربي قبل نبي الإسلام ؟ إنه كان شعرا ونثرا ضاع أكثرهما وبقي أقلهما ولكن مابقي منهما يعطى صورة عن الغائب المفقود ؟ فأى شيء كان شعر الجاهلين الذائع ، وأى شيء كان نثرهم الشهير ؟ كان الشعر الجاهلي صدى عاما لإحساس القبيلة فيما يتعلق بالفخر والمديح والهجاء ، فالشاعر العبسي يترنم بقوة قومه ومفاخر قبيلته ، والشاعر الأسدي يعدد غزوات آبائه ، وتراث أجداده ، فإذا انتقل الحديث إلى الغزل والخمر واللهو ، رأيت مشاعر عادية تمثل الغرائز المتواثبة ، وقل أن تلمس تحليقا رفيعا يرتفع عن دنيا الدم واللحم إلى آفاق الروح ، وإذا كانت المعلقات من أظهر آيات الشعر الجاهلي ، فإنك تقرؤها جميعا فتلمس روحا تكاد تكون واحدة لدى الشعراء فكلهم أبناء واقعهم المحدود يتحدثون عن المرأة والأطلال والنوق والرياح والبادية ، ثم يعرجون إلى ممدوح يخصصونه ببعض الشاء .. ولكن أين هو الشاعر القائد الذي حمل رسالة عالية في شعره تبشر بالخير والنور من هؤلاء .

قد يقول قائل إنه زهير بن أبي سلمى في دعوته للسلام ، وقائل ثان إنه عدى بن زيد في دعوته إلى التساؤل عن المصير ؟ وقائل ثالث إنه أمية بن أبي الصلت في التفاته إلى الحساب والجزاء وسير المتقدمين ، ولكن الواقع الملموس من شعر هؤلاء لا يعطيهم جميعا ما يود لهم القائلون .

إن زهيراً دعا إلى السلام وذم الحرب عرضاً في معلقة طويلة جعلت مديحاً
 للكرمين تحملاً للديات وأنهى الحرب وأقرأ السلم لمدة وجيزة ، وقد طمع
 الشاعر في مال أحدهما وكان موكلاً بمديحه فاضطر إلى التغنى بمفاخره . وإذا
 كان من أبهرها إقراره السلام فهو لامحالة مسوق إلى تحييد السلام الذي صنعه
 صاحبه ، وتبغيض الحرب التي قضت عليها مكارمه في عدة أبيات معدودات .
 أفكان زهير إذن صاحب رسالة كبيرة في عالم الأدب وحاله تلك ، أم أن
 صاحب الرسالة بطل مكافح يرسل قصائده المتواليه في هدفه الأسمى لا أن يسير
 في ظل كريم يترسم خطاه لينقلها إلى الحروف والكلمات .

أما عدى بن زيد فقد ظل حليف غزل وخمر ولهو ، حتى وقع في سجن
 النعمان ورأى الشر في عين المليك الغادر ، ثم وازن بين أمسه الزاهر في إيوان
 كسرى ، وغده المرتقب في ظلمات القبر بعد الاغتيال فأرهبه المصير ، وجعل
 يعتذر إلى النعمان بقصائد يبكين الجماد حتى إذا استيأس وترقب الهلاك ، دعا
 إلى الزهد ، وتحدث عن قصص بعض السالفين في نحو قوله :

وتذكر رب الخورنق إذ	فكر يوماً وللهدى تفكير
غره ملكه وكثرة مايملك	والبحر معرضاً والسدير
فارعوى غيه وقال وما غبطة	حى إلى الممات يصير
ثم صاروا كأنهم ورق جف	فألوت به الصبا والدبور

فماذا في أمثال ذلك من قيام برسالة هامة في دنيا الآداب — ولنترك هذين إلى
 أمية بن أبى الصلت ، فمن المعروف الذائع عن تاريخه أنه قام برحلات كثيرة في
 ديار اليمن والشام والعراق ، وأنه اتصل بالأخبار وأخذ عنهم ماينفرهم من عبادة
 الأوثان . فمصادره العلمية تنحصر فيما وعاه من الرحلات ، وماسمعه من
 الرهبان . وقد يكون لبعض الحنفاء من العرب كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل
 وغيرهما أثر في جذبه إلى التأله لأن تأثيرهم وهم أبناء موطنه القريب أدعى إلى

النفاز والقوة من تأثير الغرباء . ولكن هذا المتحنث الذي حرم الخمر على نفسه ، ونبت عباداة الأصنام قد هدم كيانه الدينى هدماً أتى عليه من القواعد حينما انضم إلى مشركى مكة من أعداء محمد ، وتطوع برثاء قتلى بدر كأبطال استشهدوا فى قضية توجب الرثاء . ولو سلك سبيلا حياديا بين محمد ومناوئيه لقلنا إن الرجل قد خضع إلى نوازع الضعف الإنسانى حين أبطأ عن تأييد محمد ، وهو يعلم ما جاء به من الحق ، ولكنه اشتط وبالغ حتى صار الضعف الإنسانى لديه جنونا يدفعه إلى البكاء على شهداء الأصنام . ونحن هنا فى معرض السؤال عن رسالته الأدبية التى يمكن أن يكون بها صاحب دعوة تحرير . فإذا كانت هذه الرسالة فيما قاله من الأساطير والأنباء عن سفينة نوح . وتطويق الحمام ، وقصة الغراب ، والديك ، وخراب سدوم ، وقنزعة الهدهد ، فكل ذلك مقتبس من التوراة المحرفة . ومعلومات شائعة لدى الأحبار ، وقد دعا الغرض الفاضح المستشرق الفرنسى كليمان هيوار إلى القول بأن شعر أمية من مصادر القرآن وأن الرسول ألفه متأثراً بثقافات أمية الدينية ؟ ولكن الفرق الواضح بين قصص التوراة وقصص القرآن يأتى على هذا الزعم من القواعد ، فهل زنى لوط ؟ هل فسق داود ؟ هل افترى إبراهيم كل ذلك فى التوراة ، وليس فى القرآن مما يؤكد اختلاف المصدرين لامحالة . وماذا نقول فى قصة عاد وهود التى لم ترد فى غير القرآن وقد صدقتها المكتشفات الأثرية الحديثة فى منطقة الأحقاف .. إن مجرد ذكر أساطير التوراة فى شعر أمية لا يجعله صاحب رسالة أدبية إلى السمو ؟ وإذا لم يستطيع أن يرتفع بنفسه إذ هبط إلى البكاء على شهداء الأصنام ، أفيكون ذا رسالة أدبية كبرى تؤثر فى الناس بالبيان .

فإذا تركت الشعر إلى النثر ، فأنت واجد لا محالة عشرات النصوص المحفوظة عن المفاخرة والمنافرة ، والموازنة بين أب وأب ، وجدٌ وجدٌ ، وحرب وحرب مع النظرة الضيقة إلى قيم الرجال إذ ذاك من اعتزاز بالعصية ، وافتخار بالسلب والنهب وقطع الطريق . إن شيخ القبيلة ليصبح سيدا مطاعا لأنه أغار على قبيلة أخرى غاب رجالها فاستاق إبلها وأسر نساءها . وأصبح ذا مال ،

ثم يجلس في ناديه ليخطب ، ولتكال له الأمداح نثرا وشعرا . أما سجع الكهان وخطب الزواج فما أظن المشتهر منها يصلح لأن يكون أدبا تترنم به الأفواه .

اقرأ الشعر الجاهلي في دقة ، واقرأ ما بقى من النثر الجاهلي في دعة أيضا ، ثم قل لى أى صاحب رسالة أدبية عالية نهض قبل محمد من دنيا البيان العربي . فإذا أعوزك أن تجد أدبيا ذا رسالة قوية قبل محمد فأنت معى على الطريق .

تحدث النبي بالقرآن فلفت الناس إلى أمور جديدة لا عهد لهم بها ، لفت الناس فى بيان القرآن المعجز عن مكارم الأخلاق والحرية والإخاء والمساواة ، ودعا العقول إلى التفكير فى العوالم الكونية من ليل ونهار ، وبحر وشجر ، وسماء وأرض ثم وجهها إلى أطواء النفس ومايمور بها من مشاعر وأحاسيس . حتى جعل الفكر العربي شيئا ذا قيمة بل إنه أوجده إبداعا بعد أن كان تافصحا خلافا بالألفاظ لا معانى زاهية فى أبهى البرود .. وإذا كان القرآن من عند الله وليس من عند محمد .. فهل تقوم المعجزة الخارقة -ون نبى شارع يسر الله الذكر على لسانه فملأ صدره بالينابيع ، فإذا هتف برسالة القرآن وجد منها السلسل الفياض .

كان القرآن صيحة أولى فى الفكر العربي جاءت على لسان محمد ، وتبعتها صيحة ثانية من هذا الذى نزل القرآن على قلبه توضح ماغمض وتفصل ماأجمل ، وتحلل ماأوجز ، ومن ذلك كله كان نبى الإسلام صاحب رسالة كبرى فى دنيا البيان .

ثم ماذا ؟ أكان محمد أديب ملأ محدود فى أرض الحجاز ! أم كان أديب الناس أجمعين ! ..

إن أحاديثه انتقلت إلى ممالك نائية وأمم بعيدة فأحدثت تأثيرها الكبير ، وإن الذين يترجمونها اليوم من المستشرقين وغيرهم يقفون عندها متأملين ثم يفسحون المجال لنقاش ماتتضمنه من المبادئ والأغراض ؟ أكون محمد بعد ذلك أديب ملأ محدود فى أرض الحجاز ..

لقد كانت أول كلمة نزلت عليه (اقرأ) لتلفتته بادية ذى بدء إلى المعرفة والعلم ، ومتى كملت المعرفة لإنسان فسيسير مع محمد فى كل اتجاه . لأن الذى يدرك حقائق العلم سيتطهر لا محالة من أدران الجاهلية فلا يسجد لوثن ولا يئد بنتا ، ولا يشرب خمرا ولا يسعى فى الأرض بالفساد .. ومن هنا دعا محمد إلى التفكير ، وكان فيما أنزل عبرة لأولى الألباب ، وآيات لقوم يعقلون أو يعلمون أو يتفكرون على نحو ماتحدث به القرآن .

ومن هنا حرص محمد على صحة الكلمة أدق الصحة وحريتها تمام الحرية ، وصوابها أكمل الصواب فكان فيما قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ، إن الرجل ليلقى بالكلمة يهوى بها سبعين خريفا فى جهنم ، وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم » وسئل ما الجمال فقال فى اللسان .

كما كانت بلاغة الصدق لديه هى العليا ، يبغض الثرثارين ، والمتشدين ، والمتفيهقين ، لأن الحق يضيع بين الثثرة والتصايح .. ولكن جمال البيان فى الهدوء والدقة والإقناع .

جاء نبى البيان بهذه المثل الأدبية لقوم بلغ القريض عندهم مبلغه من القوة والإتقان . فماذا كان موقف الشعر أمام هذا الاتجاه .

إن مؤرخى الأدب يعترفون بأن الشعر قد ضعف فى صدر الإسلام ، ويعلل الأصمعى ذلك بأن الشعر نكد لا يقوى إلا فى الشر ، وقد جاء الإسلام محرما رذائل الجاهلية ، مما تمدح به الشعر من وصف للخمر وهجو للمحصنات ، ودعوة إلى الشقاق وغزل فاجر فاسق ، فضاقت المجال فجأة أمام الشعراء .:

ولكن تعليل الأصمعى لم يأت بالقول الفصل ، فإن ضعف الشعر فى صدر الإسلام كان سكتة مذهلة أمام أغراض جديدة جاء بها نبى البيان ، فما قبل أن ترتد إلى الوراء ثانية ، ولا استطاع أن يعيش التجربة الجديدة فى وهج من النور ، ولو لم يسكت الشعر هذه السكتة لانطلق يتحدث عن مكارم الأخلاق

وحب الإخاء والمساواة ، ويبشر بعالم جديد بزغ عن نور القرآن .

سيقولون إن حسانا وأضرابه قد دافعوا عن حزب الله . ولكن الموقف كان أكبر من حسان . كان يتطلب شاعرا كبيرا يصور محاسن الإسلام تصويرا يأخذ بالألباب . وما زال هذا الشاعر في ضمير الغيب لم تسعد به العربية ، وإن سعدت به الأردية والفارسية على لسان إقبال .

كان التقليد الكلاسيكي غلا ثقيلًا أمام شعراء الإسلام فلم يتمكنوا من الانطلاق من آصاره وإنها لثقال ثقال . وإلا فماذا نقول في أكبر شعراء الدعوة الإسلامية وقد تعرض لتأييد الإسلام في بعض قصائده الجهيزة فأوقعه تقليده المنهجي في مجافاة ذوقية ثقيلة إذ أنه بعد أن تغزل وبكى الطلل قال عن راحه المعتقة ..

إذا ما الأشربات ذكرن يوما فهن لطيب الراح الفداء

وهو يعلم أن رسول الله لم يكن ممن يشربون الخمر . وإذا كان تحريمها قد جاء بعد إنشاء هذه القصيدة ، فإن مجرد امتناع نبي الإسلام عنها ما كان يجيز لشاعر أن يمدحها في قصيدة يتوجه بها إلى من حرم على نفسه الصهباء .

على أن موضع العجب في هذا النبي البليغ أن ثقافته العظيمة كانت من ذات نفسه لم يتأثر بأدب أجنبي ، ولم يقرأ تاريخا للأمم غابرة ، ولم يخبر سياسات الأمم القريبة والبعيدة ، ثم جاءت أحاديثه بعد ذلك أحاديث قارىء التاريخ ، وعالم السياسة ، ودارس الآداب ..

وإذا كان تحرير العقول أول ملهم الأديب الرائد . فبأى سلاح حرر محمد صلى الله عليه وسلم العقل العربي من الخرافات .

بأى سلاح أزال عن العقل العربي أوهام الطيرة ، والتشاؤم ، والاققسام بالأزلام ، والتداوى بالتمائم ، وتأليه الجن ، والكواكب ، والأصنام ، ثم وجهه إلى الطريق المنهجي في الاهتداء بالنظم . وربط المسببات بأسبابها الصحاح .

اقرأوا ما قال نبي الإسلام في ذلك فإن الجامع الصحيح وغيره مما يشرق بنوره قد سجل لمحمد ﷺ أبدع الآثار . فكان أكبر أسلحته سلاح البيان .

إن هذا النور البياني الذي انبثق من لسان محمد قد زاد من تأثيره ، إنه انبثق من لسان نبي متواضع غير مغرور . ونحن نرى نقرا من الأدباء يشمخون بآثارهم ويبلغ بهم التطاول حدا يدفعهم إلى المباهاة . وهم بعد أدباء زمنيون يؤثرون في جيل واحد ، وإقليميون يؤثرون في قطر واحد ، ثم تأتي الأيام بما يزلزل إنتاجهم من القواعد ، ولكن نبي البيان يأتي بأدب خالد إلى زمن غير محدود ثم يضرب المثل في تواضعه فيتحدث في هدوء ، ويجب وكأنه يسأل ويفيد وكأنه يستفيد .

ما ذلك إلا لأنه عند نفسه وبالقياس إلى رسالته أعظم من أن ينحدر إلى إدعاء .

تكلم رجل عنده فأطال في غير طائل ، فسأله رسول الله في هدوء كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال شفتاي وأسناني فقال الرسول : إن الله يكره الانبعاث في الكلام فنصر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته وبذلك هداه الصواب .

وقد ترك محمد مدرسة بيانية من صحابته وأتباعه ، فجاء أدب أبي بكر وعمر وعلى مستلهما من نبعه ، وتوالى دعاة الخير ، والمعروف من رجال الإسلام يملئون مسامع الكتب بأدب الإرشاد والتوجيه . وذلك ما يجدر أن نسميه صادقين بأدب الإسلام .

إن التسمية الاصطلاحية في تاريخ الأدب قد وضعت بعض الأشياء في غير موضعها الصحيح ، فمؤرخو الأدب العربي مثلا حين يعنون الأدب الإسلامي إنما يضعونه في كفة تجاه الأدب الجاهلي ، وهم بناء على ذلك يعدون أدب الهجاء ، والمناقضات ، وخمريات الأخطل ، وأبي نواس ، وكل مدار هذا المدار يدخل في نطاق أدب الإسلام وإذا كنا نعرف أنه لامشاحة في

الاصطلاح ، فإننا نرى أيضا أنه لآمانع من تعديل بعض المصطلحات الواهنة
تعديلا يرتفع بها إلى القوة الصحيحة فيكون المراد بالأدب الإسلامى حينئذ بكل
مانحا نحو الإسلام مما جاء به محمد ، ودعا إليه صحابته المخلصون . أما غير
ذلك فيسمى باسم عصره فيقال أدب أموى وأدب عباسى . وأدب مخضرم فآنت
مع اصطلاح القوم تجعل خمريات الأخطل ، ونقائض الفرزدق ، وجرير أدبا
إسلاميا وفي الاصطلاح الذى أدعو إليه تنأى بها عن ذلك . ومهما ارتفعت
أصوات الاعتراض على هذا القول ، فأنا أدعو إلى أن نتحدث من جديد عن
تاريخ جزئى لأدب الإسلام ، يبتدىء بمحمد ثم يتسلسل بمن تبعه من ذوى
البيان الهادى والمنطق الموجه السديد .

إننا نسمع بين الآونة والأخرى إنكارا صارما على من ينادون بتحديد وجهة
الأديب إذ يرى المنكرون أن الأدب غاية لا وسيلة ، فليس لك أن تهدف بأدبك
إلى رسالة خلقية أو اجتماعية ، وإنما الفن للفن كما يقولون . بينما ترتفع
أصوات أخرى تعلن أن الأدب للمجتمع فلا ينبغي أن يكون الأديب الكبير
بمعزل عن قومه يقبع فى برجه العاجى بعيدا عن مشكلاتهم وأحلامهم لينظم
قصيدة ذاتية أو يكتب قصة شخصية .. وكثيرا ماتطاحن الرأيان على صفحات
المجلات وتشيع إلى كل رأى فريق . فما موقفنا من ذلك ونحن نتحدث عن
رسالة أكبر أديب مصلح وجه بيانه وجهة الهداية والإصلاح .

لقد دافع تيودور جويتيه^(١) عن قضية الفن للفن دفاعا حارا فأعلن أن الآداب
القديمة كانت جميلة لأنها فن طليق حر لا يعرف المنفعة وإنما يعرف الشعور
وذائقة والأدب الملفف فى أثواب الفضيلة أدب يلتوى الفهم فيه فلا ندرى إذا
كنا بصدد أدب أم إذا كنا بصدد قواعد وسلوك ومسائل تتصل بالأخلاق .

(١) تيارات أدبية للدكتور إبراهيم سلامه ص ٣٤١ .

قال جويتيه ذلك ونسى شيئا هاما . نسي أن الأدب لا يهز الشعور الإنساني الحي إلا إذا اتجه إلى تصوير الفضائل والمثل الرفيعة اتجاها يرضى الضمير المستقر في نفس كل إنسان وإن نام أحيانا ، أما إذا اتجه إلى المنحدرات المساقطة فقد يروق ببراعة تصويره ولكنه لا يستجيش الإعجاب الدائم من نفس ذات وجدان رفيع . فقد يتعرض قصاص إلى تصوير شخصية هابطة ولا معابة عليه في اختياره إذ أن تأثير التصوير في نفس القارىء هو أساس الحكم فإذا ترك بها اهتزازا عنيفا لانتهيار المثل ، فإن تصوير في هذه الشخصية الهابطة قد أفاد الفن العالى من ناحية هذا التأثير ، أما إذا صورها في براعة دون أن يترك صدى المأساة في نفس القارىء فهو شيطان يتستر باسم الأديب ، ولا يمكن من وراء ذلك أن يعجب به قارىء يستشرف الآفاق الرفيعة . لأن الفضيلة نهب مشاع بين الناس سواء من يعملون بها ومن لا يعملون — فالذين يعادونها يحسون في أعماقهم حينئذ لها ورغم انفصالهم الظاهر عنها ، ومن هنا كان إعجابهم بالأدب الهابط لا يتعدى أوقاتا محدودة يغفو فيها الرقيب الداخلى لحظات ثم يصحو ليعصف بكل منحدر هابط . وإذن فليس لدينا مشكلة غامضة تتعلق بغاية الأدب ووسيلته حتى نكثر من اللجاج في كل مناسبة إذ أن التأثير النهائى — ويتوقف عليه تقدير الأديب — رهن بارتباط الكاتب بالمثل والأخلاق شاء أم أبى — ولعل الأستاذ « توفيق الحكيم » قد أحسن التعبير عن ذلك كله حين قال (١) :

« إنى لأشد الناس تمسكا بحرية الفن وإدراكا لقدسية هذه الحرية ، ولا أتصور فنا لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن ، وإن الدين يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين ، ولكن المقصود ليس حرية التصوير فهى مكفولة فى الفن ملحوظة فى الدين ، إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين إلى النفوس ، ثم يقول الكاتب بعد ذلك مستطردا بقول جوبو إن الروح الأخلاقى عند الفنان

(١) فن الأدب ص ٧٧ .

كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفى وقت واحد من أعماق طبيعته ، وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أخط مرتبة حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ذلك أن الفن العالى ليس هو الذى يثير فى النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب ، ولكنه ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها ، إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ويستلب إعجابك بصورة ، وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط وحملك بهذا الإعجاب على أن تعطف على الانحلال فإن مجتمعا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن .

وإذا كان الروح الأخلاقى مثار الإعجاب والتأثير ، فإن الأديب المصلح قد دخل باب الأدب من أوسع أبوابه ، وقد أصبح ببيانه صاحب رسالة مثلى لا يمكن بأن يلحق به أديب يكتب دون أهداف . وأخط منه ذلك الذى يكتب لأهداف هابطة تورث الانحلال والتهور فى مجتمع تسرى فيه العدوى الوبيئة من كتاب غير أمناء ، ومن هنا كانت الضرورة ملزمة إلى إيجاد مختارات من الأدب الإسلامى كما نغنيه لتظل مثالا تشرئب إليه الأعناق فى تطلع . ولاريب أن أفضل هذه المختارات يفد إلينا من كتاب الله ومن حديث محمد ، ثم ممن استلهموا الحديث والقرآن .

لقد اقتعد محمد ذروة الفكر العربى حين تحدث لأول مرة فى العربية عن المصير الإنسانى المحتوم وعن مشكلات القدر والقضاء والكائنات فأوجد بنورا صحيحة لفلسفة إسلامية رفيعة أتى بها نبي الإسلام ، ولكننا واحسرتاه إذا تحدثنا عن الفلسفة الإسلامية لم نتحدث عن آراء محمد فى التشريع والقانون والاجتماع وعن رأيه فى ذات الله وصفاته ، والبعث والجزاء والعقاب ولكننا نتحدث عن ابن سينا ، والفارابى ، وابن رشد وكلهم يدور فى فلك الفلسفة الإغريقية ، فصرنا بذلك نرى الكتاب من شرق وغرب يجزمون بأن الفلسفة الإسلامية لدينا نقول مشروحة من كتب الإغريق . فنحن فى الفلسفة ذبول لا

رعوس . ولو أمعنا النظر في هذه القضية لجعلنا نصوص القرآن وأحاديث محمد وتابعيه نواة لفلسفة عربية إسلامية . تستند أساسا إلى أفذاذ أئمة حفظ لهم الإسلام كرامة العقل فكان لهم نظرهم الخالص دون احتذاء . وذلك بعض مآفاد الفكر العربي من محمد وعجيب ألا يلتفت إليه الناس ..

لقد اكتملت في نبي البيان رسالة الأديب المفكر المتأمل . وإذا كانت الأعمال بنتائجها الحاسمة فإننا نترك الأستاذ « دريني خشبة » أن يحدثنا عن القيمة العليا لرسالة محمد الأديب العظيم حين يعقد مقارنه بين رسول الله ، وبين كبار الأدباء في أوروبا المتحضرة فيرى كفة محمد ترجح ، ولن نستطيع أن ننقل بحثه العظيم على أهميته فهو ضاف شاف بمجلة الرسالة العدد (٢٩٧) ولكننا نجتزئ بفقرات منه بعد أن وازن بين ديموستين ، وشيشرون ، ودانتى ، وملتن ، وبيكون ، وبين رسول الله كأدباء ثم قال متجها إلى سواهم من الأفذاذ :

« هؤلاء الأدباء العظام في عصر لويس الرابع عشر بيير كورنيل ، وديكارت ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين . إننا نقولها كلمة حق لاتصدر عن حماسة فحسب بل عن تروية ويقين . إن المثل الرائعة التي زاد بها هؤلاء في تاريخ الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية هي قليل من كثير مما ضاعف به النبي هذا التراث ، ونحن نقول المثل لأن النبي لم يكن ضحاكا كموليير ، ولا فيلسوفا كديكارت ، ولا مؤلف درامات كراسين بيد أنه مع ذلك أنشأ للإنسانية مثلا أسمى مما أنشأ هؤلاء وأنشأها كلها عن طريق الأدب » .

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية فولتير ، وديدور ، وبورمارشيه ، ورسو ، هل أنشئوا ثورة كهذه الثورة التي أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده ، وأين هي الثورة الفرنسية التي انتهكت فيها الحريات ، باسم الحرية وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعردة النساء ولوثة الأوشاب ، من تلك الثورة العظيمة في سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التي كان يعبدها الناس . أي الثورتين كانت أعود

بالخير على الناس وعلى الأفهام .

لقد كتب روسو إنجيل الثورة فهل رسم فيه مارسم القرآن للناس أجمعين في كل العصور ، وهل كان إنجيل الثورة كهذا الوحي الذي يسره الله بلسان محمد .

ثم هؤلاء منشئو الأدب الألماني جوته صاحب فاوست ، وشيللر صاحب وليم تل ، ولسنج مؤلف لاوكوف وهم الذين أعدوا الذهن الألماني إعداده الذي غير عليه قرن ونصف قرن ، الإعداد الذي لايعرف شيئا هو المثل الأعلى غير القوة والغلب ، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم في أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ، هل كانت ألمانيا تنشر الأمن والطمانينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام ، كما نشر العرب ذلك جميعا في ربوع العالم أم أنها تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون وآريون أما نحن فأريون نورديون ، في حين يقول محمد للناس لا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى .

أم أدباء روسيا لرمنتوف ، وجوجل ، وتولستوى ، ودستوفسكى ، وترجينيف ، وبوشكين ، وجوركى ، ماذا أسلف هؤلاء جميعا ، لقد مهدوا بأديهم الباكي البائس الغارق في الدموع لشيوعية خربة مستبدة تستبد بالناس وتسومهم الخسف ، وتهدم مساجدهم وكنائسهم ويبيعهم ، وتبيح نساءهم باسم الدولة فكأنهم تخلصوا من راسبوتين ، ليقعوا في براثن ستالين »

ثم قال الأستاذ دريني خشبه رحمه الله موضحا فصل الخطاب :

« نحن لانحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وما انتهى إليه أدب القرآن الكريم ونحن لانغض من الآداب الرائعة التي لها قيمتها ، ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق ، بل نحن نوازن بين مثل ونقارن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد ، وخير كثير أصابها على أيدي كثيرين ، وشتان بين الأديين » .

ولعلّ الذين يشكون بعد ذلك في أن محمداً كان أديباً عظيماً لا يجوز أن
يقاس به سواه يرون الضوء فيبصرون ..



نماذج من التفسير النبوي للقرآن

لم يتحدث رسول الله ﷺ — فيما نقل لنا عنه — كثيرا عن شعراء الجاهلية وخطبائها إلا بضعة أقوال متناثرة ، لاتيح لنا أن نعرف حكمه المسهب على النصوص الأدبية المشتهرة ، لأن أعباء الدعوة الإسلامية لم تترك لديه فراغا يفسح مجال القول في أدب السالفين ، ولكن مافاتنا من رأيه الفصل في الأدب الجاهلي لا يعد شيئا ، جوار ماتركه ﷺ من الحديث عن كتاب الله وهو أروع نص أدبي عرفته العربية في القديم والحديث . لذلك كان على الباحث المنقب عن إبداع محمد الأدبي ألا يمر بتفسيره ﷺ للقرآن الكريم دون أن يستنبط منه ماينبىء عن حاسة التذوق الأدبي لدى رسول الله ، حيث كان مذاقه الخاص لكتاب الله من السمو والروعة مما يحسب له في مجال التقدير الأدبي ، وإذا كان الله عز وجل قد يسر القرآن للذكر فإن آثار هذا التيسير من السهولة والنصاعة والوضوح وقوة الحجة مما جعلته ساطع البرهان مضى الدلالة رائع التأثير لدى سامعيه المعاصرين . وهم أفصح أهل العربية بيانا ، بحيث كان ألد أعدائه يتسلل في ظلمات الليل ليسمعه في خفية عن الأنظار ، وبحيث نقل لنا التاريخ عن أحدهم وقد كان شديد الخصومة للإسلام ، قوى اللدد لمحمد ، وأنه استمع مااستمع إلى آيات متصلة من القرآن ، ثم رجع إلى قومه ليقول عنه « إن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق » .

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لروعة القرآن فإن محمدا ﷺ كان أشد الناس تأثرا بمنطقه ، وكان يتلوه تلاوة تظهر معانيه ظهورا رائعا أخاذا ، قال جبير بن مطعم رضى الله عنه سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآيات ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ كاد قلبي أن

يطير^(١) فهذا صحابي كريم كاد يطير قلبه من تأثير قراءة محمد ﷺ بعض آيات من سورة الطور ، وبلاغة الترتيل لدى محمد نابعة من قوة يقينه ، وشدة إيمانه بما يقرأ ، ولا ريب في أنه كان دائم التفكير في هذا البيان المعجز الذي نزل على قلبه ، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تتكشف له عن دلائل عميقة لا يلمحها سواه ، لذلك كان دائم الخشوع غزير الدمع حين يتلو القرآن وحين يسمعه ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال لى النبي ﷺ اقرأ على قلت اقرأ عليك وعليك نزل ، قال فإني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال أمسك ، فإذا عيناه تذرفان^(٢) .. وكان في ذهابه وإيابه وقيامه وعوده يفكر في القرآن ويستحضر آياته في كل موقف يمر به ومن ذلك ما حدثت عنه عائشة حين قالت :

كان محمد ﷺ إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه قلت يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجا أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيت عرف في وجهك الكراهية ، فقال : يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا^(٣) ، إشارة إلى قوله تعالى عن قوم عاد ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبلا أو ديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ .

فرسول الله كان يتذكر من آيات القرآن في كل موقف ما يند عن غيره مهما أمعن وتدبر ، وذلك لطول تأمله ومعاودته ، وانطباق لبه على كلماته وحروفه فضلا عن أغراضه ومعانيه .. ولا ريب أنه فسر كثيرا من كلماته وكشف عن

(١) التاج ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٩٦ .

(٣) التاج ج ٤ ص ٢٤٠ .

غوامضه تصديقا لقوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

ولن نتعرض هنا لما ناقشه الأصوليون من اجتهاد الرسول ، إذ ذهب فريق إلى أنه ﷺ ليس له أن يجتهد بدليل قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ﴾ كما يذهب الجمهور من العلماء إلى أن الاجتهاد من حقه ﷺ بدليل قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ أى بما جعله لك رأيا كما قال أبو يوسف رحمه الله ، أقول لن نتعرض لذلك لأن اجتهاد الرسول أوضح من أن يختلف فيه بدليل أن القرآن كان يراجعه فى بعض ما اجتهد فيه ، كموقفه من أسرى بدر فى سورة الأنفال ، ومن ابن أم مكتوم فى سورة عبس . وبدليل أن القرآن جعل الاجتهاد من حق العلماء فى مثل قوله ﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ فأولى أن يكون من حق الرسول ، لذلك كان تفسير رسول الله للقرآن ، من وحي اجتهاده ، وإذا علم أن الاجتهاد الصائب نوع من الإلهام الصادق فقد اقتربت شقة الخلاف .

على أننا لا نتحدث هنا عن التفسير النبوى ، لنبحث الجانب الفقهى منه ، أو التاريخى أو التوحيدي ، فذلك ماتكفل به كتب العلماء والمفسرين ، ولكننا نذكر هنا نماذج من الشرح النبوى لنعرف كيف كان محمد يفهم النص الأدبى فى أفصح كتاب يتلوه الناس .

إن الذى يتأمل أقوال محمد ﷺ عن القرآن يدرك أنه كثيرا ما كان يقدر الوحدة الموضوعية للنص فهو ينظر عليه السلام إلى السياق نظرة كلية متصلة بحيث لا يقتصر على الكلمة الجزئية أو الآية الواحدة صارفا النظر عما يحيط بها ، كما تعودنا ذلك من بعض المفسرين ، هذه النظرة الكلية يفصح عنها حديث أبى هريرة حين روى عن النبى ﷺ أنه قال : قال الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل ، فإذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى : حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم قال ، أثنى على عبدى ، وإذا قال مالك يوم الدين قال تعالى : مجدنى عبدى ، وقال مرة

فوض إلى عبدى ، فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال ، هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل^(١) .

فإن هذا الحديث ينبيء أن محمدا ﷺ كان ينظر إلى أم الكتاب نظرة كلية بمعنى أن آياتها قد رتبت ترتيبا متماسكا يسلم أوله إلى آخره ، هذه النظرة الصائبة تدل على بصر كامل بالبيان الرفيع ، وتتخطى أزمانا كثيرة لتثبت أمام النقد المعاصر ، إن ما يكثر الحديث عنه من وحدة الموضوع كان مفهوما واضحا لدى رسول الله .

وقارىء النصوص التفسيرية المأثورة عن الرسول ﷺ يدرك أنها لم تكن فى أكثر حالاتها تفسيرا لغويا لأن القرآن قد خاطب العرب بما يفهمون ، ومانفذ الذكر الحكيم إلى شغاف قلوبهم إلا لوضوحه فى عقولهم ونصوعه فى أذهانهم ، وهم بعد أهل اللغة وخبرائها الثقات . إلا ما وجد من كلمات يسيره كانت تغيب معانيها عن فريق دون فريق مثل « بضع » فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « البضع » ما بين الثلاث والتسع^(٢) من السنوات ومثل كلمة « المهل » فقد روى أبو سعيد الخدرى عن النبى أنه قال ، فى تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِن يَسْتَفِثُوا يَفَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه^(٣) .. أما ما عدا ذلك وشبهه فليس بالتفسير اللغوى ، بل بما توحى به الدلائل ويكشف عنه السياق .

ولنا أن نقسم بعض ما نستشهد به من النماذج النبوية للتفسير القرآنى إلى ثلاثة أنواع ، نوع يكشف عن المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق ، ونوع ثان جاء تفسيره فى سياق إرشادى يمهد لمراميه ويكشف عن مدلوله ، ونوع

(١) التاج ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٣) التاج ج ٥ ص ٤٥٤ .

ثالث أوحى به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال ، وكلها تصور وقوفه ﷺ على أسرار البيان الرباني ، وتشربه معانيه تشربا لايتاح إلا لعبرى عظيم .

فمن النوع الأول هذه الآثار ..

١ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ شق ذلك على المسلمين . فقالوا يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه قال : ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾^(١) .

فواضح من تفسير الرسول أنه يقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فقد جاء بالنص الثانى من سورة لقمان ليفسر معنى الظلم فى النص الأول من سورة الأنعام . وهى قاعدة أصبحت من المسلمات الآن . فأزال بذلك عناء مرهقا للنفس المؤمنة إذ لا يخلو أى إنسان من ظلم نفسه فأراح التفسير النبوى من هذا العناء .

٢ - روى النعمان بن بشير عن النبى ﷺ أنه قال : الدعاء هو العبادة ثم قرأ ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(٢) .

وهذا تفسير معقول إذ أن قول الله عقب الأمر بالدعاء ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى ﴾ يكشف عن المراد من معناه وهو ما اهتدى إليه الرسول حين قرأ الآية جميعها ، وبذلك يخطىء من يظن أن كل دعاء مستجاب كما هو الظاهر من المعنى اللفظى .

(١) التاج ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٢٣٤ .

٣ — ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال أبو أمية الشعباني: سألت أبا ثعلبة عن ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فقال أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت رسول الله ﷺ فقال : بل اتثمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ^(١) .

فالتفسير المخمدي إذن لا يغفل الأهداف العريضة التي دعا إليها الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد يظن بعض السذج أن قول الله عليكم أنفسكم مما يدعو إلى التفات المرء لنفسه دون غيره . بمعنى أنه لو رأى معصية ترتكب فلا ينهي عنها ، مادام هو في ذاته لم يقارف إثماً ، فجاء التفسير النبوي ليدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الاستطاعة حتى إذا ظهر اليأس من القدرة عن الصلاح كان على المؤمن أن يتولى أمر نفسه إذ لا يضره من ضل حين يلتزم جانب الهداية . وأكثر ما روى من تفسير رسول الله ﷺ لآيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤكد ذلك ، فقد روى أبو عبيدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ونزل فيهم من القرآن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ، وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ^(٢) .

قال الراوي : وكان نبي الله ﷺ منكثاً فجلس ، فقال لا حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه أطراً ^(٣) .

(١) التاج ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) المائدة الآيات من ٧٨ : ٨١ .

(٣) التاج ج ٤ ص ١٠٨ .

وقد كان رسول الله ﷺ سريعا إلى تصحيح ما يتوهمه المسلمون من الخطأ في تفسير بعض آيات الله ، وإن كان في صيغة سؤال ؟ فما يكاد يصل إلى سمعه بعض ماجاء في غير موضعه من القول حتى يبادر إلى إحقاق الحق ، فقد قرأت عائشة رضی الله عنها ذات مرة قول الله عز وجل ﴿ والذين يؤتون مآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ فسألت رسول الله : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ، فقال لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم^(١) . فكأن عائشة قد ظنت الوجل لدى هؤلاء من حدوث الذنب . وغفلت عن سياق الآيات ، ولكن النبی المفكر لا يتر قطعاً من نص ليستشهد بها دون النظر إلى جميع الكلام ، فهو يعلم أن الآية سيقت في مجال الحديث عن المؤمنين التقاة . إذ يقول الله عنهم في سورة (المؤمنون) ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون مآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾^(٢) . وواضح أن الذين يسرفون ويشربون الخمر ليسوا الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وليسوا ممن يسارعون في الخيرات ، ولو تدبرت عائشة النص الكامل ما سألت سؤالها البعيد . أما الخوف والوجل مع هذه الأعمال الصالحة فخشية ألا يتقبلها الله . وهذا ما عبر عنه القرآن بالإشفاق في مجال آخر حيث قال عن المؤمنين في الجنة ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فَمَنْ اللهُ علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾^(٣) .

وبعض الصحابة على حق حين يلتبس عليهم وجه الحق في بعض الآيات ،

(١) التاج ج ٤ ص ١٩٠ .

(٢) المؤمنون الآيات من ٥٧ : ٦١ .

(٣) الطور الآيات من ٢٢ : ٢٨ .

فلكل تفكيره الخاص ، وفوق كل ذى علم عليم ، لذلك كان اهتمام الرسول يكشف الحقائق عن آيات الكتاب ، وَمَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ غَيْرَ عَالِمٍ نَاقِدٍ يَفْهَمُ النُّصُوصَ الْقُرْآنِيَةَ فَهَمَا كَلِمَا مُسْتَوْعِبَا ، ثُمَّ يَصْدُرُ عَنِ فِلْسَفَتِهَا الْعَامَّةِ فِي التَّخْرِيجِ وَالتَّأْوِيلِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنْ أَنَّهُ حِينَ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ، يَجْزِيهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ^(١) ، وَتَرَبَّصُوا بِنَفْسِهِمُ الشَّرَّ إِذْ أَنْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَخْطَاءٌ مَهْمَا احْتَرَزَ ، فَشَكُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يَصِيبُ الْمُؤْمِنَ كَفَارَةٌ حَتَّى الشُّوْكَةُ أَوْ النَّكْبَةُ يَنْكَبُهَا ، ثُمَّ ضَرَبَ الرَّسُولُ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَمْثَلًا لِمَا يَصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنَ الْحَمَى وَالنَّكْبَةِ حَتَّى الْبُضَاعَةُ يَضَعُهَا فِي كَمِّ قَمِيصِهِ فَيَفْقِدُهَا فَيَفْزَعُ لَهَا وَهِيَ مَكْفَرَةٌ الذَّنْبِ . كُلُّ ذَلِكَ فَهَمَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

وفى القرآن ألفاظ مجازية تحتاج إلى الإيضاح أو صور تشبيهية تحتاج إلى المثال ، وهو ما تكفل به الرسول عليه السلام وقد صدر في ذلك عن سلامة فهم ، وصحة تأمل ، ووقوف على أسرار العربية في أساليبها المجازية والحقيقية على السواء ، ونشير إلى بعض ذلك بهذه الأمثلة

١ — لما نزلت آية الصيام ومنها ﴿ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ سَأَلَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ أَهْمَا الْخَيْطَانِ ، فَقَالَ ﷺ لَابِلُ سَوَادِ اللَّيْلِ وَيَبَاضُ النَّهَارِ ^(٢) .

٢ — حين قال الله عز وجل عن أوليائه ﴿ لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ سَأَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ مُحَمَّدًا ﷺ عَنِ الْبَشَرَى الْحَيَاةِ فَقَالَ هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تَرَى لَهُ .

(١) التاج ج ٤ ص ١٠٣ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٥٧ .

٣ — قال الله تعالى في سورة الواقعة ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾^(١) ففسر النبي عليه السلام الرزق بالشكر^(٢) . وكأنه أخذ ذلك من سياق السورة ، إذ يسأل الله عز وجل ﴿ أفرايتم ماتحروثون أنتم تزرعون ﴾ ﴿ أفرايتم الماء الذى تشربون أنتم أنزلتموه من المزن ﴾ ﴿ أفرايتم النار التى تورون أنتم أنشأتم شجرتها ؟ ﴾ إذ أن المشركين يكذبون ما يسمعون عن نعم الله هذه .

فسيقت هذه الآية : ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ مساق التويخ . عن الجحود والكفران .

٤ — قال الله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾^(٢) فقال صلى الله عليه وسلم هى النخلة ، وقال تعالى : ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾^(٣) فقال صلى الله عليه وسلم هى الحنظل .

٥ — قال تعالى فى صفة أهل النار ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم عن الوجه الكالح تشويه النار فتقلص شفته العالية حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته^(٤) .

هذه بعض الأمثلة لما يكشف به الرسول عن المعانى المجهولة لألفاظ قرآنية لا يوحى بها المنطوق ، أمأمثلة التفسير الذى يكشف عنه الرسول فى سياق الحديث العام عن طريق الاستشهاد بالآية فى موضع يدل عليها ، ويكشف عن مرماها فما أكثر ما روى منه . والكشف عن نص من النصوص الأدبية من خلال السياق العام أمر تهش له الدراسات الحديثة وترحب به ، إذ أن المستشهد بالآية الكريمة إذا كان صحيح النظر كمحمد صلى الله عليه وسلم يمهدها بما يلقي الضوء الساطع

(١) التاج ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٢) إبراهيم آية ٢٤ ، ٢٥ .

(٣) التاج ج ٤ ص ١٥٨ .

(٤) التاج ج ٤ ص ١٩٠ .

على المراد منها ، فتنزل من السامع أو القارىء أحسن منزل وأرضاه ، ويكون مجرد الإتيان بها فى حديث متسلسل مطرد إيضاحا قويا لمدلولها المراد ، ولن يقدر على ذلك غير خبير فاحص متدبر قد ألم بالآيات القرآنية إلماما دقيقا ، ورزق من قوة الملاحظة ، واتساع الحافظة ، وسداد الإصابة ما يجعل نصوص القرآن طوع بنانه متى أراد ، والكثرة الكاثرة منا يحفظون القرآن ثم لا يقدرّون كثيرا على الاستشهاد به دائما فى براعة وجدة كما يفعل الرسول ، بل إن كثيرا من المستشهادين بالقرآن لا يصيبون الآية بمذاقهم الخاص ، بل يتناقلونها مستشهدا خلف مستشهد . ومحمد المعلم الأول لم يكن لينقل عن أحد فى القول والفعل ، وأبيح لنفسه أن أشير إلى بعض هذه الاستشهادات المفسرة كما جاءت فى بيان رسول الله .

١ — عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : إن للشيطان لمة باين آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فأيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فيعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فيتعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(١) ، قال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ .

٢ — عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى وقوله الحق إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها ، وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها أو قال لم يعمل بها فاكتبوها حسنة ثم قرأ ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾^(٢) .

(١) التاج ج ٤ ص ٧١ .

(٢) التاج ج ٤ ص ١٢٠ .

٣ — عن أبي هريرة رضى الله عن النبي ﷺ أنه قال : إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا قال : فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله ..

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ وإذا أبغض الله عبدا نادى جبريل إني قد أبغضت فلانا ، فينادى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض^(١) .

٤ — عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جدعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ، ثم يقول : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾^(٢)

٥ — عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم قرأ ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾^(٣) .

٦ — عن ابن عمر رضى الله عنه قال : خطب النبي ﷺ الناس يوم فتح مكة فقال : يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاضمها بأبائها ، فالناس ، رجLAN ، بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾^(٤) .

(١) التاج ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٢٩٧ .

(٣) التاج ج ٤ ص ١٢٠ .

(٤) التاج ج ٤ ص ١٨٣ .

٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ما أطلعتم عليه ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾^(١) .

٨ - عن علي رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله في بقيع الغرقد في جنازة ، فقال : مامنكم من أحد إلا وقد كتب مقعده في النار ، ومقعده من الجنة ، قالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾^(٢) .

٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قد ينادى مناد أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا ، وأن لكم أن تنعموا فلا تبتسوا أبدا ، فذلك قول الله عز وجل ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾^(٣) .

١٠ - عن علي عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال « مامن رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي فيستغفر الله إلا غفر الله له ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾^(٤) .

(١) التاج ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٢) التاج ج ٤ ص ١٣٦ .

(٣) التاج ج ٤ ص ١٢١ .

(٤) التاج ج ٤ ص ٨٨ .

تلك عشرة أحاديث . وما بنا أن نزيد .

فإذا انتقلنا إلى النوع الثالث من التفسير النبوي ، وهو مأوحي به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال . نجده مما يدل على مهارة فائقة في الاستنباط والتخريج ، لأن الصحابي العربي الذي يتقدم بسؤال عن آية من القرآن لا يكون سؤاله بدهيا هينا ، بل لابد أن يستعصى عليه وهو ابن اللغة وريب الفصاحة ، فيتطلب إجابة صائبة من ذى فكر أكبر يتمتع باليقظة والدراية والثقوب . وذلك بعض مالدى محمد من مميزات إذ أن إجابته على الأسئلة القرآنية كانت دائما حسما للخلاف وكشفا عن الباطن المستور .

قالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليس أحد يحاسب إلا هلك ، قلت يا رسول الله جعلنى الله فداك ، أليس يقول الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ . قال ذلك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك .^(١)

فسؤال عائشة فى موضعه لدى من يقفون بآية ﴿ فَأَمَّا مَنْ أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ . وعند مدلول الحساب اللفظى . ولكن الرسول بإدراكه الكلى للقرآن علم أن الحساب هنا العرض ، وفى موضع آخر يكون بمعنى المؤاخذة والمناقشة . وهنا مظنة الخطر وتوقعه .

وقد سئل رسول الله ﷺ ذات مرة عن زكاة الحمر ، فقال لم ينزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾^(٢) وصریح الاستدلال يدعو أصحاب الحمر إلى الزكاة عنها ، لأن كل إنفاق محسوب مدخر عند الله ولو كان مثقال ذرة ، ووصف الرسول للآية بأنها الجامعة الفاذة مما يلفت إلى عظيم خطرها ووجوب تدبرها . فهو وإن لم يكن من قبيل التفسير للمعنى ، فقد ألقى عليها أشعة من الإجلال

(١) التاج ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٣٠١ .

ومثال ثالث : عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قلت يا رسول الله فأى النعيم نسأل عنه ، إنما هما الأسودان التمر والماء ، قل أما إنه سيكون ^(١) .

وبعض شراح الحديث يفهمون من قول الرسول أما إنه سيكون أن السؤال سيكون عن التمر والماء مهما قل شأنهما ، وأنا أفهم معنى آخر ، أفهم أن الرسول يتنبأ للمسلمين بالخير والنعيم حين تمتد راية الإسلام ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا من جميع الممالك والدول ، وإذ ذلك يكون النعيم . ويزداد الخير فيحاسب عليه المسلمون . وهذا ما كان فعلا بعد اندحار الفرس والروم ، وغزو الهند ، وما وراء النهر ، وفتح الأندلس وصدق رسول الله .

ومثال رابع — وهو أيضا مما يدل على التنبؤ المحمدى الصادق فيعزز رأينا فى الحديث السابق — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، كنا عند النبى ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ ﴿ وآخريين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ قال رجل يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وسلمان الفارسى فينا فوضع رسول الله ﷺ يده عليه فقال « والذي نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء » ^(٢) .

هذه أمثلة شتى لأسئلة الصحابة ، وقد يسأل رسول الله نفسه صحابته ليختبر مدارك سامعيه ، فإذا وجد الإجابة لاتقنع بادر بالقول المفيد ليتعظ العاقل ويتنبه النائم ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ قول الله تعالى ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فى سورة الزلزلة ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ فقالوا : الله

(١) التاج ج ٤ ص ٣٠٢ .

(٢) التاج ج ٤ ص ٢٧٠ .

ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل يوم كذا كذا فهذه أخبارها »^(١) .

كما أنه ﷺ كثيرا ما ينتهز مناسبة ما من مناسبة الحديث ، ليذكر ما يشير إلى موضوعها من القرآن الكريم فتتضح الآية اتضاحا ساطعا لانتهاز المناسبة ، ومن ذلك ما حكاه عبد الله بن مسعود حين روى أن حبرا من الأخبار وفد على رسول الله ﷺ ، فقال يا محمد : إنا نجد (أى فى التوراة) أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجرة على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول أنا الملك « فضحك .. النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ قول الله عز وجل ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾^(٢) .

على أن لمحمد ﷺ من صدق الاستشفاف للكتاب ما ليس لسواه ، فقد قرأ ذات يوم قول الله عز وجل فى سورة الأنفال ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري « أنزل الله على أمتى أمانتين ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة^(٣) ، أما سرعة انفعاله الشديد بما يقرأ من القرآن فما أكثر ما أشرنا إلى بعض شواهد ، ومن ذلك ما روى من أنه ﷺ حين نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ﴾ « قال رسول الله فى ضراعة » أعود بوجهك ، ثم سمع بعد ذلك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ فكرر الاستعاذة ضارعا ، ثم سمع بعد ذلك ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ فقال هذا أهون أو هذا أيسر^(٤) ..

(١) التاج ج ٤ ص ٣٠١ .

(٢) التاج ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) التاج ج ٣ ص ١٢٨ .

(٤) التاج ج ٤ ص ١٥٥ .

وقد اهتمت كتب الحديث برواية جميع ما نقل عن رسول الله من التفسير ،
ثم جمعه الحافظ ابن حجر في كتاب خاص ، وأحصاه الجزء الرابع من التتاج في
باب التفسير ، ولمن يرجع إليهما أن يلمس صدق النظرة ، وسلامة الاستنباط ،
وقوة الاستشفاف ، ودقة التحديد لمعاني الكلمات ومدلولاتها . وذلك ما يعيننا
هنا بصدد الحديث عن موقف محمد من تفسير القرآن باعتباره نصاً أدبياً . أما
اعتباراته الأخرى من توحيد وتشريع وتاريخ فقد أوسعها العلماء شرحاً ودراسة
وتأويلاً ، وكل ذلك مشتهر معروف .



بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث

أسلوب القرآن معجز ، وأسلوب الحديث مبدع . والفرق بين الأسلوبين أوضح من أن يدل عليه ، وقد أحسن أستاذنا العالم المفكر الدكتور « محمد عبد الله دراز » برد الله بالرحمة مثواه حين أجمل الحديث عن الأسلوبين بقوله في كتابه (النبأ العظيم) ص ١٠٦ .

« ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضربا وحده ، ونرى الأسلوب المحمدي فنراه ضربا وحده ، ولا يجرى مع القرآن في ميدان إلا كما تجرى محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعودا ، ثم نرى أساليب الناس على اختلافها ضربا واحدا لاتعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوا ومنها ما يشتد عدوا ، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية ، نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتحاول اقتناصها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة : أم من كلمات الصحابة أم من كلمات التابعين .. أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعا لا يلتبس معه غيره ولا يجعل طامعا يطمع في أن يحوم حول حماه » .

هذا التحديد الحاسم الذي وضعه أستاذنا الدكتور « محمد عبد الله دراز » ، قد أوضح الفوارق الطبيعية بين أسلوب القرآن المعجز ، وأسلوب الحديث المبدع ، ونقول الفوارق الطبيعية لأنها فوارق منطقية عاقلة لانشاز بها ، وليس ما يدرك منه رائحة الانتقاص للبيان النبوي في شيء ، إذ أن بيان محمد ﷺ شعاع من شمس القرآن ، يترسمه ويستهديه ثم لا يحاول اللحاق به إذ كان تنزيلا من حكيم حميد لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . أما محمد فهو

وإن كان خاتم الأنبياء يعترف بأنه بشر يوحى إليه . ويقول في بعض ما روى عنه « إنما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فيأخذها أو ليتركها » (١) ..

وهذا القول لا يصدر عن إنسان يدعى مالميس في طوقه بل يقوله عليه السلام مؤكداً طابع البشرية في نفسه . وحسبه أن يكون بيانه أرقى بيان بشري وأن المبدعين من بني الإنسان إذا قيس بينهم ببيانه . جاء أدبه النبوي مجليا وجاءوا لاحقين .

هذا التحديد الذي وضحه الدكتور دراز قد أشار إلى مضمونه مدره الإسلام « مصطفى صادق الرافعي » بأسلوبه القوي المفحم حين قال في هذا المجال (٢) .

على أن أعجب شيء أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة (النبوية) إلى مثلها مما في القرآن ، رأيت الفرق بينهما في ظاهرة كالفرق بين المعجزة وغير المعجزة سواء ، ورأيت كلامه صلى الله عليه وسلم في تلك الحال خاصة مما يطمع في مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن فإنك تستئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقا ألبته ، إذ لا تحس منه نفسا إنسانية ، ولا أثرا من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها حتى نأنس إلى ذلك على التوهم ، ثم تتوهم الطمع والمعارضة من هذه المؤانسة فتمضي عزمك ، وتقطع رأيك وتبت القول فيه ، كما يكون لك في قراءة الكلام الإنساني . فإن لجميع هذا الكلام الأدمي منهاجا ولجملته طريقا ، وحدود البلاغة التي تفصل بعضه عن بعض كلها مما يوقف عليها بالحس والعيان ويقدر فوق ما بين بعضها إلى بعض مهما يوقف عليه بالحس

(١) هداية الباري ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعي ص ٣٦٦ .

ومهما بلغ من تفاوتها واختلافها في الصنعة والغرابة بيد أن ذلك مما لا يستطيع في القرآن ولا وجه إليه بحال من الأحوال ، فما هو إلا أن تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المؤلف وانسلت منه ، وفاتت سمت ما قدرت لها من مطلع ومقطع ، فمهما وجدت لا تجد سبيلا إلى حدها ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلاما تعرف حده في البلاغة إن لم يكن بالصنعة فبالحس .

وإذن فكلام محمد ﷺ على إبداعه لا يمكن أن يشبهه بكلام القرآن على إعجازه ، ومن قرأ القرآن قراءة منصفه لاتميل إلى الهوى ، ثم قرأ الحديث النبوي قراءة منصفة لا تميل إلى الهوى كذلك ، وكان لديه أقل بصر بأساليب الفصحى ونظمها البلاغى لن يقول إن القرآن صادر عن محمد . فبينه وبين كلام محمد بون أى بون .

هذا البصر النافذ بأساليب الفصحى قد أعوز كثيرا من المستشرقين فطفقوا يتحدثون عما أسموه بمصادر القرآن التي رجع إليها محمد في تأليفه باعتباره في زعمهم من وضعه ﷺ ، فمرة يجعلون يهود المدينة ومالديهم من التوراة أحد هذه المصادر ، ومرة يجعلون لقاء بحيرى الراهب موجهها لمحمد وجهة قوية في التفكير الإلهى ، ومرة يزعمون أن حنفاء الجاهلية من أمثال زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل ، وقس بن ساعده قد جابوا بلاد النصرانية ثم رجعوا بتعاليمها إلى مكة فأخذ عنهم محمد ، ومرة يكون أمية بن أبي الصلت بما ساق من قصص السفينة والهدهد وبدء الخليقة مصدرا أساسيا للتفكير النبوي في صياغة القرآن . ولو رزق واحد منهم معرفة الناقد بما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق ماتورط في هذه الادعاءات التي تساق سوقا عن غرض مريض ، ولكنهم — فى الأعم الأغلب — قد عرفوا اللغة العربية عن المعاجم وحدها ، ومن أساطينهم من لا يستطيعون أن يفرقوا بين أسلوب كاتب كابن المقفع ، وكاتب كبديع الزمان الهمداني على بعد ما بينهما فى التفكير والتعبير ، فكيف يتبينون مع هذه الأعجمية الكثيفة فروقا ما بين أسلوبى القرآن والحديث .

ولكن الداهية الدهياء هي ثقة بعض الكاتيين لدينا في أقوالهم المريضة يأخذونها مسلمة مصدقة لاتقبل الجدل ، ومن هؤلاء من رزقوا حظا كبيرا من صدق النظرة وسلامة الذوق ، ولكن الإعجاب المفرط بأساتذة الاستشراق قد غطى على عقولهم فحجب عنها الضياء . ولو لم يخدرهم هذا الإعجاب المفرط ما قال ناقد حصيف كالدكتور « طه حسين » قولته الجرئية في بعض دروسه الجامعية بكلية الآداب .

« كما أن هذا القسم (المدني من القرآن) ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث ، والوصايا ، والزواج ، والطلاق ، والبيوع ، وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر واضح للتوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بهذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن »^(١) .

كبرت كلمة . فالبيئة اليهودية لم تتقف المهاجرين في شيء . ولم يكن الرسول صانع القرآن حتى يتأثر بثقافة اليهود تأثرا يحدث ما سماه الدكتور بالتغيير الفجائي . وقد أحسن أستاذنا الكبير الشيخ « محمد أحمد عرفة » حين عمد إلى هذه المزاعم فأتى على بنيانها من القواعد ، في منطق دقيق وفهم عاقل ، فبين في كتابه القيم « نقض مطاعن في القرآن الكريم » الحكمة في خلو القسم المكي في القرآن من التشريعات الجزئية ، وعنايته بإثبات العقائد الأصلية والتشريعات الكلية ص ٦٧ من طبعة المنار ، كما بين في وضوح ناصع أن القرآن لم يتعلم من اليهود في شيء ، لأن القرآن قد عابهم ورماهم بتحريف التوراة وتزييفها ، وبين كيف فقدوا الأمانة ، واستحلوا الخيانة والبهتان فهم سماعون للكذب أكالون للسحت كما يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، لذلك كان موقف القرآن منهم موقف المعلم لا المتعلم ، قال تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(١) نقض مطاعن في القرآن الكريم ص ٧٠ .

فكيف تكون بيئتهم المدنية بعد ذلك مثقفة يستفيد منها القرآن^(١) .

لم يكن لمثل الدكتور طه وهو الخبير العارف بالأساليب العربية أن يجهل ما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق حتى يقيم حكمه المخطىء الخاطى ، بأن اليهود قد ثقّفوا المهاجرين ثقافة ظهر أثرها فى القرآن . واتهام محمد باختلاق القرآن فرية قديمة تحدث عنها القرآن فى أكثر من موضع ، ورد عليه حين قال فى سورة هود ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

والحق أن أسلوب القرآن ينطق بنبوة محمد نظقا جهيرا لاليس فيه ، فقد خطب الرسول أكثر من خمسمائة خطبة على الأقل بين قوم هم أرباب الفصاحة ، وأبناء اللغة . ثم جاءهم بالقرآن يختلف اختلافا تاما عن أسلوبه فى الخطابة والحديث . فلو كان القرآن والحديث من منبع واحد لظهر بعض التشابه بينهما فى خطبة قيلت فى موقف فجائى أو حديث سيق عرضا ينبىء عن طابع رجل يفصل بين قولىه . أما والفرق بين أسلوبى القرآن والحديث أوسع الفروق ، وأوضحها لدى المعاصرين من أرباب الفصاحة ولدى التالين من فاقهى العربية لغة وأسلوبيا . فكيف يكون مصدرهما واحدا عند المنصفين .

لقد شغل وجه الاختلاف بين أسلوبى القرآن والحديث نفرا من ذوى البيان فى القديم والحديث ، وأتى كل بما لديه فى ذلك ، ولكنهم لم يصيبوا القول تمام الإصابة إذ حاولوا أن يحددوا خصائص الإعجاز القرآنى فى مقررات علمية . من نحو بلاغة النظم والإخبار بالمغيبات وقوة الجدل ، والتحدث عن السابقين ، وأحكام التشريع ، وذلك كله يغفل الروح الربانى المسيطر على الأداء سيطرة يعجز عن تحليلها أبلغ النقاد ، فأنت من القرآن فى روعة وجلال وسحر ، أما محاولة تشريح الأسباب الواضحة لهذه الروعة وهذا الجلال وهذا

(١) تراجع الصفحات من ٧١ — ٧٨ من كتاب نقض مطاعن للأستاذ محمد أحمد عرفة .

السحر فمما لم يصل إليه ناقد بعد فكلها مظاهر ساطعه لشيء خفى . كالكهرباء يدرك تأثيرها ولا يفهم كنهها ، ولعل الأستاذ العلامة « محمد فريد وجدى » رحمه الله قد قارب الحق حين أغفل^(١) فى الحديث عن إعجاز القرآن ما يتردد من نحو بلاغة النظم ، وحسن الأداء وأحكام الفاصلة مما كرره البلاغيون بإفاضة وإسهاب ، ثم اتجه إلى القول بأن روحانية القرآن هى سر إعجازه ، وهى التى تشهد بآثارها ولا يعلم كنهها ، إنها من أمر الله وروح من روحه ، نقول إن الأستاذ قد قارب الحق حين أغفل ما يتردد فى كتب القدماء من الحديث عن بلاغة النظم ، وحسن الأداء ، وأحكام الفاصلة . لأننا نرى هذه الأوصاف مما يصادف أن يرد فى غير كلام الله ، ولو فى سطر أو سطرين أو ثلاثة ثم لا يكون معجزا . لأنه فقد الروحانية المهيمنة ، وهى أمر جامع عام يشمل الذكر الحكيم من ألفه إلى يائه ، بحيث أصبحت طابعا مميزا تعرفه بشدة النفاذ ، وقوة السطوة وباهر التأثير .

قال الأستاذ محمد فريد وجدى فى المجلد السابع من دائرة معارف القرن العشرين :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كل عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهة بلاغته فكتبوا عنه فى ذلك فصولا ضافية الذبول ، وبعضهم خصها بالتأليف ، وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات إعجازه سلطانا على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الإنسانى تسلطا محدودا لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه ، حتى تستأنس النفس فلا يعود يحدث ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيد تأثيرا ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث

(١) أغفل ذلك لكثرة ما قيل فيه وسعة تداوله فى كتب البلاغة ، وهو بلا شك مما يشير إلى بعض نواحي الإعجاز فى القرآن ، ولكنه لا يحصر كل النواحي وقد اعترف الأستاذ بذلك فيما سيجىء .

عن وجه إعجازه من مجال آخر يكفى لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحددين .

والعلة فى نظرنا واضحة لاتحتاج لكثير من التأمل ، وهى أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ ، فهو يؤثر بهذا التغيير تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها ، فقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة يتلأأ فى نورها الإلهى وتتألق فى جمالها القدسى ذلك لما كان القرآن روحا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجاز ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائض الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى — ص ٦٧٧ من المجلد السابع دائرة المعارف الوجديه . ثم قال :

« ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح قد أحرص بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة ، وهو حكيم بهر سمسرة الحكمة والفلسفة ، وحير أراكين النظام والدستور ، وهو حق ألزم كل غال الحجة ودل على كل باحث على المحبة كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم الملك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك كله روح من أمر الله تصل من روح الإنسان حيث لاتصل إليه أشعة البلاغة والبيان . ولا سيالات الحكمة والعرفان وتسرى من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر ص ٦٧٨ ج ٧ ثم قال :

« إن للقرآن فوق البلاغة ، والعذوبة ، والحكمة ، والبيان روحانية يدركها من لاحظ له فى فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة ، ألا ترى أن الطفل

والعامى كيف يعتريهما تهب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن حتى أنهما
ليكادان يفرقان بين ماهو قرآن وماليس بقرآن لو أراد التالى أن يغشهما ؟

وهذه الروحانية تظهر جليا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل
الاستشهاد والاقْتباس فى صفحة كبيرة فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين
السطور ، وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رائعة النهار مهما كانت درجة
تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ « ص ١٧٩
ج ٧ .

نعلم من هذه المقتطفات أن الأسلوب القرآنى قد امتاز بالروحانية الربانية التى
تجعله نمطاً واحداً من البيان العلوى ، وهذا سر إعجازه البليغ فى رأى العلامة
الأستاذ « فريد وجدى » وهو مايعوز أسلوب سواه . وإن كان أبلغ البلغاء محمد
بن عبد الله ، والروحانية عند الأستاذ وجدى قريبة بعض الشيء من مدلول كلمة
السحر التى عنها مناوئو القرآن من الجاهلين حين قالوا فيما يتحدث عنهم
الذكر الحكيم ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ .

حين أجبروا كراهية على الاعتراف بقوة تأثيره التى أشبهت تأثير السحر فى
تقديرهم وسحر الأدب مما لاينكر بعد أن قال محمد « ﷺ » إن من البيان
لسحرا « وأى بيان أروع من القرآن » . ولكن كلمة الروحانية نجد مدلولها
العام ككلمة السحر : تطلق لتصور أقوى مايحس به القارىء من التأثير دون أن
تحدد أو تخصص . وإذا كان لبعض أحاديث الرسول روحانية وضيئة . فليس
معنى ذلك أنها تشارك البيان القرآنى إعجازه . ولكن روحانية الحديث أمر
نسبى لا يرتفع إلى روحانية القرآن ، وقد كانت هذه الروحانية النسبية سر إبداعه
لدينا كما كانت روحانية القرآن القوية الآخذة سر إعجازه لدى صاحب دائرة
المعارف الوجدية رحمه الله .

ثم ماذا ؟

لقد حاول كثير من المفكرين — مع اعتقادهم الخالص بإعجاز البيان

القرآني — أن يعتقدوا موازنة بين الأسلوب الرباني ، والأسلوب المحمدي وهذه الموازنة نافعة في حد ذاتها — مهما تأكدت نتيجتها — لأنها ترد بالدليل المقنع على من يزعمون أن القرآن نمط من أنماط الأساليب المحمدية . وهو زعم كاذب قد فضحه مابين الإعجاز والإبداع من فرق شاسع فياج .

حاول أبو بكر الباقلاني — في القديم — أن يوازن بين الأسلوبين ، فاستشهد بعدة أمثلة من كلام الرسول . ولم يفصل القول في كل مثال بل ذكره كما يجيء ، ليستدل من المجموع على أنه نمط آخر من البيان غير ما تعرف من نمط القرآن ، وقد بدأ هذه المحاولة بقوله ^(١) .

« والذي يصور عندك ماضنا تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت في صنعه الأدب متوسطا ، وفي علم العربية متبينا أن تنظر أولا في نظم القرآن ، ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفروق بين الكلامين فإذا تبين لك الفصل ووقعت على جلبة الأمر ، وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد ، وإن لم تفهم الفرق ، ولم تقع على الفصل ، فلا بد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة وأن سييلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان .

ثم مضى الباقلاني يذكر النصوص الآتية من قول الرسول :

- (أ) خطبة أولى مطلعها « ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا » ص ١٩٦
- (ب) خطبة ثانية مطلعها « أيها الناس إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم » ص ١٩٧
- (ج) خطبة ثالثة مطلعها « الحمد لله أحمدته وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا » ص ١٩٧

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٩٤ ط دار المعارف — تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

- (د) خطبة رابعة مطلعها « أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم » ص ١٩٨
- (هـ) خطبة خامسة مطلعها « لا إله إلا الله وحده لا شريك له
صدق وعده » ص ٢٠١
- (و) خطبة سادسة مطلعها « نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها » ص ٢٠٢
- (ز) خطبة سابعة مطلعها « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ألا وإن الله
مستخلفكم فيها » ص ٢٠٣
- (ح) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس ص ٢٠٣
- (ط) كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة ص ٢٠٤
- (ي) نسخة عهد الصلح مع سهيل بن عمرو عام الحديبية ص ٢٠٥

ثم ختم الباقلاني هذه المختارات النبوية بقوله ص ٢٠٦

« ولا أطيل عليك ، وأقتصر على ما ألقىته إليك فإن كان لك في الصنعة
حظ ، أو كان لك في هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب في الأدب بسهم ،
وإن قل هذا السهم أو نقص ذلك النصيب ، فما أحسب أنه يشبهه عليك الفرق
بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه
ورسائله .

فإن قلت لعله أن يكون تعمل للقرآن ، وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان
ذلك من خبثه ، فثبت في نفسك وأرجع إلى عقلك ، واجمع لبك وتيقن أن
الخطب يختشد لها في المواقف العظام ، والمحافل الكبار ، والمواسم
الضخام ، ولا يتجوز فيها ، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع
لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الإخلال ،
وكيف تعرض للتفريط ، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ، وأن
كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر النبوي .

هذا مقاله الباقلاني ، ونحن نصدق النتيجة التي انتهى إليها من أن نظم القرآن من الأمر الإلهي ، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوي ، ولكن المقدمات التي أفضى بها إلى هذه النتيجة لاتخلو من نظر ، فليس من الدقة الدقيقة في مجال الموازنة الأدبية أن تذكر عدة نصوص نبوية كما اتفق دون أن تقرنها بنصوص قرآنية في موضوعها ليتجلى للقارئ وجه الفروق بين الأسلوبين في مجال واحد . ولاشك أن القارئ المثقف يعرف هذه النصوص قبل أن يذكرها صاحب إعجاز القرآن ، وهو لا ينتظر منه في مجال الموازنة بين القرآن والحديث أن يكتفى بالاستشهاد النبوي ليرى في أسلوبه نمطا يخالف نمط القرآن فهذا معلوم معروف . وإذا اقتصر عليه الباقلاني فإنه في اختياره السردى لم يأت بجديد على أن مافات الباقلاني في القديم لم يكن ليفوت باحثا فاضلا من المعاصرين تعرض إلى الموازنة الأدبية بين أسلوب القرآن والحديث ، فأتى بالنصوص المتفقة في الموضوع من الجانبين ، ثم خلص إلى ماخلص إليه الباقلاني من النتيجة ، ذلكم هو العالم الأستاذ ، « مصطفى أحمد الزرقا » وزير العدل السوري الأسبق وأحد أساتذة الجامعة بدمشق ، حيث كتب بحثا معتدلا في مقالين بمجلة لواء الإسلام عددي شعبان ورمضان سنة ١٣٧٩ تحت عنوان « مقارنة بيانية بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن . ونستأذن القارئ أن نطيل بعض الشيء في اقتباس فقراته حيث ألم بالموضوع إماما يغبط عليه ، وقد كان من السهل علينا أن نستعين بأفكاره مضافة إلى مايتولد لدينا من الأفكار دون أن نسرف بعض الشيء في النقل عنه ، ثم نكتفي بالإشارة إليه كمرجع ، ولكن الاعتراف بالحق يدفعنا إلى أن نسجل للرجل فضله كاملا غير منقوص ، ثم إلى أن ننقل الرائع من فقراته حيث يقول :

« فالحديث النبوي جاء كله على أسلوب المعتاد للعرب في التخاطب — تنجلى فيه لغة المحادثة والتفهم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويوجب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض ، ولكنه يتميز من الكلام العربي المألوف

بأن فيه لغة منتقاة غير نائية ، وأن فيه أحكاما في التعبير ، وجمعا للمعاني بأوجز طريق وأقربه دون حشو مما استحق به التسمية بجوامع الكلم ، فهو كلام عربي من الطراز المعتاد المألوف ، ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة ، أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه ، والسامع شيئا له فيما يعرف من كلام العرب ، وأساليبهم يعالج الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ في عموم لاتشبهه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجويد ما يجعل له طابعا خاصا منقطع النظير .

« ثم قال الأستاذ بعد جولة موفقة في هذا المجال :

« فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ، ومن الحديث النبوي أحاديث في موضوع تلك الآيات نفسه ، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافي .

١ — فلنأخذ مثلا قول القرآن العظيم في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :
﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وللنظر مقابلة في المعنى نفسه قول النبي عليه الصلاة والسلام .

﴿ لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم ﴾ .

٢ — ولنأخذ مثلا في موضوع الإخاء في الدين قول القرآن العظيم في سورة الحجرات ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحموا ﴾ .

ولننظر مقابلة في نفس المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومعنى يسلمه أن يتركه لعدوه ، فلا يحميه ولا يمنعه منه .

٣ — ولنأخذ أيضا قول القرآن العظيم في موضوع الإخاء الإنساني العام ، والتألف والتفاضل بالتقوى والصلاح ، لا بالعرق والنسب ، ولا بالمال والنسب .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ولننظر في المعنى نفسه أقوال النبي عليه الصلاة والسلام التالية :

« أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أبابكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

« من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

« المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » .

٤ — ولنأخذ أيضا قول القرآن العظيم في ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات .

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

ولننظر في مقابلة قوله عليه السلام « إقامة حد بأرض خير لأهلها من مطر أربعين صباحا » .

٥ — ولنأخذ أيضا قول القرآن في وجوب أداء الأمانة والحكم بالعدل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

ولننظر في مقابلة أقوال النبي عليه السلام :

أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك .

« ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة ، فلم يعدل فيهم إلا كبه الله في النار .. » .

« لاتقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع » .

ومضى الأستاذ في بحثه المقارن إلى آخر الشوط فأمتع وأفاد . وكأنه تعمد أن يسد ثغرة واضحة بدت في دفاع الباقلاني السابق حين اقتصر على الاستشهاد بالحديث دون ما يتضمن الموضوع من كتاب الله ، وأذكر أن الأستاذ الباحث « عبد الرحيم فوده » قد تعرض إلى موازنة بارعة بين آية من كتاب الله هي قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا — والعاقبة للمتقين ﴾ وبين حديث نبوي هو قوله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »^(١) .

ثم أفاض في تحليل النصين إفاضة شافية مستوعبة ، حيث وازن بين الكلمات كأجزاء والآية والحديث كمجموع ، وانتهى إلى مثل ما انتهينا إليه من الحكم بالطابع الإلهي للقرآن ، وبالسمة النبوية للحديث الشريف . ومايسعنا أن ننقل فيكفى أن نشير .

هذا ولن يظن أحد أننا بهذه المقارنة الأدبية نحاول أن نغض قليلا من البيان المحمدي ، فالأدب النبوي أرفع أدب بشري تحدر عن لسان ناطق ، وله طابعه الإنساني الناطق بكل مايمس الإحساس البشري الراقى من مؤثرات ، كما أن للبيان القرآني طابعه الإلهي الذي ينطق بعظمة الله وسيطرته وقدرته وجبروته . وإن اختلاف الطابعين لدليل على أصالة الأسلوبين كل في بابه . وقد أستشهد الأستاذ مصطفى الزرقا بصدد اختلاف الشخصية في الأسلوبين بروائع زاهرة من القرآن والحديث ولعلنا أعذر حين أعود هنا إلى الاقتباس والاستشهاد عنه من مقاله الحصيف ، لأن مجال الموازنة بين أديين مختلفين مظنة الشطط لدى الكثيرين ، فما ظنك بمجال الموازنة بين

(١) لواء الاسلام رجب ١٣٧٩ .

بيان القرآن وبيان الحديث ؟ والإنسان ضعيف برأيه الخاص إذا انفرد به ، قوى كل القوة بغيره إذا وجد من مفكرى الكتاب من يؤكدون اتجاهه بدقة واستيعاب ، وفي مقدمتهم الأستاذ الزرقا إذ يقول :

« عندما تسمع القرآن تتجلى لك من خلال كلامه ذاتية تتكلم من جو علوى ، وقوة ، وسطوة ، وقدرة ، وحكمة ورحمة ، وهذه الذاتية القوية العظمى التى تتجلى من وراء أسلوب القرآن لاتضعف حتى فى المواطن التى تعبر فيها عن الرحمة ، وإن قوتها واحدة فى جميع سوره وآياته ، فهى ذاتية جبارة قوية قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ذات سلطان مطلق ، تتصورها مثلا من خلال الآيات الآتية :

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ . ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ . ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ﴾ .

« أما الحديث النبوى فإنك تشعر وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعترها الضعف والقوة ، ولكن قوتها من لون آخر ، ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة ، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى ، فكثيرا ما نشعر من أسلوب الحديث النبوى بشخصية تعتر بهذا الضعف الذاتى أمام الله إلى جانب اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق ، ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأماناء فانظر وتصور هذه الشخصية فى

لون قوتها من خلال قول الرسول عليه السلام حينما هددته قريش فنصحه عمه بترك الدعوة .

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وتصورها في شعورها بالضعف الذاتي من خلال الأدعية الماثورة عن النبي عليه السلام في مناجاة ربه بعدما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان .

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يَا أرحم الراحمين ، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني ، أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن ساخطا عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »^(١) .

هذه نماذج كاشفة توضح الفرق بين أسلوب وأسلوب . وهي في مجموعها تؤكد مافصلناه في فصل سابق تحت عنوان « القرآن أستاذ محمد » بمعنى أنها توضح السمات البارزة لبيان الأستاذ وأدب التلميذ .. وفي ذلك غناء ..



(١) لواء الإسلام ص ٣٥ عدد رمضان سنة ١٣٧٩ .

يتحدثون عن محمد الأديب

(أ) ثلاثة من القدماء

أجمع الكتاب فى العربية على أن بيان محمد الذى تأكدت نسبته إليه فى أعلى الدرجات من سلم البلاغة العالية ، لا يفوقه غير كتاب الله فى لغة الضاد . وقد أصبح هذا الإجماع من البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، وكان على الناقد من هؤلاء المجمعين على روعة البيان النبوى ، أن يملأوا الكتب ذات الصفحات فى تشريحه الأدبى وتحليله البيانى ، ولكنهم — مع إجماعهم التام على هذه القضية المهمة — يجمعون القول فلا يفصلون وكأن ماتضمنه الأثر النبوى من التشريع قد صرفهم عن تفهم أسرارها البيانية ، تفهما يقوم على الإسهاب الشارح والتفصيل الموضح . وتلك كبيرة حقا . فى دنيا الأدب العربى الذى نراه يسمح لأدبائه أن يفردوا عدة مؤلفات لتقدير أديب كالجاحظ أو شاعر كأبى نواس ، ثم لا يسمح أن ينهض أديب جهير ليخص الأدب النبوى بكتاب حفيل . إلا ما كان من الشريف الرضى وحده حين أفرد كتابا عن المجازات النبوية فى أدب محمد بن عبد الله وسلم به بعد حين .

هذا السهو غير المقصود ما كان من المنتظر أن يحدث . على أن مما يخفف وقعه قليلا على النفس أن كبار الأدباء فى العربية قديما وحديثا قد وفوا البيان المحمدى بعض حقه فى فصول متناثرة بين كتبهم الذائعة ، فتحدثوا عن روعة الأسلوب المحمدى بما يكشف كثيرا من خصائصه ، وقد اختاروا من الحكم النبوية لآلىء فريدة فى مجال الاستشهاد الأدبى حتى اختص باب منها بمحمد صلى الله عليه وآله لا يتعداه وهو باب جوامع الكلم . وهذا بعض الحق لا كله إذ لا يليق أن ينفرد أدب خطيب كالحجاج مثلا بكتب خاصة ، ثم يكون الحديث عن البيان النبوى نثارا بين الصفحات .

ومحاولة استقصاء ما قيل عن البيان النبوي في شتى الكتب العربية مما يعجز أقوى المطلعين صبرا ، وأعمقهم دراية ، وأوفرهم اطلاعا . فلا بد أن نختار من بين هؤلاء الدارسين في القديم والحديث نفرا لا يضيق بهم المجال في مثل هذه الدراسة المتواضعة ذات الحيز المحدود ، اكتفاء ببعض القول عن جميعه ، وحثا لعشاق الأدب النبوي أن يبعثوا الهمم إلى البحث عن غير هؤلاء ليقفوا على آرائهم الصائبة في البيان النبوي ، وقد عن لنا أن نختار من سالفى المتقدمين الجاحظ ، والشريف الرضى ، وابن الأثير ، ومن دارسى المعاصرين الرافعى ، والعقاد ، والزيات وهم جميعا من قادة الأدب ، وحماة الفكر الإسلامى ، وما منهم إلا ذو رأى الصائب والصوت الجهير ..

وطبيعى أن نبدأ بالجاحظ لتقدم عصره ، ودوى صيته فقد أطلق لقلمه العنان فى الحديث عن بلاغة الرسول ، ووصف بيانه بما نقله عنه الكاتبون جيلا بعد جيل ، إذ جاءت عباراته من التدفق والانصباب بحيث تدفع القارىء إلى متابعتها فى إذعان ، والجاحظ يتدفق فى البيان حيث يتحدث عن قضية صادقة يعتقدونها فى نفسه ، فهو يوسعها بسطا وتحليلا وتمثيلا بما يعبر عن اعتناق قوى للرأى ، وإخلاص عنيف للقول ، وهو مع هذا التدفق المتحدر لا يترك القارىء غريقا فى موج من البيان يتقاذفه عن شمال ويمين فيحدد المعانى تحديدا إذ يوقفك فى أثناء حديثه على خصائص البيان النبوي ، وطريقة الجدل المحمدى ، ومسامات الألفاظ والجمل فى الحديث الشريف وطيب موقعها فى النفوس ، ثم يشفع ذلك بأمثلة من الأدب المحمدى كان أول من اختارها — فيما أعتقد — من الأدباء ، ثم جاء بعده من اقتفاه .

يقول الجاحظ فى الجزء الثانى من البيان والتبيين :^(١)

« وأنا أذكر بعد هذا فنا آخر من كلامه ﷺ ، وهو الكلام الذى قل عدد

(١) ص ١٦ من البيان والتبيين ج ٣ .

حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف وكان كما قال الله تعالى قل يا محمد ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ .

فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التعيير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل ييز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطن ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ .

أرأيت هذا التحدى العاطفى المؤمن فى بيان الجاحظ هل أغفل أمرا ذا بال من أدب محمد .

إذا كنا نعرف من سماته الإيجاز ، فقد قال الجاحظ عنه هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، ييز الخطب الطوال بالكلام القصير ، وإذا كنا نعرف أن اللفظ النبوى سهل قريب المأخذ ، فقد قال الجاحظ عنه ، جل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف وعاب التشديق ، وجانب أصحاب التعيير ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، وإذا كنا نعرف عنه الصدق فى القول ، فقد عبر عن ذلك شيخ الأدباء حيث قال ، لا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، وإذا كنا

نعرف قوة تأثيره وعظيم نفاذه ، فذلك ما ألمح إليه الجاحظ حين قال ، « هذا الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وإذا كنا نعرف قوة منطقته وسداد حجته ، فقد عبر عن ذلك الكاتب حين قال : لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، وليس يلمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم » .

أما ما استشهد به شيخ الأدباء من بيان النبوة خطبة وحديثا فأكثر من أن يشار إليه ، إذ أنه كرر الاستشهاد فى مواضع متعددة من الأجزاء الثلاثة . وهو فى استشهاده نبيء عن ذوق وافتنان ، ومما استشهد به مما لم أشر إليه فيما سبق قول رسول الله ﷺ « يؤتى بالوالى يجلد فوق ما أمر الله به فيقول له الرب عبدى لم جلدت فوق ما أمرتك به فيقول ، ربى غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغى لغضبك أن يكون أشد من غضبى ؟ ويؤتى المقصر فيقول : عبدى لم قصرت عما أمرتك به ، فيقول ربى : رحمته ، فيقول ، أكان ينبغى لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتى ، قال : فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لا أعرفه إلا أنه صيرهما إلى نار^(١) » وهو حديث مصور ذو تأثير وعمق .

على أن الجاحظ كان أول من يدل الأدباء على معان طريفة سبق لها نبي الإسلام جميع المتكلمين إذ يقول :

« وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربى ، ولم يشاركه فيه أعجمى ، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد ، مما صار مستعملا ومثلا سائرا » .

« فمن ذلك قوله « ياخيلى الله اركبى » ومن ذلك قوله « مات حتف أنفه » ومن ذلك قوله « ولا ينتطح فيه عنزان » ومن ذلك قوله « ألا حمى الوطيسى » .

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٣٢ .

ومن ذلك قوله لأبي سفيان بن حرب « كل الصيد في جوف الفرا » ومن ذلك قوله « هدنة على دخن وجماعة على أقداء » ومن ذلك قوله « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ألا ترى أن الحارث بن خندان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب قال : أيها الناس : اتقوا الفتنة فإنها تقبل بشبهة وتدبر بيان ، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين ، فضرب بكلام رسول الله ﷺ المثل ^(١) .

ولم يقتصر الجاحظ على عرض الأنماط البليغة من أدب رسول الله بل تعرض إلى أكثر ما يدور حول بيانه من أقوال ، فسلط عليها مجهر بحثه ، وتبعها بالنقد معارضا أو مؤيدا ، فحين وصل إلى سماعه أن أحد شيوخ البصرة لعهدده ، يزعم أن الله عز وجل خلق نبيه ﷺ أميا لا يكتب ولا يحسب ، ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما يتباهى به العرب من قيافة الأثر وغيافة الطير والعلم بالأنواء ، والخيال والأنساب والأخبار حتى إذا واجه الناس بالقرآن كان ذلك أدل على أنه من الله عز وجل .. حين سمع الجاحظ ذلك معزوا إلى أحد شيوخ الأدب بالبصرة لم يشأ السكوت عليه بل أعلن خطأه الظاهر وأنه قال بمنتهى علمه فقط ، لأن الرسول في رأى الجاحظ لو كان غير أمي ، وكان كاتباً قارئاً حاسبا شاعرا ناسبا متفرسا قائفا ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعا من وجوب تصديقه ولزوم طاعته والانقياد لأمره ، ولكنه أراد « ألا يكون للمشاعر متعلق عما دعا إليه كيلا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف في المحنة فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطلق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل ناطق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٦ .

قائف ، وكانت آتته أوفر وأداته أكمل إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أجدر ،
وبين أن يضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له
فرق^(١) .

فكان الجاحظ يرى أن إدراك الرسول يتسع لكل شيء مما ذكره الشيخ
البصرى دون الشعر ، فلو شاء لكان أنسب وأقوف وأنطق ممن سواه ، ولكنه
صرف عن ذلك لا لتكون أميته دليلا على رسالته الإلهية بل لاهتمامه بما هو
أولى وأجدر ، أما الشعر فقد نفى عنه كيلا يتوهم أحد أن ماجاء به من القرآن
يشبه بعض ألوان الشعر ، وهذا ما عبر عنه الجاحظ حين قال : « حتى لا يكون
دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق » إذ أن تحير السامعين بين بلاغة الشعر
وسحر القرآن مما يجيز قيام هذا الحجاب الرقيق دون المعرفة الحقة برسالة
محمد لدى بعض الناس .

وهذا كلام جيد النظر نوافق عليه ، وإن كنا نخالف ما سبق أن قاله تعقيبا
على قول الله ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ وقوله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾
إذ قال صاحب البيان والتبيين : فمن الخصال التي ذمهم بها — الشعراء —
تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعات ،
ومناسبة أهل التشديق ، ومن كان كذلك كان أشد افتقارا إلى السامع إليه لشغفه
أن يذكر في البلغاء وصيابهته باللحاق بالشعراء ، ومن كان كذلك غلبت عليه
المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية وحب المحاربة ، ومن
سخف هذا السخف وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة كانت حالته داعية إلى قول
الزور ، والفخر بالكذب وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط في مديح من
أعطاه وذم من منعه^(٢) « فكأن الجاحظ يريد هنا صراحة أن يقول : لو علم

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٣٢ .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٢٩ .

الرسول الشعر لكان ممن يذهبون إلى المباهاة والاحتياج إلى السامعين وهو ماتنزه عنه الرسول .

وقد نقلنا قوله الأخير في باب (موقف الرسول من الشعر والشعراء) من هذه الرسالة وقلنا تعليقا عليه ، وكلام الجاحظ لا يحمل على جميع الشعراء بل على من لا يلتزمون الصدق إذ يهيمون في كل واد ، على أنه لا يخص الشعراء وحدهم ، فخطباء الجاهلية مثلا كانوا يتفاخرون بلسان القبائل حبا للغلبة ، وشغفا بالتفاخر والمباهاة ، فصاروا كالشعراء أشد افتقارا من السامع إلى السامع إليهم لشغفهم بادعاء الفصاحة وامتلاك الكلام . وإذن فليس ذم من ذموا من الشعراء لحاجتهم إلى الإعجاب والتفاف السامعين . بل لخروجهم عن جادة القول السديد ..

ومهما كان من اختلاف قولي الجاحظ في تعليق ابتعاد الرسول عن الشعر ، فقد أدلى الكاتب الكبير بدلوه في الدلاء مصورا ماجاش بخاطره في وقتين مختلفين ، وهو ما يحدث كثيرا للكاتبين حين يعالجون مسألة واحدة في موضوعين متغايرين ، إذ أن أوجه الرأي تتباعد وتتقارب دون أن يكون التباعد مصدر إنكار يؤخذ عليه ، ودون أن يكون التقارب مدعاة التأييد المحتوم في كل حال ..

وكانت حساسية الجاحظ تدفعه إلى تنفيذ كل شبهة تحوم حول البيان النبوي ، وإن كانت من التخاذل والضعف بحيث لا تحتاج إلى تنفيذ ، فقد أتاه أن الأصمعي وابن الأعرابي ، روي عن رجالهما أن رسول الله ﷺ قال « إنا معشر الأنبياء بكاء » وربما أوهم هذا القول أن البكاء ، يكون من جهة العجز ونقصان الآلة وقلة الخواطر ، وسوء الاهتداء إلى جياذ المعاني ، ومن لديه أقل إمام بسيرة الرسول لا يمكن أن يسبق إليه هذا الوهم وهو يعلم ميراثه الحفيل في دنيا البلاغة والبيان ، ولكن الجاحظ يخشى أن يمد الوهم حباله إلى بعض العقول

من هذه الناحية فيتبعها شرحا وإيضاحا ثم يستدل بموسى عليه السلام حين سأل ربه فقال : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى ﴾ ويقول تعقيبا على ذلك ^(١) .

فلو كانت تلك القلة (فى الكلام) من عجز لكان النبى ﷺ أحق بمسألة إطلاق تلك العقدة من موسى لأن العرب أشد افتخارا ببيانها وطول ألسنتها ، وتصريف كلامها وشدة اقتدارها ، وعلى حسب ذلك كان زرايتها على كل من قصر عن ذلك التمام ، ونقص من ذلك الكمال ، وقد شاهدوا النبى ﷺ وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، ولم يطل التماسا للطول ، ولا رغبة فى القدرة على الكثير ، ولكن المعانى إذا كثرت ، والوجوه إذا افتتنت كثر عدد اللفظ وإن حذف فضوله بغاية الحذف ، ولم يكن الله ليعطى موسى لتمام إبلاغه شيئا لا يعطيه محمدا والذين بعث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان واللسن ، وإنما قلنا هذا لنحسم جميع وجوه الشعب لا أن أحدا من أعدائه شاهد هناك طرفا من العجز ، ولو كان ذلك مرثيا ومسموعا لا حتجوا به الملاء ، ولتناجوا به فى الخلا ولتكلم به خطيبهم ولقال فيه عرف الناس كثرة خطبائهم وتسرع شعرائهم هذا على أننا لاندرى أقال ذلك رسول الله ﷺ أم لم يقله لأن مثل هذه الأخبار يحتاج فيها إلى الخبر المكشوف والحديث المعروف ولكننا بفضل الثقة وظهور الحجة نجيب بمثل هذا وشبهه ^(٢) . «

هذا بعض ما تحدث به أديب العربية العظيم « أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ » عن محمد الأديب ، وهو حديث المعجب الطروب الذى أسكرته حلاوة البيان النبوى وهزته بلاغة الحديث المحمدى فجرى قلمه بما يعبر عن إكباره الزائد وإجلاله الكبير .

أما الشريف الرضى فكان المؤلف الذى أفرد بيان محمد ﷺ بكتاب خاص

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٢٨ .

وقفه على تتبع ألوان المجاز في كلامه ، فجمع ثلثمائة وستين حديثا نبويا ليشرح مافيه من ألوان المجاز ، ومع ميله إلى الإيجاز في شرحه فقد دل على أسرار ذكية في دنيا البيان . وقد سبق أن نحا هذا المنحى في مؤلف عقده عن مجاز القرآن اسماء تلخيص البيان عن مجازات القرآن ، مما ينبىء عن ولوع الشريف بتتبع هذا الضرب من الأسلوب . ومايفعل ذلك إلا أديب ذواق تملك مشاعره أفانين البراعة في التعبير ، ويرى في إعجاز القرآن وإبداع محمد أسمى مايحب ، وأجل مايريد . ومع أن الشريف شاعر فحل يحتل مكان الصدارة بين معاصريه حتى غلبت شهرته الشعرية عليه ، فكادت تعصف بآثاره الأخرى لدى الكثيرين ، فإن آثاره القرية في عالم التأليف تدعو إلى المزيد من تقديره ، والفائق من احترامه ، وقد قال الدكتور زكى مبارك في مؤلفه القيم عنه :

« ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أمثال العلماء ، ولكن عبقرته الشعرية جنت عليه فخف ميزانه في الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه ، ومنهم أخوه الذى أتى بالأعاجيب فى الفقه والتوحيد ، ولو أن الرضى وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين ، ولكنه شغل الناس بشعره الفائق فظنوه وسطا بين الباحثين وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق^(١) .

والحق أن الذى يقرأ حديث المؤرخين عن مؤلفات الشريف يروعه أن هذا الشاعر العملاق كان يقضى كثيرا من أوقاته فى الدرس العلمى ، لأن الذى يؤلف كتاب حقائق التنزيل ودقائق التأويل فى حجم ضخم يبلغ تفسير أبى جعفر الطبرى أو أكثر^(٢) يظن به التفرغ للبحوث العلمية وحدها ، فإذا كان مع هذه السعة المفرطة فى الدراسة العلمية والتأليف الشامل من أكبر شعراء عصره فهو عجيبة العجائب حقا فى مضممار المواهب والملكات .

(١) عبقرية الشريف الرضى ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) المجازات النبوية صفحة ٦ .

أما كتاب المجازات النبوية فقد قال عنه ناشره الأستاذ الكبير « محمود مصطفى » رحمه الله :

« لم يكتب (الشريف) بإيراد هذه الآثار سردا لا تعقيب معه بل إنه جلي محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها ، ولقد جاء هذا الشرح فائدة كبرى للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال منتقلا من تحقيق لغوى ، إلى تطبيق على علم البلاغة إلى سياق الشاهد من كلام العرب ، وأما ما يجنيه القارىء من الحدق والتوسع فى الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة فى نظر البليغ فذلك ما يتجلى فى هذا الشرح ، وأجدى ما يجديه المؤلف على الناظر فى كتابه فإنه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها وتفضيل الفاضل منها ، والحكم على راجحها ومرجوحها ويخرج من كل ذلك بملكه صناع هى عدة الأديب فى ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه ^(١) .

أما الشريف الرضى نفسه فقد أوجز خطته فى التأليف حين قال فى مقدمة المجازات النبوية ^(٢) :

« وعملت بتوفيق الله على تتبع ما فى كلامه صلوات الله عليه وعلى آله من ذلك المجاز والإشارة منه إلى مواضع النكت ، ومواضع الغرض بالاعتبارات الوجيزة — والإيماءات الخفيفة على طريقتى فى الكتاب (مجازات القرآن) لئلا يطول الكتاب فيجفوا على الناظر ، ويشق على الناقل ، فإن القلوب فى هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة ، لأنه لم يبق من الفضل إلا الدماء . ومن الفضلاء إلا الأسماء ، والله الحمد على السراء والضراء ، والبؤس والرخاء ولست شاكا فى أن ما يفوتنى من الجنس الذى أقصده أكثر من الحاصل لى والواقع إلى ، ولكنى أقصر على ماتناله فى هذا الوقت يدي ، ويقرب من تصفحى

(١) المجازات النبوية ص ٥ .

(٢) المجازات النبوية ص ٢٠ .

وتأملى ، وإذا ورد بمشيئة الله من هذه الآثار ما فيه موضع مجاز قد تقدم الكلام على نظيره له ، أو ما يقوم مقامه اقتضرت على القول الأول طلبا للاقتصاد .. الخ » .

ونرى مما نقلناه من كلام المؤلف أنه كتب كتابه في حالة نفسية منقبضة إذ راح ينعى على القارئین تقاصر الهمم والعزوف عن البحث ، فلذلك مال في حديثه عن المجازات النبوية إلى الإيجاز واللمح دون الأسباب والاستطراد ، واقتصر على ما وقع تحت يده دون إجهاد في الطلب قائلًا أن ما يفوته من هذا الجنس أكثر مما يقع له ، وهذه حالة نفسيه طارئة لا محالة لأن كتابه حقائق التنزيل في حجم كبير يماثل تفسير الطبرى ، ولن يفعل ذلك مؤلف متضايق يعرف عن القارئین تقاصر الهمم والرغبة عن المطالعة ، وتسجيل هذه الظاهرة مما يفيدنا في تعليل ما نراه في بعض الأحيان من اقتضاب الشرح اقتضابا يبعث على التساؤل ، ومن الاقتصار على موضع المجاز من الحديث دون تسطيره بأكمله مع أن النص الكامل أدل على البلاغة وأهدى إلى توضيح المعانى على وجهها الصحيح .

ولعل الشريف كان معذورا حين يبتز الأحاديث مقتصرًا على موضع الشاهد البلاغى ، لأن النظرة العلمية في عصره وفيما يليه من عصور كثيرة للأساليب البيانية كانت تميل إلى التقسيم الجزئى من تشبيه أو استعارة أو كناية ، غافلة عن التماسك التام بين النص الطويل من قصيدة أو خطبة أو أقصوصة ، وهو مما يعبر عنه في الاصطلاح الحديث بالوحدة الفنية ، ونقدم شاهدا على ذلك من صنع الشريف .

« قال المؤلف ومن ذلك (المجاز) قوله عليه الصلاة والسلام في ذكر الخوارج « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » الحديث » بطوله إلى قوله قد سبق الفرث والدم « وفي هذا القول مجاز لأنه عليه السلام شبه دخولهم فى الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته أو يعيقوا بطينته بالسهم الذى أصاب الرمية وهى الطريدة المرمية ثم خرج مسرعا من جسمها

ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها وذلك من صفات السهم الصائب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوى النزعة»^(١).

فهذا التعليق البديع قد اتضح للشريف لأنه قرأ الحديث جميعه فاستطاع أن يوضح الصورة البلاغية تمام التوضيح . ولكن ماذا يصنع قارئ المجازات الذي لا يرى أمامه غير ألفاظ محدودة قد بترت من نص واحد ، ويريد أن يتابع المؤلف متابعة الناقد الذي يرجع إلى النص متأملاً قبل أن يقرأ تعليق الشريف عليه ، لا شك أنه يعاني رهقا في الحكم إذا اقتصر على ما استدل به الشريف وحده ، ولعل الأستاذ محمود مصطفى قد انتبه إلى ذلك حين ألزم نفسه أن يذكر في هوامش الكتاب بعض مايقع عليه من النصوص التامة كما جاءت في الصحاح مقدرا قيمتها في جلاء المرمى البلاغى وهو مافات الشريف فلم يعن به ، وتمام الحديث السابق كما نقله الأستاذ محمود بهامش صحيفة « ٣٥ » .

« عن أبى سلمة بن أى سعيد قال بينما النبى ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فقال ! اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك . من يعدل إذا لم أعدل ، قال عمر بن الخطاب ، دعنى أضرب عنقه قال دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر فى قذوة فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر فى نضيه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم يخرجون على حين فرقة من الناس » .

والشريف مع اقتضاب الأحاديث لا يتحيف المعانى البلاغية فى شيء فهو يذكر للمجاز أكثر من تأويل إذا احتمل السياق ذلك ، ويدل على براعة خارقة فى استشفاف الأسرار البيانية استشفافا لا يواتى غير من جبل على ذوقه وفطرته ونفاذه ، وتزداد قدرة الشريف روعة ونبوغا حين يعمد إلى الحديث الذائع

(١) المجازات ص ٣٥ .

المشتهر فيذكر ماشتهر في تأويله ثم يردف المشتبه بمعنى آخر لم يشتهر كاشتهار السابق مما يدل على أنه في هذا المجال لا يعمد إلى الاقتصار بل يتلمس الإحاطة والاستيعاب ، إذ كان موضع التأويل بلاغيا يتصل بصميم الفكرة التي ألف من أجلها كتاب المجازات ، وهذا مثال لما نقول قال الشريف ص ٦١ من المجازات :

« ومن ذلك قوله إياكم وخضراء الدمن » ولهذا القول تعلق بباب المجاز ، وللعلماء في تأويله قولان أحدهما أنه عليه السلام نهى عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن ، وهي في المنبت السوء أو في بيت السؤ ، فوجه المجاز من هذا القول أنه عليه السلام شبه المرأة الحسناء بالروضة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها . والدمنة هي الأبعاد المجتمعة تركيبها السوافي ويعلوها الهابي ، فإذا أصابها المطر أنبت نباتا خضراء يروق بمنظره ويسوء مخبره ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن نكاح المرأة إذا كانت مغموضة في نفسها أو مطعونا عليها في نسبها لأن أعرق السوء تنزع إلى ولدها وتضرب في نسلها قال الشاعر :

وأدركنه خلالاته فخذلنه ألا إن عرق السوء لا بد مدرك

والقول الآخر أن يكون عليه الصلاة والسلام إنما نهى في الحقيقة عن تعارض النفاق وتغابر الأخلاق وأن يتلقى الرجل أخاه بالظاهر الجميل ، وينطوى على الباطن الدميم أو يخدعه بحلاوة اللسان ومن خلفها مرارة الجنان ، وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر في قوله :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كماهيا

كأنه أراد وإن لقيناكم بظاهر الطلاقة والبشر ، فإننا نضمركم على باطن الغش والغمر ومثل هذا قول الآخر :

وفينا وإن قيل اصطلاحنا تضاعف كما طر أوبار الجراب على النشر

وقال أهل العربية النشر أن يثبت دبر البعير وتحتة داء العر . وهو الجرب فيرى كأن ظاهره سليم وباطنه سقيم .

فالشريف قد أتى هنا بمعنيين أحدهما ذائع وهو النهي عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن ، والآخر طريف جديد وهو النهي عن مظاهر النفاق بأن يلقي الرجل أخاه بظاهر جميل وباطن ذميم ، وأنا أميل إلى ترجيح التأويل الثاني دون الأول لأن النهي عن نكاح المرأة ذات المنبت الضعيف — كما أرى شخصيا — يدعو إلى عدم إنقاذها من الوحشة التي شاء لها القدر أن تنبت فيها دون اختيار إرادى لها، وإذا صار النهي أمرا يلتزمه كل مسلم ، فليت شعري ما يكون مصير هؤلاء ؟ وليس لهن ذنب فى رد المنبت ، أليس الأول أن نبذل بعض المحاولات الفدائية فى إصلاحهن ، ومحاولة الارتفاع بهن فإذا أخفقت المحاولة كنا قد بذلنا الجهد الواجب على ذوى الشمم من أبناء الإسلام فعذرنا نفوسنا أمام ثورات الضمير . أقول ذلك وأنا أعلم أن اعتراضات كثيرة ستوجه إلى ما أرححه يدفع إليها الحرص على وجوب الانتقاء والاختيار ويدعمها الاستشهاد بأمثال قول الرسول ، « تخيروا النطفكم » . ولكن المشكلة إنسانية قبل كل شيء . وترجيح المعنى الثاني الذى ذكره الشريف وهو النهي عن النفاق والرياء مما تميل إليه النفس نظرا لهذا الاعتبار .

وقد يأتى الشريف بأثر يتحمل معنيين فى رأيه ، فينص عليهما كما فهم ، ولكن النظرة الفاحصة تدل على أن أحد المعنيين بعيد لا يحتمل ، وكان الأولى به أن يتبع طريقة الترجيح والموازنة بين التأويلات ليلقى الضوء الكاشف على القول الراجح ، وليظهر مكان الضعف فى الرأى المرجح ولكنه يتناسى ذلك أو ينساه ، ونقدم مثلا لذلك من كتاب المجازات .

قال الشريف ص ٥١ :

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في وصيته لأمرء الجيش الذى بعثه إلى مؤتة (ستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف) وهذه من الاستعارات العجيبة والمجازات اللطيفة ، وذلك أن من كلام العرب أن يقول القائل منهم إذا أراد أن يصف إنسانا بشدة الارتكاس فى وعيه والارتكاض فى عنان بغيه قد فرخ الشيطان فى رأسه أو عشش الشيطان فى قلبه ، فذهب عليه السلام إلى ذلك الوضع وبنى على ذلك الأصل ، فقال للشيطان فى رءوسهم مفاحص ، والمفحص فى الأصل الموضع الذى تفحصه القطة لتجثم عليه أو لتبيض فيه ، وإنما قيل له مفحص لأنها لا تجثم فيه إلا بعد أن تفحص التراب عنه توطئة لمجثمها وتمهيدا لجسمها ، ويقال مابقى لفلان مفحص قطة إذا لم يبق له ريع يؤديه ولا جرىء « يكون فيه ، فيحتمل قوله عليه السلام للشيطان فى رءوسهم مفاحص أحد معنيين أحدهما أن يكون أراد أن الشيطان قد بدأ يختدعهم ويغرهم ويستهوئهم ويضلهم ، ولم يبلغ من ذلك غايته ولا استوعب خديعته كالقطة التى بدأت باتخاذ المفحص لتبيض به وترتب فراخها فيه ، والمعنى الآخر أن يكون أراد أن الشيطان قد استوطن رءوسهم فجعلها له مقبلا ومبركا ومعلما ومتمحكا كما تتخذ القطة مفحصا لتأوى إليه وتسجن فيه » .

والمعنى الثانى هو المراد لا غير ، إذ لو صح المعنى الأول بأن يكون الشيطان قد بدأ يختدعهم ويغرهم ويستهوئهم ويضلهم دون أن يبلغ من ذلك غايته أو يستوعب خديعته كالقطة التى بدأت باتخاذ المفحص لتبيض فيه وترتب فراخها فيه دون أن يتم ذلك .. لو صح ذلك ماجاز أن يقول الرسول عنهم فاقلعوها بالسيوف كناية عن القتل ، إذ القتل لا يكون بمجرد ابتداء خديعة الشيطان دون أن يبلغ بالمرء ما يريد . فتلك وساوس مبدئية لا تكون عقوبتها الاستئصال ، إنما يكون قلع المفاحص بالسيوف حقا لمن استوطن الشيطان رأسه فجعلها مقبلا لا يبرحه . وإذ ذاك يكون الجزاء الصارم من جنس العمل الدنىء ..

أما مواطن الإبداع فى المعجازات فأكثر من أن تحدد ، فقد كشف الشريف الحاذق البصير ، وافتن افتنانا بديعا فى أكثر مآتى به ، وله من التخريجات العويصة والتأويلات العميقة مايدل على ذكاء متوقد وذهن لمارح ، وإذا شئنا الاستشهاد على ذلك فسنسرد أكثر صفحات الكتاب ، وذلك مالا يستطيع . ولقد أحسن الأستاذ محمود مصطفى تقديره حين قال فى مقدمته المانعة ص ٤ .

« وقد استطاع رضى الله عنه بما وهب من واسع العلم ووفير الفضل وحسن التتبع لكلام رسول الله أن يجمع من ذلك ثلثمائة وستين حديثا ، وقد كنا قبل ذبوع هذا الكتاب ، لا يكاد الأديب مهما بلغ من سعة الاطلاع يجمع من ذلك عشرة أو دونها ، ألسنت تراهم فى مقام الاحتجاج لفضل رسول الله فى البلاغة ، وتصريفه لأعنة الفصاحة لا يذكرون إلا قوله « إياكم وخضراء الدمن » وقوله « هدنة على دخن » وقوله « الآن حمى الوطيس » وقوله « إن من البيان لسحرا » إلى قليل مما اقتصرت عليه الكتب المتداولة بيننا ، فأما هذه الكثرة المستفيضة فإننا لم نعهدا فى غير هذا الكتاب ، ولا لغير هذا العالم الجليل الذى رأى من الوفاء لجده أن يذيع فضله على هذا النحو الذى نراه فى كتابه .

وهذا تقدير صائب للكتاب نخطه براعة باحث كبير بذل جهدا شاقا فى تصحيحه وتحقيقه ونشره حتى تتداوله الأيدى ، جميل الطبع ، بارع التحقيق .

ولنترك الشريف إلى ابن الأثير ، فنذكر أنه اهتم بأحاديث الرسول ﷺ فى كتابه المثل السائر اهتماما ينبىء عن تقديره وإكباره بحيث لا يكاد فصل من فصوله يخلو من استشهاد نبوى يقرن بالاستشهاد بكتاب الله وقد دل فى اختياره هذا على سعة التتبع ، وسلامة الطبع ، وحسن الاهتداء إلى المراد من المعانى الدقيقة فى أحاديث محمد بن عبد الله ..

كما أنه أحسن تخريج طائفة من الأحاديث المحمدية التي تحتل أكثر من معنى واحد مثل قول رسول الله « إذا لم تستح فاصنع ما شئت »^(١) وقوله « ذلك رجل لا يتوسد القرآن »^(٢) وقوله « أطولكن يدا أسرعكن لحوقا »^(٣) وقوله « من جعل قاضيا في الدعاء على بعض المشركين »^(٤) وقوله « اللهم اقطع أثره »^(٥) « من جعل قاضيا فقد ذبح نفسه بغير سكين »^(٦) « إلى مائحا هذا النحو من المقال كما أفاض في الاستشهاد بأحاديث الرسول في أبواب الإيجاز والتشبيه والكناية والسجع والغريب ، وخص بابا بجوامع الكلم النبوية أشار فيه إلى روائع مختارة من قلائد محمد ، وقد أدهشني أن يقول ص ٤٩ أنه أول من نبه عليها ، وهي مشتهرة ذائعة في كتب السابقين من أمثال الجاحظ ، وأبي هلال ، والشريف . وكل ذلك لا يجعل ابن الأثير ، صاحب مزية كبرى في الحديث عن بيان محمد ، فأكثر متحدثي الأدب والنقد في الكتب القديمة يفعلون ما يفعل ، إنما الذي يوجب حمده الخاص بينهم هو اهتمامه الزائد بقضية الاقتباس من البيان النبوي ، فقد دعا إلى ذلك في إلحاح متكرر ، وضرب عشرات الأمثلة عليه من رسائله وإنشائه . وتلك التي توجب أن نقف لديها بعض الوقت دارسين .

نحن نعلم الآن أن الكتابة الأدبية تعبير لا اقتباس ، فإن الكاتب الحق هو الذي يعبر عن مشاعره بأسلوبه الخاص دون نظر إلى قول سابق إلا ماندر من الاستشهاد بآية أو حديث أو حكمة . وإن محاولة الاقتباس من السابقين والمحاكاة للسالفين تضائل كثيرا من الشخصية الأدبية للكاتب البليغ إذا كثرت كثرة توجب النظر . ولكن مانعلمه الآن قد كان قريبا أمرا غير مسلم به من

(١) المثل الثائر ج ١ ص ٣٤ .

(٢) ص ٣٤ .

(٣) هذه رواية المثل الثائر ورويات الصحاح هكذا « أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا » — التاج ج ٣

ص ٤٠١ .

(٤) ص ٣٧ .

(٥) ص ٤٦ .

(٦) ص ٤٦ .

الكثيرين ، فمدرسة « عبد الله فكرى » التى تجمع أمثال « حفى ناصف ،
ومحمد المويلحى ، وتوفيق البكرى ، وإبراهيم اليازجى » من أساتذة النثر
الأدبى فى مطلع عصر النهضة كانت تباهى بالاقتباس الكثير وتراه أدل على
الاطلاع والثقافة ، وقد ألحف فى ذلك السيد توفيق البكرى إلحافا جعل جل
ماكتبه فى صهاريج اللؤلؤ يكاد يطير إلى أصوله الأولى بين آثار الفطاحل من أئمة
العصور الزاهرة ، والسيد لا ينكر ذلك بل يباهى به فى مقدمة الصهاريج محتفلا
فاخرا ، فإذا كانت هذه نظرة فريق من أدبائنا فى مفتح هذا القرن إلى الاقتباس ،
فإن نظرات السابقين من أمثال ابن الأثير إلى ضرورة الاقتباس الأدبى من الآثار
السالفة ، لا تعتبر غريبة عجيبة ، وبخاصة إذا كان هذا الاقتباس الجيد من القرآن
والحديث فإنه الشرف الذى لا يطاول والمجد الذى لا ينال ، ولكى ننصف ابن
الأثير نعلن أنه احتاط فى الأمر فلم يدع إلى أن تكون الكتابة مجرد اقتباس ، بل
قال فى يقظة داعية :

« ولا أريد بهذه الطريقة أن يكون الكاتب مرتبطا فى كتابته بما يستخرجه
من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والشعر ، بحيث أنه لا ينشئ كتابا إلا من
ذلك بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية ،
والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دوائنه ، وقلبه
ظهرا لبطن عرف حيثئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ،
واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية ^(١) .

وقد فطن ابن الأثير إلى اعتراض هام يتعلق برأيه بالاقتباس الأدبى من الحديث
النبوى فارقا بينه وبين الاقتباس من القرآن ، إذ أن الذكر الحكيم قد حفظ جميعه
فكل مقتبس منه معلوم ملحوظ ، أما الحديث المحمدى فإن الأدباء يجهلون منه
أكثر مما يعلمون فربما كان فى الاقتباس من بعضه خفاء لا يدرك ، وقد أجاب
عن ذلك بأن كتاب الشهاب فى الحديث مختصر مفيد فإذا أضيف إليه ما فى

(١) المثل الثائر ج ١ ص ٧٨ .

الصحيح من مجموعات البخارى ومسلم ، ومالك ، والترمذى ، والنسائى ، فقد وجد الكاتب زادا لا ينفد ، ولا يجهل ، ثم شرع ابن الأثير يتحدث عن مقدرته على اقتباس الأحاديث وكيف أنه تحدى ببعض آثار نبوية فأحسن الاقتباس منها وجاء غرة في رسائله وكتبه ذاكرا أن متحديه قد حسده على براعته وظهر أثر ذلك في صفحات وجهه وفتات لسانه ، وقد أسهب الكاتب في ذلك إسهابا طويلا ، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم ، ثم أخذ يضرب الأمثلة على جودة اقتباسه من الحديث النبوى فأفرط وأطال حتى ملأ الصفحات ذوات العدد ، ونحن نختار نماذج مقتبساته كما رواها — قال ابن الأثير :

١ — فمن ذلك ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو أعاد الله أيامه من الغير ، وبين بخطر مجده نقص كل خطر ، وجعل ذكره زادا لكل ركب ، وأنسا لكل سمر ، ومنحه من فضله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر .

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف الجنة فنقلته إلى الدعاء^(١)

٢ — ومن ذلك ما ذكرته فى النصرة على العدو فى موطن القتال وهو « أخذنا نسبة رسول الله فى النصر الذى نرجوه ونبذنا فى وجه العدو كفا من التراب ، وقلنا : شامت الوجوه ، فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا ، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا .

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين ، وما فعله رسول الله ﷺ فى أخذ قبضة من التراب وإلقائها فى وجوه الكفار وقوله « شامت الوجوه » ، والمعنى الآخر المأخوذ من حديث غزوة بدر ، وذلك أن رجلا من المسلمين لاقى رجلا من الكفار وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتا قبل أن يصل إليه وسمع الرجل المسلم صوتا من فوقه وهو يقول « أقدم حيزوم » فجاء

(١) المثل الثائر ج ١ ص ١٣٠ .

إلى النبي ﷺ وأخبره فقال « ذلك مدد من السماء الثالثة ^(١) » .

٣ — ومن ذلك ما ذكرته في ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت ومن صفاتها أنها مدرة مستوية الطينة مجموع لها بين حر مكة ولأواء المدينة ، إلا أنها لم يأمن حرهما في الحظفة ، ولا نقلت حماها إلى الجحفة ، وفي هذه الكلمات ، القصار آية من القرآن الكريم ، وخبران من الأخبار النبوية ، فالآية من سورة العنكبوت ، وهي قوله تعالى ﴿ أو لم يروا أن جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾ وهذا موضع يختص بالأخبار لا بالآيات غير أن الآية جاءت تبعا ، وأما الخبران فالأول منهما قول النبي ﷺ « ومن صبر على حر مكة ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة ، وأما الثاني فقوله ﷺ في دعائه للمدينة « اللهم حببها إلينا كما حببت إلينا مكة وانقل حماها إلى الجحفة » فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخبرين سواء بسواء ، وهنا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على في الاعتراف به اثنان ^(٢) . ثم استطرد الكاتب ينقل من إنشائه نماذج كثيرة لما اقتبس من أدب الرسول ، وهو بذلك أول من بسط قضية الاقتباس من الأدب النبوي بسطا لا مزيد عليه ، وأوسعها شرحا وتعليلا ، وردا وتمثيلا ، فاستحق بذلك أن نختاره من بين من تحدثوا بإفاضة عن بيان الرسول . ولكنه كان في حاجة ماسة إلى أن يتخلص من ادعائه العريض ولو في تعليقاته على الاقتباسات النبوية على الأقل فلا يستمنا دائما بمثل قوله ، وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على في الاعتراف به اثنان . وغيره مما ينحو منحاه الادعائى ، إذ أن مجال التعليق على الاقتباس النبوي لا يستدعى هذا التتايه الزائد والغرور العريض ، وحسبه أن ملأ كتابه في الأبواب الأخرى بما يدل على أنه كان مريضا بعشق الذات — كما يقول العلم الحديث — إلى حد سعمته النفوس حتى أجاز لنفسه أن يقول في غطرسة مضحكة .

(١) المثل الثائر ج ١ ص ١٣١ .

(٢) المثل الثائر ج ١ ص ١٣٣ .

« ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، إذ لم يظفر غيرى بأحجارها فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا جل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية وجل الأبيات الشعرية ، وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق إلى تعليمها ، فمن وقف على ما ذكرته علم أنى لم آت شيئا فريا ، وأن الله قد جعل تحت خواطرى من الأفكار سرىا ، وهذه الطريق يجهلها كثيرا من متعاطى هذه الصناعة ، والذي يعلمها منهم يرضى بالحواشى والأطراف ، ويقنع من لآئها بمعرفة ما فى الأصداف ، ولو استخرج منها ما استخرجت ، واستنتج ما استنتجت لهام بها فى كل واد ، وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد . »

(١)

لو يسمعون كما سمعت حديثها خروا لعزة ركعاً وسجوداً

وكان على ابن الأثير أن يستدل بمقتبسات غيره من الأدب النبوى كما استدل بمقتبسات نفسه ، ولكنه يغفل ذلك إغفالا ليتسنى له أن يقول : « وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان . »

مع أن كبار الناثرين سواه كالجاحظ ، وابن المقفع ، وأبى حيان ، والخوارزمى ، والهمداني قد اقتبسوا جميعا من أدب الرسول ، بل إن الشعراء أيضا قد حازوا هذا الشرف ، وكنت أقرأ قريبا كتاب ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى فرأيت يذكّر نصوصا كثيرة نثرية وشعرية ، ويشير إلى مصدرها من الأدب النبوى ، ومن ذلك فى باب الاقتباس الشعرى قول عمر بن أبى ربيعة :

خرجت غداة النحر أعترض الدمى فلم أر أحلى منك فى العين والقلب
فو الله ما أدرى أحسنا رزقته أم الحب يعمى مثل ما قيل فى الحب
قال أبو هلال فإنه مأخوذ من قول رسول الله ﷺ « حبك الشىء يعمى

(١) المثل الناثر ج ١ ص ١٣٣ .

ويصم (١).

وقال الأشعر الجعفي في وصف الخيل :

ولقد علمت على توقي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى :

قال أبو هلال فقد قاله في معنى قول رسول الله عن الخيل « ظهورها حرز » (٢)

وقال الشاعر :

وأغيبت الزيادة لا ملالا ولكن من محاذرة الملال (٣)

قال أبو هلال : وهذا من قول النبي ﷺ « زر غيا تزد حباً »

وقال المرار الفعفي :

نقطع بالنزول الأرض عنا وبعد الأرض يقطعه النزول

فقال أبو هلال تعليقا عليه : وهذا مأخوذ من قول رسول الله ﷺ « ألا إن هذا

الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (٤)

وغير ذلك كثير لدى أبي هلال .

حسب ابن الأثير أن أجاد عرض قضية الاقتباس من الأدب النبوي فبسط

مضمونها ، وفند شبهها واستدل عليها ولو من إنشائه وحده . ولهذا اخترناه .

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) ديوان المعاني ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) ديوان المعاني ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) ديوان المعاني ج ١ ص ١٢٤ .

يتحدثون عن محمد الأديب ثلاثة من المعاصرين

ظل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يحمل راية القرآن في الجبهة الإسلامية مدافعا عن دينه ولغته وأدب عربيته طيلة حياته الأدبية ، وكان قلمه مرهوبا مهيبا من الذين يلحدون في آيات الله ، ومعجزات رسوله ، كما كان حبيبا قريبا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فأولئك الذين هداهم الله ، ولقد ظفرت السيرة المحمدية في هذا العصر بمؤلفات مجيدة لأفذاذ أمثال من رجال الأدب والتاريخ ، ولكن الذين كتبوا عن البيان النبوي قليلون قليلون ، ولا أدري كيف يكتب مؤرخو السيرة النبوية في عصرنا مجلدات مطيلة في حياة صاحب الدعوة الإسلامية ، ثم لا يطلقون لأقلامهم العنان في تحليل بلاغته عليه السلام . وهم يعلمون مكانها من نجاح الرسالة وانتشار الدعوة ، ولعل هؤلاء الأفذاذ ظنوا ذلك من صنيع مؤرخ الأدب لا كاتب التاريخ . ولو فطنوا إلى واجبهم الأكيد في دراسة البيان النبوي باعتباره المعجزة الأولى لصاحب الدعوة لأفاضوا في تحليل الأدب النبوي إفاضة شافية ، لا جملا مقتضبة تساق استطرادا دون أن تعقد لها الفصول . ولعل من توفيق الله أن يكون الأستاذ مصطفى صادق الرافعي قد اختص البيان المحمدي بنحو سبعين صفحة أحققها بكتابه الشهير « إعجاز القرآن » ، ثم عاود الكرة حين كتب فصلا تحليليا بارعا من الأدب المحمدي كان مفتتح الجزء الثالث من « وحى القلم » ، وهو صنيع مشكور ، لا يقاس به صنيع معاصر آخر ممن أولوا بيان محمد ﷺ جانبا من الاهتمام .

بدأ الرافعي حديثه عن البلاغة النبوية بمقدمة لا يخطها في العربية إلا أديب كبير من أولئك الذين اشتهروا بنمط خاص من البيان يرتفع ويحلق متخذًا جناحيه القويين من الإلهام النافذ والبيان الناصع ، فهو يقول في نسق شعري قد اشتهر به وعرف عنه « هذه هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون

غايتهما ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة .

الألفاظ النبوية يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهى إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، مجذوفة الفصول حتى ليس فيها كلمة مفصولة ، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ إن خرجت فى الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، فى منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدماء ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا إنه كلام الأرض بعد السماء .

كلام رائع ساحر يزينه أن جاء فى مقدمة بحث علمى عن أفصح البلغاء . ولو تخفف الرافعى قليلا من طريقته البلاغية فيما بعد المقدمة من الفصول العلمية لأفاد قارئه أكثر مما أفاد ، لأن الكاتب الكبير رحمه الله قد عالج الأسلوب العلمى فى مباحثه المحمدية بطريقته الأدبية ذات المعانى المتداخلة والتحليق الطائر إلى حيث لا نقتنص فرائده إلا بعد كد وامتناع . وهذا ما جعل كتابته عن الإعجاز القرآنى والبلاغة المحمدية لا تفيض على القارئ بكل ما حملها الكاتب الضليع من أفكار . وقد جاءه ذلك من طبيعته الأدبية التى تدق وتدق حتى لتخفى على النبهاء فضلا عن المتوسطين ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور « عبد الوهاب عزام » رحمه الله قد قال مرة عن أسلوب الرافعى إنه يعلو عليه أحيانا فلا يكاد يدرك إلا أنه مرتفع وأنه فى السماء ، أما ما تضمن من جميع المعانى فذلك ماغاب عن عزام فما ظنك بسواه من أمثالنا^(١) .

(١) الأوبد للدكتور عزام ص ٢٠٩ .

بدأ الرافعى حديثه بفصل عن فصاحة محمد صلى الله عليه وآله فوازن بينه وبين فصحاء العرب إذ كانوا يهذبون الكلام ، ويبالغون فى تجويده عن نظر متقدم وروية مقصودة وعن تكلف يستعان له بأسلوب الإجابة التى لا تسلم حيناً من عيوب الاستكراه والزلل ومن كلمة غيرها أليف ومعنى غيره أراد . أما رسول الله فقد كان لا يتكلف ولا يقصد إلى ترتيبه ، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة ، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، ثم لا يعرض له فى ذلك سقط ولا استكراه ولا تستزله الفجأة وما ييده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع وعن النمط الغريب وطريقته المحكمة بحيث لا يجد النظر طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً ، ثم أنت لا تعرف له إلا المعانى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام ، وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد وبراعة القصد والمجىء فى كل ذلك من وراء الغاية^(١) .

وقد انتفع الرافعى فى حديثه عن الفصاحة بما قاله الجاحظ وأربى عليه بقوة التخريج وتعدد ضروب الافتنان . لأن الجاحظ على تحدره وانصبابه لم ينبسط انبساط الرافعى فى القول بل طوى الكثير ، أما الرافعى فقد تحدث عن مولد محمد فى بنى هاشم ، وختولته من بنى زهرة ، ورضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشئه فى قريش ومهاجرته إلى الأنصار مما يمدله من أسباب الفصاحة والإبداع وأذكر أنى فى باب (القرآن أستاذ محمد) من هذه الرسالة قد حكمت بأن ذلك كله من قبل العوامل المساعدة فقط فكم من العرب نشأ نشأة محمد ولم يبلغ درة من إبداعه البيانى فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ثم أفاض الرافعى فيما أفاض فيه الجاحظ من أن العرب لسن مقاول ولو علموا عن الرسول شيئاً من العجز البيانى لنددوا به وذهبت فى ذلك خطبهم وقصائدهم كل مذهب ، لاسيما وقد سفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم ، والمولعون بالنقد الأدبى يجدون

(١) إعجاز القرآن ص ٣١٤ .

فيما تشابه من كلام الرافعي والجاحظ مجالا للموازنة البارعة بين السابق واللاحق مما لانطمع فيه الآن .

كما أسهب الأستاذ الرافعي في الحديث عن صفات محمد الجسمية وحلاوة منطقة وبلاغة صوته ووشى ذلك بطابعه الأدبي المعهود إذ يقول عن محمد :

« وانظر كيف يكون الإنسان الذي تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها ، ويجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها ، فهو في صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، وفي صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك وماخص بتلك الصفات إلا ليملاً بها الكون ، ويعمه ، ولا كان فردا في أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة » .

وإذا رجعت النظر في تلك الصفات الكريمة واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الذي تبنى عليه فراسة الكمال في نوع الإنسان من دلالة الظاهر على الباطن ، وتحصيل الحقيقة الإنسانية التي هي بطبيعتها روح الإنسان في أعماله أو أثر هذا الروح أو بقية هذا الأثر ، فإذا تأملتها منسقة ، وتمثلتها قائمة في جملة النفس وأنعمت على تأمل صورها الكلامية بالمعنى فإنك ستجد في ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبية في هذه اللغة وأشدّها وأحكمها مما يضطرب به الضعف ولا تزييله الحكمة ولا تخذله الروية ، ولا يباينه الصواب بل يخرج رصينا غير متهافت ، ونسقا غير متفاوت ، لا يغلب على النفس التي خرج منها بل تغلبت عليه ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأي ، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه بل تراه على استواء واحد في شدة وقوة واندماج وتوثيق ، وهذا هو الأسلوب العصبي الممتلىء الذي قلما يتفق منه إلا القليل لأبلغ الناس وأفسحهم ، وقلما يكون أبلغهم وأفسحهم في كل دهر إلا عصبيا على تفاوت في نوع المزاج وحالته فإن من الأمزجة العصبية البحت ، والمنحرف إلى مزاج آخر

ولكل من النوعين حالة قائمة بالكلام ، وصفة خاصة بالأسلوب ^(١) .

لقد أسرفت بعض الشيء في الاقتباس من كلام الرافعي لأعطي القارئ صورة أمينة من أسلوبه العلمي ، وليرى معي كيف دق في بعض المواضع دقة لم تسفر بجلاء عن كل ما يريد — ولو لمثلي — ممن لا يفهمون غير المطرد الصريح ولكل وجهة هو موليها .

أما ما ذكره الرافعي ابتداء من صفحة ٣٢٧ عن إحكام منطق صلى الله عليه وسلم فقد جاء بديعا صائبا .

إذ علل صمت الرسول وتجمعه قبل الحديث تعليلا نفسيا رائعا ، فأبان كيف يمر منطق صلى الله عليه وسلم بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم ، وأظهر أن العقل فيه من وراء اللسان ، فهو غالب عليه مصرف له ، حتى لا يعثره لبس ، ولا يتخونه نقص وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة ، وعضوبة المنطق ، وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه صلى الله عليه وسلم عند أسبابها الطبيعية لم يتكلف لها عملا ولا ارتاض من أجلها رياضة بل خلق مستكمل الأداة فيها ونشأ موفر الأسباب عليها كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية ^(٢) .

ثم عاود رحمه الله الكرة إلى الفرق بين فصاحة محمد وفصاحة سواه من جهة إحكام المنطق وامتلائه ، فإن أحدهم يكون مهيبا لذلك من أصل الخلقة وبطبيعة النشأة ، بيد أن طباعه لا تتوافى إليه في كل منطق وفي كل عبارة ، بل ربما غلبت خصلة على أختها ، وربما تخاذلت طبيعة من طباعه ، وربما ترك لفظه لبعض الضعف في معناه فخرج من عاداته في النطق به ، وهذه كلها عيوب تلحق الفصحاء من جهة النفس في ضعفها واضطرابها وغفلتها ، ولكنها لن تكون لقوى النفس معتد لها متيقظها كالأنبياء وفي طليعتهم محمد .

(١) إعجاز القرآن ص ٣٢٤ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٢٩ .

وفي حديث الرافعي عن جوامع الكلم أبدع الكتاب ماشاء في التعليل والتحليل ، وضرب الأمثلة واستبان بالجاحظ وسواه . ثم تطرق إلى حديث مسهب عن نفى الشعر عنه صلى الله عليه وسلم فأثنى بأكثر المتعارف ، وأذكر أنني ناقشته نقاشا جوهريا في ذهابه إلى تصديق مايروى خطأ عن كسر النبي بعض الآيات الشعرية في نطقه ، وذلك في الفصل الذي تحدثت فيه عن موقفه صلى الله عليه وسلم من الشعر والشعراء . وقد ذهب الكثيرون من الكتاب قديما وحديثا إلى ماذهب إليه الرافعي في ذلك ، وماقلته في مناقشة الرافعي يقال لهم أيضا مادامت القضية واحدة لم تتغير ، ومأحب أن أعيد هنا الحديث .

ثم تحدث الأستاذ عن تأثير محمد في اللغة فنص على ألفاظ وجمل وضعها الرسول وضعاً كالمخيلة مراداً بها سبل الإزاء ، وكقوله « مات حتف أنفه » ، وقوله « حمى الوطيس » « وبعثت في نفس الساعة » ، ثم تابع القول فيما روى من الغريب في بعض رسائله صلى الله عليه وسلم إلى النازحين من الأعراب . وقد أسلفنا القول في ذلك ، ولم يكن الرافعي أبا عذرة هذا الموضوع فقد تابع سابقه ، وهو مالا بد منه في مجال التأريخ للبيان النبوي إذ كل لاحق من الكتاب يضع لبنات فوق لبنات وليس في طوق كاتب معاصر أن ينشئ الصرح المرتفع إنشاء دون أن يستعين .

« أما ما ذكره الرافعي عن سمات الأسلوب النبوي من الخلوص والقصد والاستيفاء ، فقد وفق فيه أكبر توفيق إذ أصاب الوصف الأدبي إصابة شافية مستوفاة وقد علل اطراد السمة الأولى في بيانه صلى الله عليه وسلم بأنه لم يكن في العرب من ينفذ في اللغة وأسرارها وضعاً وتركيباً ، ويستبعد اللفظ الحر ويحيط بالعتيق من الكلام ويبلغ من ذلك إلى الصميم ما يبلغه رسول الله ، إذ تهيأ له الأسلوب العصبي الجامع المجتمع على توفيق السرد وكمال الملاءمة وما من فصيح إلا وهو في إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون في الأخرى على ما يلحقه من

النقص فيهما جميعاً^(١).

وأما القصد والإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى في ألفاظه ومن طبيعة الألفاظ في معانيها ومن طبيعة النفس في حظها من الكلام وجهته اللفظية والمعنوية فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركة النفس ، وكانت الجملة تخلق في منطقه صلى الله عليه وسلم خلقاً سوياً ، أو هي تنتزع من نفسه انتزاعاً وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب^(٢).

وأما الاستيفاء فقد جاء به كلام محمد صلى الله عليه وسلم على حذف فضوله وإحكامه ووجازته مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج ، ولا إحالة ولا اضطراب حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيباً على وجه تقتضيه طبيعة المعنى في نفسه ، وطبيعته في النفس فمتى وعامها السامع واستوعبها القارئ تمثل المعنى وأتمه في نفسه حسب ذلك التركيب فوقع إليه تماماً مبسوط الأجزاء ، وأصاب هو من الكلام معنى جموماً ، لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية ، كأنما هذا الكلام قد انقلب في نفسه إحساساً لنظر معنوي^(٣).

قال الأستاذ الرافعي :

ولاجتماع تلك الثلاثة في كلامه صلى الله عليه وسلم وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعي والخلط والانتشار ، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة كالمجاز البعيد الذي يغوص إلى الأعمال الخيالية وضروب الإحالة وفساد الوضع المعنوي وفنون الصنعة ، وما إليها مما هو فاش في كلام البلغاء يعين جفاء البداوة على بعضه ، ورقة الحضارة

(١) إعجاز القرآن ص ٣٧٤ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٧٤ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٣٧٤ .

على بعضه وهو فى الجهتين باب واحد^(١)

لقد صور الرافعى بلاغة الرسول كما تراءت له ، فأجاد التصوير على النحو الذى كان ينتظر منه وعلى الطريقة التى رضىها لقلمه وارتضته . وإذا كان سعد زغلول قد قال عن كتابه « إعجاز القرآن » إنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم فما أحرى الزعيم الكبير أن يضيف إلى قوله أو شعاع من بيان النبوة أسفره به يراع ميين .

وقد أتى دور العقاد بعد الرافعى فى حديثه عن بلاغة الرسول ، وللأستاذ العقاد أسلوبه المنطقى الرصين الذى ينتظم فحولة الفكرة ، ورصانة التعبير انتظاما يبرأ من الحشو والفضول فأنت حين تقرأ العقاد تقرأ مفكرا واعيا مرهف الحس قوى الملاحظة يأخذ بمجامع موضوعه أخذا محكما ، فهو يعالجه معالجة الفاحص الملم والخبير المستشف ، ثم لا يترك على إيجاز قوله وصلابة تركيبه وراءه زيادة لمستزيد .

لقد كتب العقاد العظيم كتابه الخالد « عبقرية محمد » لايُسجل سيرة الرسول الأعظم معددا وقائعها ومواقفها فى شتى فترات حياته ، بل ليدل على مناحى العبقرية فى سلوكه الإنسانى بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين المسلم وكفى . ومعنى ذلك أن قارىء عبقرية محمد فى كل ملة ولغة ودين إذا رزق محجة الإنصاف فإنه يرى شواهد العبقرية النبوية كما وضحها العقاد ساطعة بالألأئها الزاهر ، فيدين لمحمد بالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى .

وكان من المتوقع أن يخص الكاتب الميين بيان الرسول ببعض الحديث ، إذ أشاد ببلاغته فى أكثر من موضع ، أشاد بها فى باب (عبقرية الداعى) حيث تحدث عن فصاحته ، فرأى أن الفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة ،

(١) إعجاز القرآن ص ٢٧٥ .

أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب .

ثم جزم العقاد أن فصاحة محمد قد تكاملت له في كلامه ، وفي هيئة نطقه بكلامه ، وفي موضوع كلامه فكان أعرب العرب كما قال عليه السلام أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر .

ثم سلك الكاتب طريقته المعروفة في التحليل الكاشف والإقناع الهادف فقال :

« ولكن الرجل قد يكون عربيا قرشيا مسترضعا في بني سعد ، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم أو يكون صوته غير محبوب أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل ، أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسر دكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصلٍ يحفظه من جلس إليه » .

اتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها ، فهو صاحب كلام سليم في منطق سليم .

فهذا أيضا قد تنزه عنه الرسول في فصاحته السائغة من شتى نواحيها فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل على أنه قد أوتى حقا جوامع الكلام ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء مارزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام^(١).

فها أنت ذا ترى العقاد قد سلك سبيل التحليل الفكري حين قلب الأمر في الفصاحة على أوجه الثلاثة ليبين كيف تكون الفصاحة صفة في الكلام دون هيئة النطق ودون موضوع الكلام ، وكيف تكون صفة في الكلام وهيئة النطق

(١) عبقرية محمد للعقاد ص ٢٩

وحدهما وكيف تجتمع في النواحي الثلاث اجتماعا يلتمس شاهده من حياة الرسول الأعظم ، وهو ما عناه من موضوعه . فشفي حاجة النفس في التحليل الكاشف والإقناع السديد . طيب الله ثراه .

وفي فصل خاص عقده العقاد عن محمد البليغ طالعنا الكاتب الكبير يرأه في البلاغة النبوية حين بدأ الحديث بقوله في إصابة وتحديد :

« اللهم هل بلغت ، هذه هي اللازمة التي ردها النبي في أطول خطبه الأخيرة وهي خطبة الوداع ، وهي لازمة عظيمة الدلالة في مقامها لأنها لخصت حياة كاملة في ألفاظ معدودات ، فما كانت حياة النبي كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصله خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام ، وهو يجود بنفسه « جلال ربي الرفيع فقد بلغت » ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه المحفوظ بين أيدينا هي سمة الإبداع قبل كل سمة أخرى ، بل هي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها لأنها أصل شامل لما تعرف من سمات هي منها بمثابة الفروع ^(١) .

ومضى الكاتب يستشهد بنماذج مختلفة من آثار الرسول من قصة ، وخطبة ، ورسالة ، ومعاودة ليثبت أن الإبلاغ هو السمة المشتركة في أفانين هذا الكلام جميعا حتى ماجرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرعوسين أو مجرى الدعاء الذي يلقيه المسلم ليدعو الله على مثاله ، ثم ختم هذه النماذج المختلفة بتحليل كاشف يوضح السمة البارزة التي رآها الكاتب تطبع أسلوب النبي ﷺ بطابع فريد ، وهي سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين ، وأصدق ما يقال في تعريفها ما قيل في تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة : أقرب موصل بين نقطتين .

قال الأستاذ العقاد بصدد ذلك :

(٢) عبقرية محمد ص ٩٥ .

« فليس أقرب من هذا الأسوب في إبلاغ الغرض منه ، لا كلفة ولا غموض ولا إغراب ، والغريب بل ندرته في كلام النبي أجدر الأمور بالملاحظة في إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ، فمحمد القرشي الناشئ في بني سعد العالم بلهجات القبائل حتى ماتفوته لهجة قبلية نائية الأطراف لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثا لتفهم عنه وأنه يبغض التكلف والاعتزاز بالبلاغة كما قال « إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها » وقد عرف عن النبي عليه السلام في حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضا عن اللغو ، لا يقول إلا الحق وإن قاله في مزاح ، فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة فإذا كرر اللفظ يعينه فذلك أسلوب المعاهدات الذي لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، فهو أيضا سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق أو على سبيل الإعادة التي روى أنه كان يتوخاها عليه السلام أحيانا ليعقل عنه كلامه ^(١) .

ثم تعرض العقاد إلى موقف الرسول من السجع فروى أنه كان يكره سجع الكهان إذ يخدعون السامع حين يوهمونه أنه يستمع إلى طلاس السحرة والشياطين ، ولكنه لم يكن يأبى السجع بته ولا يخلو كلامه مما جاء منه على السجعية ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالآذان أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة ثم استشهد الأستاذ على ذلك بقول رسول الله :

« ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق » .

(١) عبقرية محمد ص ١٠٠ .

وكذلك قوله ﷺ :

« إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

ثم استشهد بنصوص أخرى من رسائل الرسول ومعاهداته ، وختمها بقوله :

« هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره وماعداه من تجميل الكلام فهو تجميل الإبلاغ الذى لا كلفة فيه » بعد أن قال قبيل ذلك عن سجع محمد ﷺ « إن مذهبه فى هذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل ، فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى تليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد » .

وخلص الكاتب بعد أن جال بجولة موفقة حول رسائل النبى إلى الملوك والأمراء إلى القول بأن أسلوب محمد فى الكتابة والخطابة أسلوب عصرى يقتدى به المعاصرون فى زماننا وفى كل زمان لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطا للكلام العربى القديم والفصل بينها من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ثم استشهد على ذلك بما يؤيده من البيان الشريف .

ولم يفت الأستاذ العقاد أن يتعرض إلى رأى النبى فى الشعر فأوجز ما قيل فى ذلك ، ثم ذهب إلى أن محمدا كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد ، وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون ، وقد سبق أن خالفنا هذا الرأى ، وجعلنا كلام الرافعى فى ذلك مجال التعقيب والتصحيح . وإن كانت عبارة العقاد « لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد » أهون بكثير من قول الرافعى لأنه لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين .

ثم ختم العقاد هذا الفصل الممتع عن بلاغة الرسول بكلمة عن جوامع كلمه صلّى الله عليه وقال بصدد هذه الظاهرة النبوية إن الإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد بسطها الشارحون فى مجلدات .

ومن أمثلة ذلك — كما اختار العقاد — فى علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله « احرث^(١) لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ومن أمثلة ذلك فى علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله « كما تكونوا يول عليكم » .

ثم أردف هذا النص بإيضاح ماينطوى عليه من قواعد أصيلة فى سياسة الأمم « إذ يدل على أن الأمم مسئولة عن حكوماتها لايعفيها من تبعة ماتصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه » .

وينطوى فيه أن العبرة بأخلاق الأمم لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومات ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف بالاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوى فيه أن الولاية تبع لا تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله مايقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأخرى ألا يغير الوالى قوما حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

(١) الرواية المشهورة اعلم لدنياك وقد بحثت عن مصدر العقاد فلم أهتد إليه على أن الحديث ينسب للإمام على فى بعض الروايات .

وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .
وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم
صلاح واستقلال .

وهذا هو الإبلاغ الذى ينفذ فى وجهاته كل نفاذ^(١) .

وهذا التحليل العلمى السياسى لا يدركه غير مفكر كالعقاد إذ استطاع
بمجهره الثاقب أن ينفذ إلى ما يغيب عن سواه فى دنيا السياسة والتاريخ . وإذا
جمع العقاد كل هذه الروائع فى فصل كتبه عن بيان محمد ، فأى نفع يتاح
 للقارئ لو ألهم هذا الكاتب الكبير أن يبدع فى أدب النبى كتابا متعدد الفصول
 والأبواب .

بقى أن نشير إلى بعض ما كتبه الأستاذ « أحمد حسن الزيات » صاحب
الرسالة عن بلاغة محمد ، وأستاذنا الزيات ممن عشقوا البلاغة العربية وأبدعوا
بعض روائعها الجميلة ودافعوا عنها تعبيرا وتصويرا وتفكيراً ، وأرخوا لأدبائها
على مد العصور . وقد كانت مجلة الرسالة التى رأس تحريرها أكثر من عشرين
سنة تصدر كل عام عددا ممتازا عن محمد والدعوة الإسلامية والتاريخ العربى
يشيد بمحاسن العروبة والإسلام ، ويجمع أعلام الفكر فى العالم العربى محللين
للكثير عن مفاخر الإسلام وتراث محمد والعربية .. فإذا كتب الزيات عن بلاغة
محمد فقد كتب فى ميدان يعد أحد أساطينه وتحدث عن رجل قد امتلأ ببيانه
وهده .

عقد الأستاذ الزيات فى الجزء الثالث من وحي الرسالة فصلا جميلا عن
بلاغة الرسول ﷺ وذلك غير ما كتبه عن محمد فى تاريخ الأدب العربى وفى
نثار متفرقة من كتابه الجليل « دفاع عن البلاغة » فتحدث فى مقال وحي الرسالة
عن موقفه الشخصى من بلاغة محمد ، وتساءل هل يستطيع أن يدرك كنهها

(١) عبقرية محمد ص ١٠٧ .

الحقيقي وهي في لبابها من صنع الله ، ولعل الأجدر بكلام الزيات أن يتحدث بنفسه لا أن نبتره بالتلخيص والاقتضاب ، فلنسمعه إذ يقول :

« إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقياسه عن مقياسه ، فنحن لاندرک كنهه ، وإنما ندرک أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة . إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده ^(١) .

تلك مقدمة بليغة مهد بها صاحب الرسالة لحديثه ثم أخذ يبين كيف تجمعت فيه صلى الله عليه وسلم خصائص البلاغة بالفطرة وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة إذ ولد في بني هاشم ، ونشأ في قريش ، واسترضع في بني سعد ، وتزوج من بني أسد ، ثم هاجر إلى بني عمرو من الأوس والخزرج وهذه القبائل هي بالإجماع أخلص القبائل لسانا وأعذبها لهجة ، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هي المخالطة والمحاكاة ، ومضى الكاتب يتعرض موجزا لتاريخ النبي الأعظم من تصرفه في التجارة وضربه في الآفاق واعتكافه في غار حراء ، وماشتهر من إطالة سكوته وإدامة تفكيره ، ثم استشهد بما قاله الجاحظ في حديثه عن بيان محمد . وخلص من ذلك كله إلى تحديد خصائص الأسلوب المحمدي فقال :

« إن أخص ما يميز الأسلوب النبوي الأصالة والإيجاز ، فالأصالة هي خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٨١ .

البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية كقوله عليه السلام . (مات حتف أنفه) ، « الآن حمى الوطيس » ، هدنة على دخن) ، (رويدك رفقا بالقوارير) وقوله في يوم بدر ، « هذا يوم له مابده ، ولتمكن الأصالة فيه » ، وكان يقتضب ويتجوز ويشفق ويبتدع فيصبح مأمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرا من أسرار اللسان ، يزيد في ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ، لأن الإيجاز قوة في التعبير ، وامتلاء في اللفظ ، وشدة في التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح ، وقوة الشعور وقوة الذهن ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه ^(١) .

ثم عرج الزيات على ما أطل في الرسول من القول حين خطب بعد العصر فقال : ألا إن الدنيا خضرة حلوة ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه ... قال الراوي ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف ، وأشار إلى قدرته ﷺ العجيبة على التشبيه والتمثيل ، وإرسال الحكمة ، وإجادة الحوار ، وضرب الأمثلة الكثيرة على ذلك من البيان المحمدي ثم اختتم الأمثلة المختارة بقوله ﷺ « إن قوما ركبوا سفينة فاقتموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني أصنع فيه ما شاء ، فإن أخذوا على يده نجا وإن تركوه هلك وهلكوا » .

(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٧٩ .

ومن عجائب التمثيل النبوى أن يفتح للبلغاء أبواب التفكير حيث يستطيع ويمتد حتى يشتمل من مجريات الحوادث ، وأعاجيب الزمان فى كل عصر مما يرى فيه البليغ الثاقب موضع التطبيق والاستشهاد ، وقد سبق أن أشرنا إلى تعليق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على هذا الحديث حيث قال مصورا مايلمسه فى أحداث عصره من تهور أدعياء التجديد وجرأتهم على اختراق الحق بباطل الإفك .

« فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ، ويسمون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروبا من الأوصاف كحرية الفكر والغيرة والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا ، وآدابنا بفأسه أى بقلمه زاعما أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه مايشاء ، ويتولاه كيف أراد موجهها لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة جاهلا أن القانون فى السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه ، كما يحكم على الأعمال الأخرى بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد مادامت ملججة فى بحرها سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد هو (أوسع قبر) .

هذا ما أوحاه المثل المحمدى للأستاذ الرافعى ، أما ما أوحاه — هو بعينه — للأستاذ الزيات فقد عبر عنه بقوله :

« والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإسلام والعروبة تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال ، فصار لكل منهم وطن ودولة ، ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة كما تجمع السفينة مواضع

الركاب فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط في قوام حياته بغيره ، فهو حرى ألا يغرق بحريته الجمع ، والوطن الجمع حرى ألا يغرق في عباة الوطن الفرد ، وكأن الرسول ﷺ بما آتاه الله من ألمعية الذهن ، وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية لعلها تتذكر فتتدبر ، وهي بلاغة الإلهام والفيض تكشف الحجب بنور الله ، وتخرق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوءة المستقبل ،^(١) وبالزيات نختم حديثنا عما قاله نفر من أفذاذ الأدب عن بيان محمد في القديم والحديث وهي أقوال دقيقة مشخصه إذا تؤملت أصدق التأمل ، وتدبرت أعمق التدبر كانت فصلا محكما عن سمات الأدب النبوى اجتهد في بنائه صباة من ذوى الفكر الحر والرأى الأمين .



(١) وحى الرسالة ج ٣ ص ٨٣ .

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٥	— مقدمة
١٥	— النص النبوى ثابت مكين
٣٣	— طابع الحديث الصحيح يدل عليه ويحتم الاستشهاد به
٥٢	— القرآن أستاذ محمد . نظرة في عوامل تكوينه الأدبى
٧٠	— محمد صلى الله عليه وسلم خطيباً
٨٩	— موقف النبى من الشعر والشعراء
١٠٦	— رسائل محمد ونصوص معاهداته
١٢٢	— الأقصوصة في أدب الرسول
١٤٠	— صور القيامة في أدب محمد
١٥٩	— تأثير حديث المعراج في الأدب العالمى
١٧٤	— محمد رائد الدعوة والدعاة
١٩٤	— الابتهاال فن طريف في أدب محمد
٢٠٩	— سمات الأسلوب النبوى
٢٠٩	— (أ) مقدمة
٢١٠	— (ب) الأفكار في الحديث الشريف
٢٢٣	— (ج) الصور البيانية في حديث الرسول
٢٤٠	— (د) ناحية التعبير من الحديث
٢٥٦	— رسالة الأديب كما حققها الرسول
٢٧٠	— نماذج من التفسير النبوى للقرآن
٢٨٦	— بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث

الصفحة	الموضوع
٣٠١	— يتحدثون عن محمد الأديب
٣٠١	ثلاثة من القدماء
٣٢٥	— يتحدثون عن محمد الأديب
٣٢٥	ثلاثة من المعاصرين
٣٤٣	— المحتوى



Handwritten text, possibly a signature or name, located at the bottom center of the page.

Additional handwritten text or a stamp located below the signature, containing illegible characters.

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٧ / ٢٨٣٣

الترقيم الدولي ٥ - ٠٨ - ١٤٢١ - ٩٧٧

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلکس : DWFA UN ٢٤٠٠٤